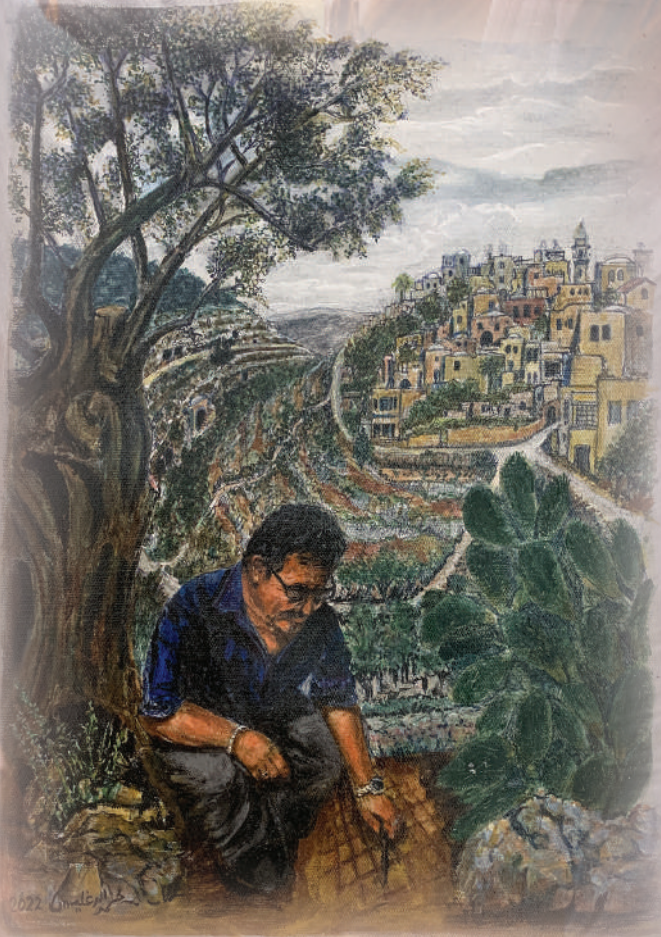


محمد الدغليس

زنبقة الصخر

(سنوات الألم والأمل)



(سيرة ذاتية)





زنبقة الصخر

(سنوات الألم والأمل)

محمد الدغليس

زنبقة الصخر

(سنوات الألم والأمل)

(سيرة ذاتية)

٢٠٢٣

• زنبقة الصخر

(سنوات الألم والأمل)

(سيرة ذاتية)

• محمد الدغليس

• الطبعة الأولى ٢٠٢٣

• الإخراج الفني: سمير اليوسف هاتف: ٠٧٩٩٦٧٧٥٦٩

• لوحة الغلاف والرسومات الداخلية: الفنان التشكيلي محمد الدغليس

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية (2023/8/4560)

بيانات الفهرسة الأولية للكتاب:

عنوان الكتاب	: زنبقة الصخر: سنوات الألم والأمل
تأليف	: الدغليس، محمد علي محمد
بيانات النشر	: عمان: محمد علي محمد الدغليس، 2023
الوصف المادي	: 420 صفحة
رقم التصنيف	: 927.3
الوصفات:	: / السيرة الذاتية / الفنانون / / الفنون التشكيلية / / فلسطين /
الطبعة	: الطبعة الأولى
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.	

• (ردمك): ISBN 978-9923-0-0789-1

• جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يُسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من المؤلف.

• All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior written permission of the author.

الإهداء

إلى شريكتي حياتي
إلى أبنائي وبناتي وأنسابي
إلى زملائي أصدقاء الطفولة والشباب
إلى كل من شجعني على كتابة سيرتي

محمد الدغليس

مقدمة

د. زياد أبولبن

تحفل سيرة الفنان التشكيلي محمد دغليس بأحداث متشابكة مع الواقع الاجتماعي والعملي والعلمي، بدءاً من مرحلة الطفولة وصولاً إلى العمل المهني، وهذه السيرة تمثل الجزء الأول من حياته، سيتبعها بجزء ثانٍ يتعلّق بسيرته في الفن التشكيلي وما أحاط بها، ومن يقرأ هذه السيرة سيكتشف حجم المعاناة التي مرّ بها دغليس في حياته، معاناة ملؤها الألم والأمل معاً، وهي حياة الفتى الفلسطيني الذي عاش طفولته وسنوات قليلة من العمل في قريته «سلفيت» قضاء مدينة نابلس الفلسطينية.

تحرّى دغليس الصدق والحقيقة في رصد تفاصيل حياته، حيث سرد سيرته بلغة مباشرة تصل إلى مستوى القراء بمختلف ثقافتهم، بعيداً عن إغراق اللغة بجمالياتها الفنية، وإنما كان يهدف من وراء ذلك إلى امتاع القارئ بسرد سيرته، وإلى تسجيل وقائع وتجارب ومغامرات تمثل نموذجاً للفتى الفلسطيني المكافح، للوصول إلى هدف رسمه مُذ كان طالباً على مقاعد الدراسة في «سلفيت»، مروراً بدراسته الجامعية في اسطنبول، وما لقيه الفتى طوال هذه الرحلة من صعاب وعذابات وتحديات وآلام وآمال

وأحلام تحققت بإرادة وعزم.

كان دغليس صريحاً في سيرته حدّ الفجيرة بما أصابه من أبيه في طفولته، وما أصابه من حنان ورعاية من أمّه المغلوب على أمرها في مجتمع محافظ، كذلك ما اعترى حياته من تشرد وضياع في شوارع عمّان وأزقتها، إلى حياة كفاح في اسطنبول أيام الدراسة الجامعية، وما رافقها من مغامرات شاب وجد في هذه المدينة حياة منفتحة لا حدود لها، إلى حياة، في مدينة عمّان، لا تقلّ قسوتها عمّا عاشه في قريته «سلفيت»، وما بين بارقة الأمل والألم، وما بين الحزن والفرح، استطاع أن يشقّ طريقاً صعباً للوصول إلى مكانة مرموقة في العمل الهندسي يُشار لها بالبنان.

برغم ما تعرّض له دغليس في غربته، وما قدّم له من إغراءات، قد تنقله من واقع مأساوي بمعنى الكلمة إلى رفاهية الحياة، ظلّت «سلفيت» حاضرة في وجدانه، لا يغيب عن عينيه وطن محتلّ، وعائلة تنتظر ابنها منقذ الفقر والحرمان، كما ظلّ ضميره الحيّ يقظاً لا يُهادن ولا يلين أمام كل هذه الإغراءات.

سينتظر قارئ هذه السيرة في جزئها الأول أن تكتمل في جزئها الثاني، وسيجد ما لا أستطيع الإحاطة به في هذه المقدمة، فمحمد دغليس لم يُبقِ شاردة ولا واردة في حياته إلا وخطّها قلمه في هذا السفر، وسيجد القارئ في (التمهيد) ما يُيسّر عليه الدخول إلى عوالم الكاتب.

تمهيد



في أقاصي الغرب البعيد حيث لا يعرفني أحد، فقط وحدتي
وعزليتي وفرستي التي طالما رغبت بها، تتلاشى المسؤولية اليومية
ورتابة الروتين المعهود، لا لغة للجدال المستهلك يشوش الفكر،
تهدأ السريرة، وتصفو الرؤيا، ويسمو التأمل في الماضي والحاضر
واستشراف المستقبل، لا شيء يشغل البال، ويشتت التركيز على
استحضار الماضي السحيق من بواكير حياتي ومسيرة عمري،
سواء كنت ملازماً جلستني إلى الطاولة المتواضعة التي أعدتها لي

ابنتي في زاوية غرفتها إلى جانب سرير نومي وعليها (لاب توب)، علمتني كيف استمع للموسيقى المفضلة لديّ، والأغاني القديمة التي تثير شهيتي لاجترار الماضي وذكرياته، ومشاهدة ما يحلو لي من أفلام أو مسلسلات الخيال العلمي، وبعض الأوراق المقوّاة والأفلام والألوان التي تستجيب لهوايتي المفضلة، إثراءً لوقتي، وانعاشاً لروح الإبداع في أعماقي، وإسدالاً للأجواء التي تعينني وتشبع رغباتي .

تلك الغرفة التوأم مع غرفة أخرى تسكنها إحدى زميلاتها الجامعيات، بينهما حمام مشترك ضمن شقة حديثة التصميم، لها صالة جلوس، في إحدى زواياها مطبخ مفتوح، يتكامل مع جماليات المكان، بشبائيك واسعة حتى أرضيتها، أجواؤها دافئة معزولة بطريقة تجعل الهدوء الحميم من أهم ميزاتها، تقع في الطابق الأوّل في بناية من ثلاثة طوابق فقط، يتم الوصول إليها وإلى غيرها بدرج أمامي عريض مكشوف الجوانب، يحيط بشجرة مثمرة، أظنّها شجرة خوخ بري، مما يُضفي على صالتها إطلالة جميلة، على ساحات من النجيل الأخضر الذي تحيط به أشجار كثيفة، تؤطر الساحات بما يشبه الوادي الطبيعي، متشابك الأشجار .

ذاك المبنى الجميل هو أحد مباني التجمعات السكنية الجامعية لجامعة «هيز»، الجامعة التي تكمل فيها ابنتي دراساتها العليا بكلية الفنون في جامعة «هيز»، التي تتوسط مدينة صغيرة تحمل الاسم نفسه، في ولاية كنساس الأمريكية، حيث تتداخل مباني الجامعة

العريقة وإسكاناتها مع مباني المدينة وشوارعها وأسواقها، بلا فواصل أو أسوار، باستثناء الحدائق والمسطحات الخضراء والملاعب والأشجار الباسقة، تتواصل أطرافها مع الغابات والوديان القريبة بتناغم مثير. لم تمنع إدارة الجامعة من إقامتي مع ابنتي للفترة التي أرغب، دون حتى استشارة زميلتها التي لم تمنع أبداً، وبقيت تمارس حياتها بشكل طبيعي، وكأنني غير موجود.

حيث إنّ ابنتي وزميلتها يقضيان معظم وقتهما في مدرجات الجامعة وقاعاتها ومرافقها ليلاً نهاراً، ولا تأنيان إلا للنوم القصير، بقيت معظم الوقت وحدي مستغرقاً في القراءة والكتابة وسماع الموسيقى والرسم، أشرب القهوة الأمريكية الساخنة باستمرار، وأتناول الطعام مما يوجد في أحد أدراج طاولة المكتب، من الخبز والجبن والبيض المسلوق وشرائح البسطرمة من اللحم المجفف وأحياناً (سندويشة). تأتي بها ابنتي أو إحدى زميلاتها أثناء استراحاتهنّ بين الدروس، ولا أغادر الشقة التي لا يقفل بابها كغيرها من الشقق، إلا لتدخين الغليون في المناطق المفتوحة القريبة، حيث إن التدخين ممنوع داخل المباني. في جولة يومية إلى مكان قريب أحمل حقيبتتي التي تحتوي على أوراقي وأدوات الرسم، متدثراً بملابس دافئة مقاومة لبرودة الطقس القارس، بالرغم من بزوغ الشمس، وأذهب إلى حديقة مترامية الأطراف - تُدعى المنتزه الألماني - فأشجار البلوط الباسقة تضيئي على المكان الهيبة والوقار، يتخللها نهر صغير تتجمع فيه مياه الأمطار والينابيع، وتكتنفه الأشجار البرية المتشابكة، ويعلوه جسر

خشبي مقوَّس متين جميل متقن الصنع، أجلس على مقعد خشبيّ متّصل بطاولة طالتهما عوامل التعرية، حتى بُهت لونهما وتآكلت أطرافهما، في فسحة واسعة من الفضاء والأرض التي انحسرت عنها أوائل الثلوج، لتسفر عن أكوام وفراش متعدد الألوان من أوراق الشجر والأعشاب الصفراء التي خلّفها خريف مضى قبل مدة وجيزة، أجلس وقد خلا المكان من الناس في ذاك الجو شديد البرودة، رغم سطوع شمس صافية تضيء على المكان سمفونية من الظلال والنور مما يزيده جمالاً وحيوية.

على ذاك المقعد أكتب وأرسم بهدوء، وأساريري منبسطة، وأستغرق أحياناً في تأمل عميق واستعرض ذكريات بائدة، أو أصحو على حركة قريبة صادرة عن مرور غزالة تهادى، رافعة رأسها، شامخة بقرونها المتشعبة، غير آبهة لوجودي، ماضية إلى سبيلها بلا توقف، وأكثر ما كان يسعدني أن يمرّ بي رجل أو فتاة أو سيدة يمارسون رياضة المشي، يومئون إليّ بتحية تنفج عن ابتسامة ساحرة صادقة بلا هدف، ويتعدون كأنهم يتجنبون إزعاجي، وأحياناً همسة - هاي - دون أن ينظروا جهتي، ابتسم لهم وللسناجب التي تتسلق وتهوي من أعالي الأشجار بشكل لولبي حول الساحة، إما لتدفن حبات البلوط أو البحث عمّا دفتته سابقاً، وفي أحد الأيام جاء عروسان جميلان بصحبة أصدقائهم، لتوثيق ذكرى سعيدة في حياتهم، بلباس فرحهم يلتقطون صوراً على الجسر الخشبي، تبسموا لي، فقمْتُ وباركْتُ لهم، وأهديتهم

اللوحة التي بين يديّ ذكرى مناسبتهم، فطفت على وجوههم فرحة وسعادة غامرة حتى أنهم احتضنوني شاكرين.

أكتب والكلمات تتلاشى أحياناً، ثم تتضح بعد أن أمسح دموع من مقلتي، التي تجمدت بفعل برودة الطقس ما دون الصفر المئوي، ولمعان الورقة البيضاء تحت أشعة الشمس، وآثار الإرهاق المزمن الذي أصابها نتيجة للإفراط في اجتهادها بالقراءة والكتابة وتوثيق أحداث الزمان والمكان كتابة ورسمًا، وما فرضته عليّ مهنتي كمهندس معماري أثناء الدراسة وحياتي العملية، إذ كثيراً ما قضيت الساعات الطوال على طاولة رسم المشاريع يدوياً، بتفاصيلها ورسوماتها ومجسماتها ومقاساتها الدقيقة، التي كانت تطول أحياناً لمدة أربع وعشرين ساعة متوالية، حتى في أيام الإجازة أروّح عن نفسي برسم لوحات فنية تعبيرية تداعب خيالاتي أو مشاهداتي، تاركاً لغيري حريّة تأويلها.

بتهيئة من القلب، وبعد أن حمدت الله أن أبقى لي نعمة تلك الفسحة من طاقة النور، التي أتواصل بها مع العالم، كانت بداية القصة، ابتدأت الذكريات تتبلور بمخيلتي كأنها حصلت البارحة فقط، فأصوغها بجُمل وتعبيرات تنسكب غزيرة على صحن صفحتي، مفرّغاً القلب مما أثقلته الأيام من الأحداث والخطوب، التي رافقتني على مدى سبعة عقود، مرّت كحلم طويل مليء بالروى السارّة المفرحة أو بكوابيس من الحسرة والألم. محاولاً استدراج ارهاصات أولى بواكير هذا الحلم، وتحسس ونبش ما

بقي في قاع النفس وأعماق الذاكرة، من ملامح وصور ما زالت تتفاعل في مكنونات الوجدان كلوحة رسمها قلم الدهر في مخيلتي بالأبيض والأسود، تكفّلت الأيام بمحو بعض جوانبها وأبقت على المعالم البارزة من الظلال والإضاءة، التي انحفرت في الصميم حتى صعب طمسها.

ابتدأتُ رواية حكايتي معاهداً النفس تحرّي الصدق والحقيقة مهما كانت مؤلمة دون مبالغة أو مواربة تعيبها، مُعلنًا عن حقائق طالما كان يحرّجني ذكرها أو حتى الملاحظات المزعجة التي كان يبيديها لي متطفل يُظهر الحرص والمحبة أو الشفقة. كيف لا وقد أصبحت في عمر لا يهمني ما يُقال سواء بحضوري أو من وراء ظهري، إن كان حقيقة أو تجنّي، واضعاً نُصب عينيّ أنه كما لم أوذِ أحداً في حياتي، قاصداً لن أكون سبباً للأذى لأحدٍ كان حياً أو ميتاً في روايتي عن نفسي.

سلفيت - سلة العنب -



في قلب فلسطين وعلى البعد نفسه من وادي الأردن والبحر المتوسط، وفي منتصف المسافة بين جبال نابلس وروابي رام الله، تتربع بلدة وادعة، تعتلي صهوة تل فسيح، يفتح غرباً مرجاً بنسيم البحر، يزين أطرافه تنوع فريد من أشجار الفواكه المشمش والخوخ والتفاح السلفيتي والأجاص والسفرجل والعنب واللوز وبيارة من الحمضيات، يلي ذلك ويتخلله كروم التين والعنب المتاخمة لغابات من أشجار الزيتون المعمّر الضارب في أعماق

التاريخ، المنتشر على سفوح الجبال المحيطة بذلك التل، الذي تنتشر على أطرافه ينابيع المياه العديدة والمغاور المحفورة في الصخر بفعل الإنسان، الذي سكن تلك البلدة في العصور الغابرة وبقايا معاصر حجرية لعصر العنب والزيتون.

تحيط بذلك التل الذي تريض عليه البلدة جبال عالية وأودية عميقة، قام الأجداد باستصلاح أراضيها، وعمل جدران من الحجر الخام الذي اقتلعوه من الأرض نفسها، التي تم تمهيدها لتكون مساطب مستوية، تؤطرها سلاسل من الحجارة الطبيعية المبنية، لاحتضان التربة الحمراء والاحتفاظ بمياه الأمطار، بما يثري الأرض وما عليها من أشجار الزيتون والتين، موشحة بالنباتات البرية المتنوعة كالبلوط والبطم والسريس والزرعور والسويد والسماق والقيقب والخروب والسرو والياسمين والورد البري، يتخللها تكتلات من شجيرات النباتات العطرية كالمرمية والزعتر بأنواعه البلدي والفارسي والقنديل والتتش والبيد والسنام، وحول ينابيع المياه المنتشرة عند أقدام تلك الجبال وبطونها، يتكاثر نبات العليق والعرقد والعجرم والتوت البري.

أعمق تلك الوديان وأغناها ما يسمّى بواد الشاعر، الذي له من اسمه نصيب، وذلك الوادي القادم من الشرق البعيد، متهادياً باتجاه الغرب، محاطاً بأراضي البلدة من الجهة الجنوبية، وعلى جنباته مجموعة من الينابيع الصافية بمياهها الباردة صيفاً والدافئة شتاءً، يعبق على مدار العام برائحة الأزهار كل في موسمه، ويحفّ به على امتداد جوانبه الطيون والشومر والورد البري الأبيض

والياسمين الملوّن والمتسلقات والمتعلقات التي لا تُحصى، مع بعضها تشكّل باقة سماوية، وإكليلاً من الجمال الممتع، تمتدّ جذورها إلى الحصى الأبيض المتدرج الأملس الصقيل بفعل المياه التي جرت في عرض الوادي.

كل هذا الغطاء النباتي الفريد من الفواكه التي لها أشهى الأطعمة وأحلاها طعماً ولوناً، والنباتات العطرية الغاوية على مدار العام، وزيتونها المشهور بزيت المميّز، تُسقى بماء المطر فقط، ولا تعرف أي نوع من المبيدات أو الكيماويات، ماء المطر الغزير شتاءً وقطرات الندى صيفاً، مما كان له الأثر الواضح على وجوه أهل البلدة، وطيب معشرهم ومحبتهم للآخر، وصفاء أذهانهم، وحلاوة أحاديثهم، ونكاتهم وكرم ضيافتهم، وعنايتهم بأرضهم وراثتها، وتقليم أشجارهم، وصيانة جدران بساينهم، وتعاونهم وتكافلهم.

إذا حلّ الربيع تبدو البلدة كعروس في أبهى حلتها، تصطبغ المروج بالزهور بكلّ ألوان الطيف، أزهار اللوزيات من الأبيض كالثلج إلى الزهري الفاتح والغامق، تربض على مروج خضراء وموشحة بالدحنون الأحمر والاقحوان الأبيض والأصفر، وعين العصفورة الأرجواني والبنفسجي، وأزهار النرجس تطلّ باستحياء من بين الصخور، وعلى أقدام العرقان اللامعة من آثار النزات المشبعة من مياه الأمطار.

حتى إذا أسدل الربيع دفتّه على الروابي والمروج، ترى صبايا البلدة بملابسهم الملونة ومناديلهن البيضاء كفراشات

جذلة تجوب الفضاء بين أشجار اللوز الأخضر وأوراق العنب،
ويلتقطن قرون السعيسة والخس البري والذبح وكل ما يؤكل من
الأرض الطيبة، على أنغام أحاديثهن الناعمة وضحكاتهن الشجية
أثناء لهوهن حول ينابيع الماء العذبة ومزاجهن الأكثر عذوبة، مما
يشكل لوحة فنية غاية في الجمال، تراقص حولها قلوب الشباب
وعيونهم التي تشرئب من بعيد لتسعد بكل تفاصيل اللوحة.

المحظوظ من يحظى بجولة في الوديان والجبال القريبة
والبعيدة في محيط البلدة أيام الربيع وأعتاب الصيف، فالعيون
لا ترتوي من جمال ويناعة الزهور البرية، والأنوف لا تشبع من
عبير تلك الزهور والنباتات العطرية، وتشنف الآذان بصوت دوي
طرود النحل التي تجوب البساتين والزهور، تسمعها وتبحث عنها
فوق رأسك، فلا تراها إلا إذا كانت منهمكة في امتصاص الرحيق
من أزهار الياسمين والورود والغار والطيون والشومر والعرقد
و القنديل الأصفر وقرطيس زهور الزعرور العطرة، وتتكامل
تلك السمفونية العذبة بأصوات قاقأة طيور الشنار، التي تعيش
كمجموعات تضع بيضها عند أحضان الصخور وتجاويف جذوع
الأشجار، و بين شجيرات الميرامية والتش والسنام، وحتى إذا
وجدتها صدفة تبدو ككنز من الذهب العتيق، كل هذا وما تعزفه
البلابل والطيور البرية من أصوات شذية تجعلك تسبح الخالق
على ذلك المحفل الرائع، ويجعل الحرائث الذين يحرثون بين
أشجار الزيتون يصدحون بالأهازيج والعتابا والميجنا، وخلال
ذلك ينهرون دواهم على العمل بعبارات مضحكة ويعودون

لترأويدهم وغنائهم، بما يثير شجون السامع وينعش قلبه ويأسر لبه
وتعابيرهم الأصلية الموروثة عن الآباء والأجداد.

وترى النساء وقد دبَّ فيهن النشاط باكراً يسرحنَ إلى الجبال
القريبة والبعيدة لجمع العكوب والزعر بأنواعه والشומר والمرمية
والغضة وكل ما تجود به الأرض ليؤكل، ولا أجمل من تجمعهم
عند الضحى يجلسنَ على بساط من الحشيش الأخضر قرب أحد
الينابيع، لتخرج كل منهن ما أحضرت من خبز طابون مدهون
بالزيت والملح وأحياناً الزعر المصنَّع ورب البندورة البيتية،
يضعنه أمامهن على شرشف بسيط ليتناولنَ إفطاراً شهياً مع ما
يلتقطنه من لبالب الزعر الجديدة وبعض أبصال الثوم البري،
ويأكلنَ بهناء ورغبة بعد تعب المشوار، ويتبادلنَ أخبار الأزواج
والحموات والأولاد، وكثيراً من النَم على الأتراب، يعدنَ مساءً
حاملات على رؤوسهنَّ ما جمعنه من خيرات الأرض، بعضهنَّ
يحملنَ رزمة من الحشائش المزهرة بكل الألوان لإطعام الأرانب
والدواجن التي يربينها في أطراف البيوت، يقضينَ الأمسيات في
فرط الزعر والشומר لتجفيفه، وتنظيف العكوب من أشواكه
لإعداد أطيب الأكلات الموسمية اللذيذة.

أما الأولاد الذين تعصف بهم بدايات الشباب وبوادر المراهقة
فيجتمعون لممارسة العاب الكورة (شبيهة بالهوكي) بشكل بدائي،
ويذهبون مساءً للحقول يجمعون ثمار الفول (قرون الفول المليئة
بالحبوب) من أرضهم أحياناً وسرقة من حقول غيرهم إن توفر

ذلك، ويقومون بشويها على نار يشعلونها باستعمال الحشائش والأغصان الجافة، وعندما يهدأ اللهب يفرشون الفول الأخضر عليها بما يسمى «أكلة الهويسه» حتى إذا نضجت وتحمّصت تناولوها بأيديهم من بقايا النار ويأكلونها حارة مدخنة لذيدة، لتصطبغ أيديهم وأفواههم بشحبار النار الأسود، وتمتلىء بطونهم بما صنعت أيديهم.

إذا كان الربيع هو فصل الشباب والجمال من فصول العام، فإنّ الصيف هو فصل النضج والإثمار والحكمة وجني المحاصيل المنتظرة، وما أطيب من صيفك يا بلدي، وهو وجود بالثمار اللذيذة المتنوعة، يبدأها المشمش والخوخ والدراق والتفاح السكري ويتوسطها التين والعنب ويختمها الزبيب والقطين والخروب، ويتخللها البطيخ والشمام والحمص والفريكة، وليس أجمل ولا أبهى من منظر نساء البلدة وهنّ عائدات مع شروق الشمس من عمائر التين، يتلفعنّ بعباءاتهن السوداء التي تظهر من تحتها أو من بين دفتيها أثوابهن المزركشة الملونة، وحزامهنّ الأحمر الملتف على وسطهن بعدة طبقات، ومناديلهن البيضاء الملتفة على الرؤوس والرقاب، وتحمل على رأسها الشامخ سلال التين والعنب اللّذي الغنيّ بتعدد ألوانه وتشطّيات حباته، وعندما تقابل من تعرفه من الأعمام والأخوال والجيران رجلاً كان أو امرأة في طريق عودتها تقف وتنزل ما على رأسها لتقدم لهم ما قطفته من المنتخب الطازج، ليتذوقوه وهي باسمه فخورة بنشاطها وحسن

اختيارها، حتى إذا ذبلت الثمار تجمع وتجفف ويحفظ القطين والزبيب للشتاء.

أمسيات لا تنسى تلك التي يعيشها الناس على البيادر، ففي أطراف البلدة، المنطقة الشرقية منها، تقع بيادر القمح لكل فلاح بيدره الخاص، الذي يجمع على أراضه الصلبة أغمار القمح بعد حصاده، والقليل من حصاد العدس والفول والحمص والبيكا، في المكان نفسه من كل عام وفي وقت الضحى والظهيرة وعندما تشتد حرارة الشمس وتبخر ما على القش من الندى، يقوم الرجال والأولاد بدراسة القش والسنابل بعد فردها بشكل دائري على أرضية البيدر بما يسمّى بالطرحة، وتقوم الحيوانات بدرسها بحوافرها أو ما تجره خلفها من ألواح مخصصة لتلك الغاية، تدور وتدور على الطرحة والأولاد يمسكون خطامها أو يركبون الألواح من خلفها، وكانت فرحتنا عامرة عندما نركب على ذلك اللوح المجرور، حتى إذا أصبحت الطرحة هشيما وانفصل الحَبّ عن سنابله، يقوم الرجال بجمع المدروس على شكل كومة، ويتنظرون هبوب رياح نسيم البحر الغربية الحنونة، ليتعاونوا على تذريتها بشواعيهم الخشبية، حتى إذا انفصل الحَبّ عن التبن والقش، وانفرز القمح ككومة من الذهب، جلس الرجال على أطرافه ليتناولوا عشاءهم الذي تحضره النساء على رؤوسهنّ، وغالبا ما يكون ما أعددنه لهم من العدس والرز والبصل والزيتون وخبز الطابون، حتى إذا انتهى الرجال من العشاء تعود النساء لبيوتهن، وينام الرجال على البيدر، يحرسون نتاج تعبهم، بعد أمسية من

السهر الممتع، وأحياناً سماع صوت الناي (الشبابة) تصدح من البيادر المجاورة.

في اليوم التالي يتمّ تنظيف الحبوب مما بقي فيها من القصل والتبن والحصى والتراب بكريلتها وغربلتها وتعبئتها بأكياس من الخيش ذات الخط الأحمر، وتعبئة التبن والقصل في أكياس أخرى لتقوم النساء بنقل أكياس التبن والقصل على رؤوسهنّ، لتخزينها في البيوت كطعام للحيوانات، وغالباً ما يكون النقل ليلاً على ضوء القمر لتلافي حرارة الشمس نهراً، علماً أنّ الطرق الزراعية ضيقة، ولم يكن في ذلك الزمان لا كهرباء ولا غيرها. يقوم الرجال بنقل القمح على ظهور الدواب لتخزينه في الخوابي.

عندما يهجم التين، أي يكون في أوج نضجه، تكثر العصفير بتنوعها وتسمن وتزيد حركتها، مما يغري الشباب في اصطیادها بكميات وفيرة، ويتم شواؤها على نار الحطب، فتفوح منها روائح يسيل لها لعاب من يشتمها، يتم عصرها في رغيف خبز طابون طري لاستخراج زيوت دسمها المدخن، ومن ثم تناولها مع عظامها لحاجة أجسامنا للبروتين، وذلك لندرة اللحوم الحمراء والبيضاء في ذلك الزمان أو عدم القدرة على شرائها.

تنضج عناقيد العرقد وقطوف الزعرور وثمار النباتات البرية، فتصبح غذاءً غنياً بالمفيد من السكريات اللذيذة، والأهم من ذلك مقاathi الخضروات الصيفية البعلية المحاذية لحدود البلدة، حيث كنا ننام في عريشة من الأخشاب والقش في تلك المقاathi لحمايتها

من الثعالب وأبناء آوى، في وقت نضج ثمارها من الفقوس والخيار
والبندورة والبطيخ والشمام والمامية واللوبية في أمسيات سهر
ممتعة.

تزخر ليالي الصيف بأفراح الأعراس التي كانت تستمر من ثلاثة
إلى خمسة أيام لكل عريس، ويشارك جميع أهل البلدة في الفرح،
النساء للزغاريد والطبخ والرجال يعقدون السهرات والدبكات
الرشيقة بسر او يلهم وملابسهم التراثية، في ساحة البلدة ليلاً يؤدون
الرقصات والأغاني على أنغام صوت الناي الحنون (الشبابة)
الشجي، ويتابعن النساء والصبايا كل ما يجري في الساحة من على
سطوح المباني المحيطة، ويتسلق الأولاد شجرة التوت القديمة
المجوفة الساق في زاوية الساحة المرتفعة، وعند عصر اليوم
الأخير وبعد أن يتم حمام العريس وحلاقة رأسه، يدور به الرجال
في شارع البلدة الرئيسي يحملون له ما يشبه اللوج وكرسي يجلس
عليه العريس بين الفينة والأخرى، ليقوم الشباب بأداء رقصاتهم
وأهازيجهم وإسماع النساء تشبيباتهم من خلف الشبابيك، حتى
إذا حلَّ الليل أوصلوا العريس إلى حيث العروس وحفلة النساء،
وسلموه لهن مع توديعه ببعض الكفوف أو الشلايط أحياناً.

الخريف في سلفيت هو موسم الخير والبركة، تدب الحياة
والنشاط في كل أرجاء البلدة استعداداً لقطف ثمار الزيتون، وعصر
الزيت الذي يعتبر مصدر الرزق الرئيسي لساكنتها، وللذين يأتون
إليها من مناطق فلسطين التي تفتقر للزيتون كالبوادي. ففي اليوم

الذي يسبق إعلان البلدية عن بدء قطف الزيتون ترى الساحات والحارات تعجّ بوجوه غريبة جاءت لتعمل في قطف الزيتون رجالاً ونساءً، مقابل أجر من الزيت والزيتون عند انتهاء الموسم، ويصبح أولئك العاملون كأنهم من أفراد الأسرة التي يعملون عندها، ينامون ويأكلون مع أهل البيت الذي استخدمهم إذ يشارك جميع من في البلدة في هذا المهرجان السنوي المثمر بكل فعالياته، قبل شروق الشمس وحتى قبل أن تتجلّى عتمة الصباح، وشآبيب الندى ترطب الطرق الصخرية والترايبية المتعرجة صعوداً وهبوطاً، وتتسع وتضيق بفعل الطبيعة الجبلية والصخور والنباتات البرية التي تحف بها، ترى الناس زرافات ووحداً رجالاً ونساءً يجرون حيواناتهم، يشحذون الهمم ويسرعون الخطى باتجاه حقولهم، منهم من يحمل سلماً خشبياً وآخر سلال وأكياس ومفارش، وعلى رؤوس النساء زوادة الطعام، وبعضهنّ تحتضن طفلها الرضيع، يتصاعد الدخان نهراً من عدة مواقد في أكناف الجبال، تنبعث ممن يعدون الشاي بالميرامية وأصناف الطعام على الحطب، روائح يسيل لها اللعاب.

عندما ترتفع الشمس ويصبح الجو دافئاً تبدأ تسمع صدى أحاديثهم ونكاتهم وأهازيجهم جذلون بما يجمعون من خيرات الزيتون العميمة، الرجال على السلالم و فوق الأشجار، والنساء تجمع الحَبّ من تحتها، يتحلّقون قرب الظهيرة حول مفرش عليه طعامهم البسيط اللذيذ من خيرات أرضهم، ولا يعودون من عملهم إلا بعد الغروب، عندما تلفهم عتمة الليل وتعب النهار،

وبالمناسبة فإن أكثر ما يسعد الأطفال في هذه الحفلة ويشجعهم على المشاركة فيها هو انتظار سماع صوت بائع الهريسة، وهو ينادي بصوت ينعكس صده عن صفحات الجبال حلاوة، فيأخذ الطفل زيتون ملء جيبه ويلحق ببائع الحلاوة ليتبادل معه الزيتون بقطعة من النمورة (الهريسة)، من فوق ظهر حماره حامل خرج للزيتون المتبادل بطريقة المقايضة.

أكثر المشاهد تأثيراً في الوجدان ولا تنمحي من الذاكرة، عندما ترقب عودة الناس من مزارعهم يسرون في موازاة الوادي حتى أقدام الجبال، ومن ثم يتسلقون من أعماق الوادي إلى قمة الجبل، سالكين طريقاً متعرجاً أحياناً تعترضه عقبات صخرية يسلكها المشاة، وطريق دائري أسهل خاص بالحيوانات - قد يطول الصعود ليلغ كيلومتريين - يعودون في وقت واحد، فيكونون صفّاً من الوادي حتى قمة الجبل، النساء تحمل على رؤوسهنّ الأمتعة وحطب الزيتون الذي تم تقليمه أثناء قطف الحَبّ للفروع التي لم تطالها سلالهم، والرجال يتابعون الدواب التي تحمل أكياس الزيتون، وتنوء أحياناً بحملها فيساعدوها بالدفع والتوازن، وتسمع سمفونية من الأصوات المتداخلة من الهمس حتى الصراخ والنداء، فهناك مَنْ يطلب المساعدة في تعديل حمل حماره بعد أن مال أو سقط وآخر يحثّ أولاده على مساعدة الحمار بدفعه أثناء اعتراضه عقبة كأداء يعينونه على تجاوزها، وتمرّ بنساء انزلت الحمل عن رؤوسهن، وجلسن على حافة الطريق بالقرب من أحد الينابيع للاستراحة وغسل العرق عن الوجوه وشرب الماء البارد،

والرجال يسقون الدواب من الماء المنساب على جانب الطريق، وأحياناً ترى أحد الرجال المسنين يتوضأ من ذلك الماء ليصلي المغرب قبل أن يفوت وقته.

تصل البلدة التي كانت ساكنة فاضية نهاراً قد دبت فيها الحياة، والشارع الذي يتوسطها من الشرق إلى الغرب قد أصبح مكتظاً بالناس والحيوانات، الحوانبت قد فتحت أبوابها وبائعو الخضار ينادون بأعلى أصواتهم، حيث تنتعش حركة البيع والشراء ليلاً استعداداً لما قد يلزم لطعامهم وشرابهم واحتياجاتهم لليوم التالي، الوافدون من العمال يتفقدون بعضهم ويجتمعون أمام المقهى على الأرض أحياناً للاطمئنان على أحوالهم.

رغم قلة عدد سكان البلدة أي بحدود الخمسة آلاف نسمة، إلا أنها تحتوي خمس معاصر للزيتون، تعمل ليلاً نهاراً، مدة تتراوح ما بين شهرين إلى ثلاثة أشهر، حسب الموسم، وتسمى بوابير الزيت، يدرس الزيتون في حوض تدور في وسطه عجلتين كبيرتين أقدر وزنها بطن واحد لكل حجر، تدور ميكانيكياً ويعبأ المدروس في أواني (قفف من الجريد المقوى)، ويوضع في مكابس آلية، ينعصر المهروس، ويسيل منه سوائل الزيت والماء والزيبار، ليتم نقله إلى فرازات تفرز الزيت عن الماء والشوائب، يوضع الزيت في جرار من الفخار أو تنك معدنية، وتحمله النساء إلى البيوت، أما مخلفات الحَب وما يسمى بالجفت يتم تفرغها من القفف حول المعصرة، ويكون دافئاً يتصاعد منه بخار الماء،

وبذلك يشكّل بيئة مناسبة للأطفال للعب والتصارع فوق أكوامه، قبل أن يأخذه أصحابه وقوداً للتدفئة شتاءً، تنتشر رائحة الزيت البكر الذي تعبق رائحته هواء البلدة، ويمكن أن تشتم أريجه قبل دخول البلدة، وتصطبغ حارات البلدة وجدران البيوت المحاذية لها ببعض آثار الأيدي التي بللها الزيت.

يعتمد كلّ فلاح معصرة قريبة من بيته أو تربطه بأصحابها قرابة أو صداقة أو الثقة المتبادلة، ويحدد له مكان يضع فيه زيتونه الذي يجمعه فيه يسمّى (المصب)، يفرغ الفلاح زيتونه في ذلك المصب حتى يمتلئ أو يأتي دوره في عصر زيتونه، الذي يطول أحياناً حتى أن الزيتون في أرضية المصب يصاب بالتعفن، ويوم يأتي دوره في عصر الزيتون الذي جمعه يحضر عملية العصر والفرز، وغالباً يحضر معه إبريقاً من الشاي المغلي بحجم كبير للعاملين في المعصرة، وللموجودين والمارين أيضاً، وأحياناً يحضرون طبقاً من القش الملوّن، عليه كمية من خبز الفرن الساخن، ومن يرغب يعرض رغيف إلى الزيت الساخن النازل من الفرازة حتى يبتل بالزيت، ومن ثم يلفه بشكل اسطواني ويتناوله مع الشاي الساخن عالي السكر، أو مع بعض حبات البندورة إن توفرت، وترى صاحب الزيت يحمد الله ويشكره طيلة فترة عصر زيتونه، ويتصدّق على الفقراء بكمية توضع في أوعية خاصه بهم، ويسأل الموجودين كيف وجدتم طعم زيتي الذهبي.

يتوزع تجّار الزيت في المعاصر ليلاً نهاراً، حتى أن بعضهم

يستريح قليلاً لينام في المعاصر فوق زيتون المصبات، كلّ التجّار من أهل البلدة، إذ لكلّ منهم حصة في الشراء مباشرة من المعصرة، سواء دفع الثمن فوراً أو لم يدفعه، وبإشارة من صاحب الزيت يبدأ التاجر يكيل الزيت بمكيال خاص، ويعدّ التنك المملوء أو المكيال قبل أن يفرغه في براميل خاصة به، وبطريقة تقديسية للخير والبركة، قائلاً الله واحد ماله ثاني، ثالث الصديقين في الغار، اربح باذن الله، هذا بدل العدّ العادي، واحد اثنان ثلاثة اربعة وهكذا دواليك، وبعد أن يتمّ التصدّق على المحتاجين ببعض الزيت، ويبيع الفلاح ما يزيد عن حاجته، ويبقى له مونة سنته، تحمله النساء على رؤوسهنّ لتخزينه في جرار الفخار في بيوتهن.

هذا الكرنفال السنوي الذي لا ينسى بكلّ ما فيه من تعب وفرح وحظوة بالخير والدخل الذي يستر العائلة، ويجعلها قادرة على تدبير أمور حياتها حتى يعود الموسم في العام الذي يليه، كان يتبدأ في الشهر العاشر ويستمر أحياناً حتى بدايات الشتاء وظهور بواكير الأعشاب وأبصال الزنابق وزهور النرجس.

للشتاء في القرى نكهته الخاصة، الأمطار التي يعتمد عليها الفلاح في حياته هي الشريان الروحاني الذي يغذي روحه بالدعاء والرجاء واللجوء إليه تعالى في مناجاته ودعواته، يصغي الفلاح إلى صوت المزاريب وكأنها معزوفة موسيقية تداعب عميق مشاعره، كلّما تناهى إلى سمعه صوت المطر هلّ وكبر وحمد الله على نعمه، عندما يلعب البرق ويعصف الرعد يناجي ربه قائلاً:

يارب البيت احمي هذا البيت وأهله، ولضيق بيته المكوّن عادة من حجم واحد، فإذا أقعدته الأيام الماطرة فإنها فرصته للذهاب إلى مقهى البلد ليلتقي بزملائه وأصحابه، يلعبون الورق والضومنه، ويحتسون الشاي والقهوة واليانسون، حتى إذا مرّت أيام كان الجو فيها صحواً مشمساً فإنه لا يتوانى عن البدء في حراثة أراضيه ليزرعها بالقمح والشعير، أو أن يعدّها لامتصاص المياه إن كانت مشجرة، ويزيل الأعشاب منها ويسمدها ويعيد حراثتها كلّما سنحت له الفرصة.

يقضي الناس الأمسيات الباردة متحلّقين حول كانون النار الذي تبدأ النساء بإشعاله من قبل المغرب، حتى إذا أصبح جمرّاً ادخلنه إلى البيوت ذات الجدران السميكّة والعقود العالية، وتكون دافئة نسبياً في الشتاء وباردة في الصيف.

يجتمع الجيران ليلاً في بيت أحدهم ليتسامروا، ويقوم صاحب البيت المضيف بقراءة أحد القصص القديمة التي اصفرت أوراقها وتآكلت أغلفتها - الزير سالم - تغريبة بني هلال - سيف بن ذي يزن، فيتفاعل الرجال وتتمايل أجسادهم، وتتعجب النساء ويمطرن (أبو زيد الهلالي) بالإطراء والدعوات.

إذا غاب الرجل لأي سبب تتجمع النساء نهراً في سقيفة الطابون يطرزن الثياب أو يصنعن الشعيرية، ويتبادلن حكايات خرافية مفتعلة، وفي الليل يجتمعن حول كانون النار، يسهرن حتى تتحول ناره إلى رماد، والقطّ المدلل يجلس تحته مستمتعاً بالدفء، ويروين

القصص والخراريف، وروايات تحول مناماتنا نحن الأطفال إلى كوايس، كلّها تدور حول من قتلها أخوها ظلماً أو ذاك الذي قتل في الكرم وبقي يشخر يومين قبل أن يسلم الروح، أو الإخوة الذين قتلوا أعداءهم وقطّعوهم ووضعوا أشلاءهم في خُرج أحصتهم وتركوها تعود للقرية، وهرب القتلة لاجئين إلى شيخ من شيوخ عجلون، وعادوا بعد سنين، وقد تزوجوا بنات الشيخ، وحكايا عن المغاور المسكونة بالجن حول البلدة وعيون الماء المرصودة، هذا عوضاً عن الخراريف المرعبة، مثل حديدون ونص نصيص وأبو طبر وأبو رجل مسلوخة، ولقد بقي أثر هذه السواليف يثير الرعب في قلوبنا حتى أصبحنا شباباً، إذ لم تكن تلك الخيالات بناءً في تكوين شخصياتنا بأي حال، خصوصاً أننا كنا نسكن في حارات ضيقة، وأماكن معتمة، وفوق مغاور فيها الكثير من الفئران وأحياناً الثعابين، وجدران أحواش حجرية مهذمة جزئياً أو كلياً، تعشش فيها العصافير وأحياناً الخفافيش.

هذه نبذة عن المكان والزمان مختصراً في بلدي الضاربة في أعماق التاريخ، التي ما زالت مركزاً لتجمع عدد من القرى المحيطة، ضمن سلسلة جبال فلسطين الممتدة من الشمال إلى الجنوب، يفصلها عن البحر المتوسط السهل الساحلي الفلسطيني، إذ يقع مقابلها على البحر يافا، تليها اللد والرملة والعباسية، في وسط السهل الغني ببيارات البرتقال والأرض الطيبة.

بيت روماني في أقدم الحارات:



لا يعلم إلا الله متى ومن بنى ذلك البيت القديم، فهو ذا عقد اسطواني يختلف عن بقية العقود الإسلامية، العقد الروماني عبارة عن عقد نصف دائري، يرتكز على جدارين جانبيين حاملين سماكتهما تزيد عن المتر من الحجارة والطين، يربط بينهما عقد من الحجارة المتدلّية مصفوفة بشكل نصف اسطوانة يشدّ بعضها بعضاً، والجداران الآخران المتقابلان عمودياً أحدهما وهو الأمامي يقع فيه باب المدخل الذي تعلوه كوة صغيرة وشباك

طويل عميق لدرجة أنه يتسع لشخص يجلس فيه، نظراً لسماكة تلك الجدران، وفي الجدار الآخر الداخلي خزائن وأكوار وقوس يسمّى حامل الفرشات واللحفة ووسائل النوم.

يتميز العقد الإسلامي عن العقد الروماني بأنه يركز على أربعة أركان، ويكون عقدة بأربع زوايا، تلتقي في أعلى نقطة بمركز السقف، وعقدة أيضاً من الحجارة المصفوفة بعضها يشدّ بعضاً، وتكون أكثر رتابة وتهذيباً، والجدران من أربع جهات سميكة أيضاً، تغلق تحت العقد بشكل قوسي، وغالباً ما تكون الجدران الداخلية مكسوة بالطين والكلس، ومدهونة بالشيد الأبيض، ومزين على ارتفاع معين بزهر النيلي الأزرق أو الحناء الأحمر.

لا يظهر من بيتنا خارجياً سوى الواجهة الأمامية، أما بقية الواجهات فهي مشتركة مع البيوت المجاورة التي تعلو بعضها بعضاً، ومتلاصقة بتكتل ونسيج حميمي مشترك، لا يميّز بيت عن آخر إلا بوجود بابه وشبাকে، أما أسطح البيوت فهي تفتح على بعضها، ويمكن التواصل بين الجيران في الحارات المتباعدة عن طريق أسطح الأبنية المستوية إلا أن بعضها يبقى على شكل قبة.

ما أن تدخل من باب البيت الوحيد وتنزل درجة واحدة حتى تكون في قاع البيت، وهو عبارة عن موزع صغير في جداره الأيمن خزانة تشبه (النملية)، يوضع فيها بعض العدد ومرطبات المخلل والمقدوس ورُب البندورة، فإذا أكملت طريقك تنزل درجتين أو ثلاث لتصل إلى ما يشبه المغاور المعتمة، إحداها تمتدّ إلى

اليمين، قد تكون تحت بيوت المجاورين، في زاويتها القريبة حوض ضحل من الإسمنت، في وسطه فتحة لتصريف المياه، يستعمل للاستحمام، ولا نعرف أين تذهب المياه التي نستحم بها بعد ذلك، وبقية تلك المغارة ذات السقف المعقود بالحجر هي مستودع للحبوب والزيت والزيتون المكبوس الأخضر والأسود وما يلزم من حبوب الفول والحمص وما شابهها، وفي الجهة المقابلة وتحت امتداد البيت مغارة أخرى مخصصة للبهائم، مثل الحمار والبقرة والعنزات، لكلّ منها مذود خاص بها، مع ما يلزم من التبن والشعير والقصل، ومكان لوضع معدات الحراثة والسلالم والفؤوس والمجارف.

من قاع البيت وقبل النزول للمغاور تصعد درجاً ضيقاً محصوراً بين الجدار الخارجي، وجدار التسوية بعدد ثمان درجات، بارتفاع لا يقل عن عشرين سنتيمتراً لكل درجة، تكون المصطبة الرئيسية للبيت المطلة على الباب وقاع البيت، وهي عبارة عن حجم بعرض أربعة إلى خمسة أمتار، وعمق ثمانية أمتار طوياً، وارتفاع أربعة أمتار، والشباك الوحيد للبيت يخدم إنارة هذه المصطبة وتهوية البيت كاملاً بمساعدة الكوة التي فوق الباب.

تنقسم المصطبة الرئيسية إلى قسمين: أمامي وخلفي، وبينهم خوابي (خزائن) من الطين، متران على كل جانب، وممر من الوسط، هذه الخوابي لا تصل للسقف، وهي بارتفاع مترين فقط، في جزئها السفلي أغراض الطبخ، وفي العلوي يحفظ التين الجاف

والزبيب إن وجد، وبعض الحبوب كالعدس والحمص والسمسم
والبرغل والبصل والثوم.

القسم الأمامي للمعيشة والسهرات وقراءة القصص
والسوايف، يوضع فيها كانون النار شتاء، ومجلس أبي (فراشه)
في المقدمة، بحيث يطلّ على قاع البيت، مستنداً على عتبة بارتفاع
عشرين سنتماً في نهايتها - سقطت عنها عدّة مرّات، وعلى الجدار
خلف جلسة أبي يُعلّق (الضوء)، وهو لمبة الكاز (نمرة أربعة)،
بإضاءة متواضعة تبهت كلّما ابتعدت عنها، وتُحِيل أحجار العقد
في السقف بفعل الظلال والضوء والعتمة إلى أشكال أحياناً تكون
مرعبة لنا نحن الأطفال، نكون معها مضطرين لتغطية وجوهنا عند
النوم، ويستعاض عن اللبة بسراج متنقل عند النوم، ويستعان به
للنزول إلى أسفل البيت أو القسم الداخلي منه، خلف الخوابي
الذي فيه فسحة للنوم بين أكياس الحبوب، ولكن الأغلب كانت
مساحة النوم هي نفسها مساحة الجلوس، جميع أفراد الأسرة في
مكان واحد، تُمدد الفرش متلاصقة للأبناء والبنات، وقرب منها
فراش أبي وأمّي مع غطاء من اللحف و(البطانيات) المشتركة،
خاصة في فصل الشتاء، أما الصيف فغالباً ما كانت تقام عريشة من
جدوع الأشجار والخيش على سطح البيت، لنام تحتها في أيام
الحرّ، ونصحو صباحاً على فراش بلله الندى.

كان مطبخنا العتيد أمام البيت، تحت عقد الدرج المؤدي إلى
سطح بيتنا وسطح الجيران، وهو عبارة عن موقدين من الطين،

يُستعمل الحطب في إشعالها، وهناك مجموعة من قدور الفخار، وزير مياه كبير، تملأه أمي بنقل المياه من العين القبلية الواقعة في الطرف الجنوبي للبلدة على بعد سبعمائة متر من حارتنا، وفي البدايات لم يكن لدينا مرحاض، كنا نقضي حاجتنا في حوض من التراب على سطح البيت، محاط بجذوع أغصان الزيتون وفروعه، وبين فترة وأخرى يتم تنظيفه، ونقل ما فيه لتسميد الأرض، وأحياناً يتم قضاء الحاجة في الخرائب القريبة، وبولادة أخواتي قام أبي بحفر حفرة امتصاصية وبناء مطبخ بالطوب الإسمنتي في زاوية الحوش الأمامي المشترك مع الجيران.

يقع هذا البيت في نهاية حارة ترايبية ضيقة متعرجة، في وسطه تجري قناة مياه الأمطار المكشوفة، تنفتح عليه أبواب بيوت الجيران جميعاً، تنتهي الحارة بفسحة نجمع حولها، بالإضافة لبيتنا هناك بيوت الأعمام والعَمَّات والجَدَّات المتقدّمات في العمر، وجيران أصبحوا أهلنا أيضاً، في هذه الساحة يتم إفراغ أحمال الدواب من أدوات الحراثة أو أحمال الحطب والجفت ولوازم الفلاح، من سلالم وعدد وغيرها، وهي أيضاً المتنفس لنساء الحارة نهاراً، وفي أيام البرد يستعاض عنها بسقيفة الطابون المشتركة على سطح أحد الجيران شتاءً، وفي أمسيات رمضان الدافئة يتجمع الجيران حول إفطار مشترك، في تلك الساحة، من فتيت العدس وثريدة الأرز وشراب قمر الدين، يليه تناول الشاي والقهوة، والسهر حتى وقت متأخر من الليل، وباختصار شديد كان التعاون والتضامن بين أهل الحي واضحاً ومشوقاً، حيث

يعيشون كأُسرة واحدة، الكبير (يمون) على الجميع، والصغير في خدمة الجيران كأهله وأكثر، ولم يكن هناك فصل بين الرجال والنساء، فالكلّ منهم قريب كأب أو أخ أو عمّ، يجلسون ويأكلون ويسهرون سوياً بلا أي حرج. كانت الطيبة الفطرية والمصداقية الحقّة وروح الإيثار تصبغ حياتهم بلا مجاملة ولا تعقيد، حتى إذا حدث نزاع بين أيّ منهم لا يحلّ ذلك النزاع دون تعاون الجميع، وعدم التواني عن المساعدة بطيب خاطر ورضاء النفس.

كان بين أبي وأحد أبناء عمومته خصومة، ولا أعرف سببها، وأذكر تماماً عندما وجدنا ثعباناً يخرج من المغاور إلى قاع بيتنا هبّ ذك الرجل مهزولاً لا حتوائه وقتله بوجود أبي، وفي يوم شاهد سقوطي، كنت حينئذ طفلاً، من المسطبة العليا إلى قاع البيت، فهبّ مسرعاً وحملني وهو يصرخ على أمّي، وعنفها بشدة وحنق، وفي إحدى أمسيات البیادر بعد أن جمعنا طرحة البیدر (القمح) بعد درسها، كنّا بانتظار هبوب نسيم المساء لتذريتها، ولم يكن مع أبي من يساعده، وابن عمومته يجلس على بیدره القريب، فما رأيت إلا أن ابن عم أبي يحمل مذراته ويأتي لمساعدتنا، ثم يعود من حيث أتى دون أن ينتظر كلمة شكر من أبي أو يحدثه بكلمة.

كان هذا المأوى الذي احتضن أولى خطواتي، ودارت في جنباته بوادر حياتي، ففي ليلة من ليالي الخريف الباردة والناس يهيمون إلى قطف الزيتون، جئت إلى هذا العالم على يد الداية خبيرة التوليد أم يوسف الخياطة، عمّة أبي، تلك المرأة المسنّة الحنونة،

لا أنسى دفعي حضنها ما حُييت، وقد روت لي عن تلك الليلة وما تلاها. جاءت عمتي هنية وعمتي حليلة في صباح ولادتي بخطى وثيدة ووجوه مرتقبة خبر يفرح قلوبهنّ، أخبرتهنّ الداية بوجه باسم ودعابة خفيفة بأن زوجة أخوكنّ قد وضعت بنتاً (أنثى) جميلة، فشاب وجوههنّ مسحة من الحزن، وحمدنّ الله، فقد كانتا تنتظران أن يعوضهنّ الله بولد بدل شقيقي الذي يحمل الاسم نفسه، كانت أمّي قد وضعته قبل سنتين من مولدي، وكان محبوباً جداً؛ لأنه أول مولود للعائلة، وبعد أن مشى خطواته الأولى أصيب بالحمّى، ومات من ليلته دون معرفة السبب، وهذا سرّ الوجوم الذي غشي وجه عمّتي، وعندما أخبرتهنّ بأن الله قد منّ عليكم بمحمد جديد، بكيّن فرحاً، وركضنّ مهللتين، يقبلنّ الزائر الجديد بكلّ لهفة ومحبة.

كان ذلك في نهاية الشهر الحادي عشر من عام ألف وتسعمائة وثمانية وأربعين، وللأسف كان ذلك عام النكبة الفلسطينية، والناس يغمرهم الحزن والألم وضيق الحال والمعاناة، وتعجّب البلدة بالوافدين الجدد، القادمين من السهل الساحلي القريب، بينهم بعض الأقارب والأنساب، الذين تركوا بيوتهم ومزارعهم على أمل العودة القريبة، لكن هاهي الشهور تمرّ وهم لاجئون عند أقاربهم أو معارفهم، لمن اتّسعت لهم بيوت الأهل والأصدقاء، ومن لم يجد موئلاً أصبح يعيش تحت شجر الزيتون وفي الكهوف، حتى امتلأ بهم محيط البلدة، وهم في غاية العوز والمعاناة، خصوصاً عندما حلّ الشتاء وبرده.

الأسرة الحاضنة



تفتّحت عيوني وتعمّقت مداركي على أسرتي، وهم أقرب الناس إليّ، أطالع وجوههم يوميًا، أمّ وأب وعمّة وخالة، قد استحوذ شغف العيش على نشاطاتهم، وفي وجوههم سمرة الفلاحين، وقد لوّحت الشمس ونضارة الريف ومسحات من المعاناة والتعب الجسدي؛ نتيجة الكدّ في البحث عن لقمة العيش، من أرض جبلية معطاءة بمقدار ما يُقدّم لها من مجهود مُضني.

ككلّ الأمهات بين ذراعيها وعلى صدرها النجيل كانت البداية، حتى آخر يوم من عمرها، وقد غمرتني بحبّ يقطر من عينيها، وكلّما نظرتُ في وجهها أو ألقىْتُ رأسي في حضنها تعطرني بصوتها المبحوح ورضاها ودعواتها، حتى شملت أصدقائي ومعارفي، رغم أمّيتها كانت ذكية فطنة.

أطلقَ عليها جدّي كنية أم السعود، وعُرفت بهذه الكنية طيلة حياتها، حتى نسي الجميع اسمها الحقيقي آمنة، وهكذا أراد جدّي ليكون لها حظوظ وفيرة، تعيش معها حياة مليئة بالسعادة والسرور، لكن ما كُتب لها لم يكن كذلك، ولعلّ أباهما من غير قصد كان أول أسباب متاعبها ومعاناتها، فقد كان له صديق، يعملان سوياً في حراثة الأرض وزراعتها، وتجاوزا الستين من عمرهما، حيث أن جدّي لم يكن له سوى أربع بنات لا ولد بينهم، وصديقه له ولد وحيد وبنت، وزوجاتهما قد تجاوزتا سنّ الإنجاب منذ زمن طويل، فقد تفتّق تفكيرهما عن رغبة في الزواج والإنجاب، ومن الصعب أن يجدا من يزوجهما بنات صبايا، فقد اتفقا على أن يتبادلا بناتهما، وهكذا كان، فقد اختار كلّ منهما بنت من بنات الآخر، وتزوجا دون أيّ تكاليف، وكانت العروستان في عمر يقلّ عن عشرين عاماً، وأصبحت الصبيتان زوجتين للعجوزين، وعليهنّ خدمتهما وخدمة ضراتهما العجوزتين. أنجبت أمّي لذلك العجوز ولدين اثنين، أما بديلتها فلم تُرزق بمولود، وأصبحت حالتها حكاية بين

الناس، إذ يقولون: اثنتان يلحقن حرائين اثنتين، يحملن زواتهما، ويقلن لهما يعطيكما العافية يا أبانا وأزواجنا وأزواج أمهاتنا وآباء أولادنا. هذا ما روته لي أمي لاحقاً، إضافة لمعاناة مؤلمة جداً من الكبت والقمع والجوع، حتى أكلت التراب والظلم وسوء المعاملة من قبل ضررتها (زوجة زوجها الأولى).

ولأن جدّي لم يرزق بولد، وبعد سنوات قليلة قام بطلاق زوجته ابنة صديقه، الذي قام بدوره بطلاق زوجته أم الطفلين في عمر الحضانة، وابعادها عن ولديها الطفلين الصغيرين، الذين تولتهما زوجة أبيهم الأولى، التي كانت تشعر أنهما المنافسين لابنها الوحيد، على إرث ابنها مستقبلاً، عاشت الأم وابنيها في ضنك شديد.

روى لي صديق أبي مؤخراً أنه وأبي كانا متفقين على خطبة البنات قبل أن يتبادلهنّ آبائهنّ، وعندما حدث ما حدث كانا على وشك القيام بقتلهما، لكن إرادة الله شاءت أن يتم تطليقهنّ قبل أن يتزوج الشبان، فلم يتوانيا في الزواج منهنّ، وكما شاهدت عندما كبرت لم تكن أمي أكثر حظاً مع أبي بعد ذلك. هكذا عاشت أمي بداية حياتها في شظف العيش ومعاناة الجوع والتعب، واستمر التعب وضيق الحال والعمل مع أبي في الحراثة والزراعة والحصيدة وقلة هداة البال، مع زوج عصبي المزاج، سريع الغضب، وفي أوقات الفراغ تمضي وقتها على ماكينة الخياطة من نوع سنجر، تُدار بالقدم طيلة النهار وفي جزء من الليل، حتى انعكس ذلك على صحتها،

وهي في عزّ شبابها، وأُصيبَت بمرضٍ صَدْرِي (السل)، أتعِبَها حتّى آخر يومٍ في حياتها، وشفيت بعناية الله ولطفه، أذكر حين ذهبتُ إلى مشفى الأمراض الصدرية في الأشرفية بعمّان (مستشفى البشير لاحقاً)، مكثت فيه أربعة أشهر للعلاج والنقاهاة، فعادت لها بعض صحتها، رغم أنها بقيت تتعاطى المقويات والمضادات الحيوية على مدار سنوات عمرها، إلى أن بلغت الثمانين من العمر، فلبت نداء ربها.

ب- أبي :

كان أبي الابن البكر لجَدِّي، تدرّج في المدرسة إلى الصف الثالث الابتدائي، وأتقن القراءة والكتابة، وكان خط يده من أوضح الخطوط وأجملها، كان مزارعاً محترفاً، يقضي معظم أيام السنة في الحراثة، وتقليم الزيتون وأشجار الفاكهة وتطعيمها، وبناء الجدران الحجرية (السناسل)، واصلاحها بعد أن يقتلع الصخور من الأرض وتكسيدها، وتصبح قابلة لبناء جدار للأراضي الزراعية التي ورثها عن جَدِّي الذي لم أعرفه، فقد توفي قبل أن أرى النور، كان يرعى الأبقار في صغره، ويقوم بالزراعة الشتوية من القمح والشعير والعدس، سواء في أرضه أو أرض غيره، ويحصل على حصّة من الناتج.

كان يُقيم في البرّ أيام الحصاد، ويُنام حيث يعمل نهراً في البيادر، لدرس المحصول منها وتذريته، وجمع حبوبه، وجمع

التبن والقصل، ومن ثم مباشرة مزروعاته الصيفية من محاصيل البندورة والفقوس والخيار والبطيخ والشمام والبامية والسمسم والذرة، وكلّها زراعة بعليّة، تعتمد على رطوبة الأرض التي يحرقها مرات عديدة، ويسمّدها ويرشها بالكبريت، وكل هذا الجهد كي يؤمّن لأسرته حياة بسيطة، يعيشها أول بأول، ولعلّ قسوة الحياة التي كابدها جعلت في تصرفاته بعض القسوة وسرعة الانفعال، أو لعلّ الله فطره على ما آل إليه، فقد كان عصبي المزاج، صعب المراس، منذ طفولته كما علمت منه، فإذا غضب لا يقف أمامه شيء، فيتصرّف بلا روية، وفي شبابه قضى على أحد الثيران بحجر قد أصابه في رأسه، يفعل بلا تعقل، ولا يخشى العواقب.

يهتمّ بنفسه، ويوليها كلّ العناية، أكلاً وشرباً وملبساً، سواء أعجب ذلك من حوله أم لم يعجبهم، كان له لباس خاص للعمل، من سروال أسود وصديرة وحطة، وكان يلبس سروالين فوق بعضهما بعضاً، ليعود مساءً للبلدة راكباً حماره بالسروال الذي لم يلبسه أثناء العمل، ويضع أثناء العمل على رأسه خِرقَة من القماش، ولا يعود للبلدة إلا بحطة نظيفة، وفي يوم أصاب حطته حريق، وهو يعمل على إزالة الأعشاب الضارة من بين أشجار الزيتون، فأرسلني إلى البيت في مسافة بعيدة، وكنت طفلاً، لأحضر له حطة بديلة، لئلا يدخل البلدة مكشوف الرأس، وكان مهووساً بالنظافة (فوبيا النظافة)، فيستحمّ يومياً حتى لو لم يبقَ لدينا ماء للشرب.

لأبي صوت عذب شديّ عندما يكون رائق المزاج، وأحاديثه
تصبح دافئة مسلية عند اعتدال هواه، ففي ليالي الشتاء الممطرة
يجتمع في بيتنا كبار السن (ختايرة) الحارة من رجال ونساء،
يتحلّقون حول كانون النار، ويمددون أرجلهم على الفراش، ويقرأ
أبي قصة الزير سالم أو تغريبة بني هلال، ويترنم برواية أشعارهم،
بلحن حنون شجيّ، ويدع ويتألّق ويتسلطن كلّما أحسّ بالتأثر
البالغ على وجوه السامعين، وعلى ضوء لمبة الكاز يطول السهر
حتى تهمد النار في كواينها.

في الايام التي يتعذّر فيها العمل في الحقول والجبال، يعمل نهاراً
بإصلاح عدد الزراعة والمحراث، وترتيب الأغراض المكسدة
تحت البيت، وإذا فرغ من ذلك، استحمّ ولبس قمباز الروزا البيج
الأنيق، وحطة البلابل البيضاء، وعقال المرعز، ويقف أمام المرأة
القديمة طويلاً، يتأمل هندامه بكلّ عناية، وله قمباز مخطط يسمّى
الدماية، يلبسه في المناسبات، وله حزام خاص من القماش، وحطة
بيضاء أو حرام أسود، إذا كان الطقس بارداً يلبسه مع السروال
والعقال في كل الحالات.

قد أكون أنا الذي عشتُ أقصى لحظات العصية المفرطة
والمعاناة، من قسوته في حال غضبه، بسبب - كما أظن - أنني
الطفل الأول لأبي، فلم يشفع لي موت شقيقي الذي سبقني، ولم
يبلغ من العمر سنتين، أو لعلّي كنت كثير الحركة، أبله التصرفات،
كان يريدني أن أتصرف كرجل، وأنا في بدايات سني العمر، يجب

عليّ أن لا أتردد ولا أخاف، وأن أفهم ما يقوله قبل أن يأمرني بشيء، وأن ألحقه إلى الحقول، وأنقل ما يحمله هو على الحمار، الذي كان شرساً ولا يهابني، إذ أحياناً لا أستطيع أن اثبتة بيدي الصغيرتين، وعلى الأخص عندما يرى أو يشتم رائحة أنثى (أتان)، فيصبح كالديناصور، يقفز عن الجدران والمنحدرات بعد أن يفلت من يدي، ولا يُعيد رسنه ليديّ إلا إذا صادف وجود رجل يشفق لحالي، أسير به، وأجرّه جراً، وأنا في حالة يرثى لها من الرعب، خوفاً من أبي وعقابه، لتأخري عليه، ولم أبلغ من العمر خمس سنوات، فعليّ أن أكون في المقثاة بعد الغروب، وهي تبعد عن آخر بيت من بيوت البلدة مئات الأمتار، وأحرس المزروعات من بنات آوى أو الثعالب، ولا أنام قبل أن يأتي هو للنوم، بعد انقضاء سهرته أينما كان، ومن شدة خوفي أضع اللحاف على رأسي، وأعطّي وجهي كي لا أسمع أو أرى شيئاً في عتمة الليل، وما يكتنفها من أصوات الحشرات والصراصير وخشخشة أوراق الشجر.

مجرد نداءه عليّ بصوت عالٍ يجعلني أرتجف خوفاً، وأتصبّب عرقاً، كنت في صغري ألوذ بحضن أمّي إذا فقدت السيطرة على نفسه، وتلك المسكينة أحياناً لا تقوى على حمايتي من صفعاته التي تطالها في معظم الحالات، فتتركني بين يديه، وتخرج من البيت أو تصعد سطح البيت كي لا تسمع صراخي، فتجتّر دموعها بغزارة، وعندما كبرت قليلاً ولشدة خوفي منه لم أحاول الهرب من أمامه، فأتسمّر واقفاً أو جالسا، أتلقي ما تجود به يده من صفعات أو

رفسات رجلية، حتى أخي الأصغر (نايف) لم يسلم من انفعالاته،
ونال منه ما نال.

لا أكاد أتذكر هل فعلاً كنتُ مشاغباً وكثير الحركة أم بليداً لا أفهم عليه ما يريد، أو أنسى ما يوصيني به، لكنني أتذكر العقاب القاسي الذي كنت أعيشه في كل مرة يفقد فيها أعصابه نتيجة أحد تصرفاتي، وبتُّ أتحاشى الجلوس جانبه أو قريباً منه، وأجلس في مكان أبعد ما تطالني يده إذا غضب، وللحقيقة أنه على رغم من الرعب والعقاب الذي لا يتناسب وعمرى وما أراه منه، إلا أن في هدوئه يأخذني معه إلى أشجار التين، ويصيد العصافير، ويكلمني كأني رجل أو ما يتخيله أنني رجل، مستقبلة المزارع النشيط، لدرجة أنه أقسم عليّ ألا أبقى في فراش النوم بعد طلوع الشمس مهما كانت الظروف، والغريب أنه لم يعترض على ذهابي للعب مع أترابي ليلاً أو نهاراً خارج البيت، لعلّ سبب ذلك ضيق البيت الذي كنا نعيش فيه، أو وسيلة تسلية ممكن أن تشغلني، وأكثر ما كان يرعبنى العتمة والظلام لعدم وجود الكهرباء، خصوصاً عندما كان يطلب منّي الذهاب ليلاً لشراء الدخان من السوق أو أن أحضر له شيئاً من المغارة التي تحت البيت، حتى أنني لا زلت في هذا العمر أخاف من الظلمة، وأخشى الوحدة، ولا أنام في مكان مظلم وحيداً، وأمقت الصوت العالي، وتنزل دموعي بغزارة عندما أرى طفلاً معنفاً أو أباً قاسياً أو لقاءً حميمياً بين طفل وأبيه، حتى وإن شاهدتها في أفلام الرسوم المتحركة التي تعرض للأطفال.

ج- عمّتي (أصغر شقيقات أبي):

اسمها «هنية»، تكبرني بعشر سنوات فقط، حظّها العاشر جعلها تقضي النهار عندنا لتساعد أمّي في أعمال البيت، أو تسدّ مكانها في حال مُرافقتها لأبي للعمل في الأرض، وعند المساء تعود عمّتي إلى بيت أمّها لتنام، وهي أصغر أخواتها وإخوتها، ذات وجه مستدير أبيض، يشوبه حمرة، ويعلوه مسحة من الحزن، وكثيراً من البراءة، رافقتها طفلة ويانعة وكبيرة، إنسانة طيبة بسيطة جميلة خجولة، دائمة الخوف من أبي، وقد يكون سبب هذا تلعثها الدائم إذا تحدّثت أو عملت.

هي أول مَنْ عرفت عيوني وأحاسيسي، كيف لا وهي من تقوم على رعايتي منذ ولادتي، في حضنها، في مهدي بين يديها، تُرضعني أمّي، وهي تتكفل بالعناية بي، سواء أكانت أمّي في البيت أم خارجه، أو في الحقول والمزارع، هي الأمّ التي ربّنتني صغيراً، وغمرتني بحنانها كبيراً، وتزوّجت مرتين، ولم ترزق بأولاد، وأمست مطلقة، ثم أرملة في عمر مبكر، وكنت يومها مهندساً في بلدية سلفيت، فالهمني الله وبدافع المحبة والوفاء قمت في بناء غرفة ملاصقة لبيتنا الجديد، كي تقيم فيه هي وأمّها العجوز، تحت أعيننا وفي ظلّنا.

لا زلت نادماً يوم كسرت فيه عمّتي صحناً زجاجياً، فاعتراها خوف شديد، فطلبّت منّي، وأنا طفل، أن أقول لأبي أنني الذي كسرتة، لكنّ لم أجرؤ على ذلك، ولحسن الحظ أن أمّي هي من علمت بذلك قبل أبي، فتدبرت صحناً شبيهاً به، وانطلى الأمر على أبي، ومّر الموضوع بسلام.

هذه الأمّ التي لم تُحظَ بابن من بطنها، قد عاشت الرعب والقمع منذ بداية حياتها، تخدم في بيت شقيقها بلا مقابل، اللهم لقمة العيش، وتزوجت أولاً بابن عمومتنا، وطلّقها؛ لأنها عقيم، وعاشت زمناً آخر بكرامة واحترام زواجها الثاني، ذاك الشيخ الكبير في العمر، وهو لطيف المعشر، أحبّها وأكرمها وصان مشاعرهما، هو وأفراد أسرته، فزاد وجهها نصارة، وعلا بسمتها عذوبة، ومات بعد سنوات، وتركها وحيدة، فلم يتقبّلها الرجال من أولاد زوجها المرحوم، إلا وقت العدة الشرعية، لتصبح بعد ذلك في حيرة من أمرها، إذا تقدّم للزواج منها عجائز لا حاجة عندهم إلا خدمتهم، ساندتها أمّي عندما رفضت تلك الزيجات التي لا تُسمن ولا تعني من جوع، واستضافتها في بيتنا، وحرصنا على راحتها، وبنيت لها مأوى تعيش فيه وأمّها، مكرّمة ما دمتُ قريباً منها، وللأسف بعد أن هاجرت، وعشت بعيداً عنها، توفيت أمّها، وبلغت السبعين من العمر، أثرت تلك الأمّ أن تقضي بقية حياتها في دار رعاية للمسنين في المدينة القريبة، مما سبب ألماً استوطن أعماقي، وقضّ مضجعي، وما باليد حيلة.

د- خالتي:

خالتي المقربة سيدة ذكية جداً، نشيطة لا تنقصها (النغاشة)، جميلة رغم قصر قامتها، تدعى «عزيزة»، ولها من اسمها نصيب، تتمتع بدرجة من الحرية المنضبطة، والعلاقات الاجتماعية المميزة، تصغر أمّي سنوات قليلة، وبعد سفر زوجها للعمل في

الكويت تركها، ولها طفلة تصغرنى بسنة واحدة، تُدعى «سلوى»، تقوم في كثير من الأمور التي لا يقوى عليها الرجال، تزورنا يومياً هي وابنتها المدللة سلوى، بنت خالتي الصغيرة، بوجهها الأسمر، وشعرها الطويل، كانت محبوبة من الجميع، كنت أشعر بالغيرة منها، أشاكسها، فألتقى عقاباً من أبي؛ بسبب شكواها المتكررة.

رغم أن خالتي كانت أمّية، لا تقرأ ولا تكتب، إلا أنها اجتهدت والتحقت بتعليم محو الأمية لكبار السن، وأصبحت قادرة على فك الحرف، كما يقولون، بالإضافة إلى أنها خياطة ثياب ماهرة، وتؤلف القصائد والأشعار والأغاني الشعبية، وتمتلك لباقة مميزة في التعامل مع الآخرين، بحنكة ودهاء، لتحقيق غايتها وتأمين احتياجاتها، وهذا ما كان يميزها عن أمي الطيبة البسيطة، ولم يعيق خالتي شيء، فتقوم بالرسم والتطريز والزخرفة والحرف اليدوية، بإتقان بالغ، يُثير الإعجاب والدهشة.

كانت العائلتان تتشاركان في كل مواسم الزيتون باتعاون في قطاف المحصول، كان أبي هو من يحرق أرضهم ويعتني بأشجارهم، هكذا كنّا نعيش سوياً كأسرة واحدة، ولتقارب بيوتنا، ونتعاون في قضاء حاجات الأسرتين دون حرج، وكانت السهرات مشتركة، والطعام مشترك، ولأن خالتي بارعة في الغناء وإحياء الأعراس وحضورها مهم بين أترابها من النساء زاد من ثقته بنفسها، كانت على تماس من حياتنا، حيث تستطيع أن تتدخل في أمور بيتنا، وإن اقتراحاتها وطلباتها لا تردّ، سواء أعجب ذلك أمي أو لم يعجبها،

وقد لمسْتُ أحياناً بعض الغيرة والامتعاض في وجه أُمِّي، ذات
القدرة والبنية الأضعف، وهي تُصغي إلى مماحكات أبي وخالتي،
وهما يتباريان في تأليف العتابا والميجنا والغناء الشعبي أثناء قطاف
الزيتون، في غاية الجمال والسعادة.

بدايات الادراك ومدارج الطفولة



رغم أن أوائل الذكريات تلمع كومضات قصيرة في أعماق النفس إلا أنها تصبح مع الوقت واضحة المعالم، عالية التأثير، كونها أولى لبنات بناء الشخصية التي تتبلور مع الزمن، لتشكل ما نغدو عليه يافعين ورجالاً.

حسب ما روته أمي من أحداث جرت في منزلنا، فإنني متأكد أن أولى تلك الومضات كانت في السنة الأولى من عمري، عرس جرى في بيتنا الروماني، اجتمعت فيه النساء فقط، ووضعتني الداية

أم يوسف في حجرها، بعيداً عن الضجة والصخب، في الجزء الداخلي من البيت، خلف خوابي الحبوب والفُرش، وبقيت ملقى في ذاك الركن، تهدهدني حتى نمت، وعلمت فيما بعد أنه خطبة عمّي، علماً أن مولوده البكر أصغر مني بسنة واحدة، في ليلة غلبني النعاس، وظنت أمّي أنني بُتُّ في نوم عميق، فانسلت على عجلة من أمرها إلى العُرس، وتركتني وحيداً، وما أن غادرت حتى استيقظت تماماً، ولم أجدها، فخفت خوفاً شديداً، وبكيت، ولم يسمعني أحد، فغطّيت رأسي وكل جسمي من الخوف والظلمة،

جرت الأيام بعدها مجرى المياه في الوادي، حيث تبدأ صافية رقراقة عند النبع، ثم تخالطها مياه الأمطار من كل جانب، حاملة الكثير من القش والتراب والحجارة، يتسارع مجراه، وتتصاعد أصواته، ويتعثر مسيره، ويتشعب، متحسّساً كلّ ما يحيط به من زهور وصخور وأطراف أغصان الياسمين وأشواك الخرفيش والقريص وبعض الجذور.

أخذت تتزاحم الأحداث في عالمي، وتتسع مداركي لتتعدى عتبة البيت القديم، إلى رحاب الحارة وشمس أسطح الجيران والأدراج الحجرية والطينية الصاعدة والنازلة، المفضية من سطح إلى آخر، ومن وحل الطريق إلى دُفئ الطابون، من حضن الأمّ إلى أكوام التراب، أتحنس المحيط القريب بما فيه من أطفال وقطط وكلاب.

متعلقاً في يد أمّي وعباءتها، وبخطوات متعثرة أحياناً، وعلى ذراعيها كانت رحلتي الأولى خارج الحارة، إلى قطعة أرض

محاذية للبلدة، تدعى «خلة كشه»، فيها أشجار المشمش والخوخ والتفاح السّكري، وبينها فسحة لزراعة الخضار والمحاصيل الصيفيّة البعلية، والمشهد يتكرر يوميًا، وعمّة صغيرة تعتنى بي، وأب يعود من عمله مساءً، يتقدّمه حماره، وعليه خرج، يعلوه عود حراثته، وأمّ تعجن وتخبز في طابون الجيران، وتطبخ ما تيسّر من خضراوات طازجة، ومجففة في معظم الأوقات، يغلب عليها العدس والفول والبطاطا والبصل، ومع الخبز أقراص من الزعتر الأخضر والحميض وزنايط البصل، وفي المناسبات عندما يروق مزاج أمّي تتحفنا بالقراقيش المحلاة بالسّمسم والسكر والخبز المحمّر بالزعتر ورُبّ البندورة.

كانت اللحوم البيضاء والحمراء نادرة الوجود، فإذا أقيم عرس أو حلّت وفاة في العائلة أو عند الأقارب أو الجيران فإنها فرصتنا لتذوق اللحم والأرز، وبقدر ما تهرّب له الأمّهات، أما الدجاج فهو محدود ونادر، فقط ما يُربى في البيوت، ولا يتمّ ذبح أحد الديكة إلاّ لضيف عزيز، فلا تذبح إلاّ الديكة، والحفاظ على الدجاجات من أجل بيضها، وبعد أن يلتهم الضيف ومرافقوه من الرجال الديك المحمّر مع الخبز والزيت والبصل، يقوم الأطفال والنساء بقرقطة ما تبقى من عظم اللحم، ولحسن الحظ أن الأمّهات لم تكن ترمي شيئًا من الديك حتى أمعاءه، فيتمّ قليها مع البصل بعد تنظيفها، أما الأرجل والرأس فهي الكنز الذي تحتويه شورية ذاك الديك المهول.

لا يعني هذا أننا لم نكن سعداء في حياتنا، بل كنّا أكثر استمتاعاً من الأجيال الحاضرة، فخبز الطابون المحمّر بزيت الزيتون والزعر ورّب البندورة وإبريق الشاي على الفطور والعشاء، ألدّ من أنواع البيتزا مهما كانت، وأقراص البصل مع بعض قطع الية والشحوم أطعم وألدّ من أنواع البرجر، وتلك القعدية، وهي عبارة عن قرص من العجين، يتم فقس بيضة في وسطها، وتوضع في الطابون حتى يستوي الخبز والبيضة، كانت المكافأة الموهلة لنا إذا أفلحنا في تصرف أو عمل أسرّ قلب أمي.

كان أكل فاكهة الصيف والتين والعنب يُغنينا عن الطعام، ويعويضا عن البروتين، ويكفينا عصفور نصطاده ونشويه، من أفضل المغذيات وألذها، والمكملات الغذائية تنحصر في الفواكه المجففة، من التين والعنب والخروب والمشمش والتفاح السكري، من أشجارنا، وما تيسر لنا من غزواتنا على أشجار الآخرين.

في ليالي الصيف الهادئة عندما يكون مزاج أبي رائقاً ويرغب بفرحنا، يقوم بذبح بطيخة أو شمامة من انتاج أرضنا، ويتفنن بتقطيعها وتوزيعها علينا، مع التوصيات والتهديد بعدم سيلان رياتنا مع عصيرها على صدورنا، وغالباً ما كان الخبز هو القاعدة المشتركة في أي طعام، وقطعة جبن إن وجدت تؤكل مع رغيف كامل، ومن باب التغيير نحظى في السنة مرة أو مرتين بأكلة فسيخ (سمك مملح)، نغمّس من زيت قليه أكثر مما نأكل منه، ولا يخلو

الأمر من علبة سردين أو ما تبقى منها، من بقاي طعام أبي، وهذه وجبة معتبرة، وأجمل ما في الأعياد غير العيدية التي لم تتجاوز في مجموعها عشرة قروش، بعد تبويس العديد من الأيادي، هي أكلة الروس والكروش والفوارغ، ومنتظر بفارغ الصبر أن تضحى جدّتي بكبش، ونحجز سقط الذبيحة قبل غيرنا، ويحتفل من في البيت والجيران بالرائحة المنبعثة من القدور، والتهام ما تيسر من الوجبة التي تتوسط لجن من الفتيت المغمور بالشوربة الوفيرة المتحصلة من سلقها وطحنها.

الحمد لله الذي جعل لنا الزيت والزيتون وافراً غير منقطع، إلى جانب الزعتر، وكأس من الشاي الساخن أو المسخن، مما بقي في الإبريق بعد فطور الكبار، فهذه هي وجبة الفطور المعتمدة، والمشكلة إذا وقعت كأس الشاي من يدنا الصغيرة وانكسرت، فتقوم على رؤسنا حرب شعواء، من سبّ وشتّم وحرمان من كأس أخرى، هذا إذا سلّمنا من صفة قوية، يتناثر على أثرها ما في أفواهنا.

وعلى البيدر وبعد تذرية طرحة القمح كانت الوالدة تكرمنا والموجودين في عوننا بطبخة من العدس والأرز (مسلووعه)، تأتي حاملة اللجن على رأسها، وقد ابتدأت تتجمّد ويشدّ قوامها، وعلى وجهها مسحوق من الفلفل الأسود، وبجانبها البصل الناشف والخبز الساخن، وفور وصولها وعلى كومة القمح ومع التعب والجوع نأكلها حتى آخر لقمة نمسح بها قاع الطشت، حامدون شاكرون لله تعالى.

وتحت أشجار الزيتون وفي أيام الصيف يقوم أبي بممارسة هوايته المفضلة، بإعداد صحن من سلطة البندورة والبصل وزيت زيتون وقرن فلفل حار وملح، ويضيف عليها كمية من الماء ليزيد حجمها ويعمّ على الجميع.

وفي أيام العطل وغالباً يوم الجمعة، ومن باب التغيير كنّا نُحطّي بصحن حمص بقرشين، وكيس فلفل بقرشين أيضاً، ونصطحب الصحن الفارغ من البيت إلى البائع الذي يفرد فيه كمية من المدمّس، ويزينه بمسحوق الفلفل الأحمر، وحبّات حمص في وسطه، ويناولنا إياه مع كيس الفلفل من الورق، نظير هذه الصفقة إلى البيت بنشوة عارمة، وأحياناً نلحس منه ونحن في طريقنا أو نزدد حبة فلفل دون أن يظهر ذلك على الصحن، حتى لا ننال من العقاب ما لا يعجبنا.

كانت حلويات تلك الأيام شهية ومغذية ولذيذة، يتم تحضير جميعها في البيت، ومن المكونات الطبيعية، ولا شيء مصنّع، وفي مواسم الزيت تعدّ النساء الزلابية والعوامة من طحين القمح الأسمر وزيت الزيتون، وقلية ورش السكر عليه، نأكل ولا نشبع لطيب مذاقها، وإذا توقّر الحليب الطازج، إذ أن الحليب الجاف لم يكن معروفاً آنذاك، فإن معقود الأرز بالحليب (البحّية)، والحليب والنشا (المهلبية) المحلاة بالسكر، وأحياناً يُصبّ على وجهها القليل من السمن البلدي، فلم تكن تحلاية فقط، بل كانت وجبة رئيسة نتناولها مع الخبز الساخن.

وفي كلّ سنة ولو لمرة واحدة تتعاون النساء، حالات وعمات وجيران، في عمل أكلة شعبية مميزة، ألا وهي معقود عصير الخروب (الخيصة)، ويتم ذلك باستخلاص عصير الخروب الجاف بعد تكسيّره ونقعه في الماء الساخن، ومن ثم عصره وإضافة بعض النشا المستخلص من حبوب القمح، وغليه على النار حتى يصبح كثيف القوام، ويصب في صحن كلّ مَنْ شاركت في صنعه، ويتمّ تلوينه بالحليب، ويترك حتى يبرد ويتجمد، لاقتسامه وإهداء بعض منه إلى الحبايب والجيران.

كانت أجمل ذكريات الطفولة عندما يسمح لي أبي بإصرار من أمّي أثناء قطف الزيتون أن اشترى بملئ جيوبي من الزيتون قطعة هريسة (نمورة)، من «فرج» الذي يملأ البرية بصياحه «أجا يباع الحلاوة»، ومعه حماره وعليه خرج يضع فيه الزيتون المتبادل، وعلى رأسه سدر من الهريسة، ينزله على صخرة، ويعطينا قطعة تتناسب مع كمية الزيتون التي يُفرغها من جيوبنا.

وتسالي ليالي الشتاء إما حبات حمص يتم شويها على نار الكانون أو حبات قطين (التين الناشف) مع البسيصة (طحين مع زيت مع سكر)، في وقت تكون الحالة ميسورة يتوفر لدينا علبة من حلاوة الطحينية والقليل من التمر.

أمسيات الشتاء القارص



قبل الغروب يبدأ اشعال النار في حطب الزيتون وإضافة الجفت إليه في كانون النار مباشرة، توضع في وسط الكانون تنكة صاج مخرّمة الجوانب، داخلها يتمّ صف أخشاب الزيتون عمودية، وعندما تتصاعد شعلتها يبدأ رشّ الجفت عليها بالتدريج حتى لا تنطفئ النار، أثناء ذلك تقوم أمّي بصيانة سريعة (للضو) لمبة الكاز (نمرة أربعة)، تعبئة بالكاز وتنظيف نهاية الفتيلة، ومن ثم غسل زجاجة اللمبة من السخام العالق بها، وتجففها وتشعل اللمبة

وتضبط ارتفاع شعلتها بحيث لا تتسخ الزجاجاة، ولا تحرق كمية وافرة من الكاز، وتعلّقها في المكان المحدد لها على الجدار خلف يمين جلسة أبي، وعلى ارتفاع مناسب لإنارة المسطبة وجزء من قاع البيت (المدخل).

يلعب الأطفال حول كانون النار حتى إذا ذوت شعلته وانقطع دخانه بشكل كامل، تزال الصوبة من فوقه ويصبح مليء بالجمر الأحمر ودقيق الجفت الملتهب، تحمله الأم بين يديها رافعة لأعلى فوق مستوى وجهها ليستقر في وسط الجلسة الأرضية، وعلى حصيرة من القش صفت على جنباتها فرشات (جنابي) وبعض المساند، وفعلاً ذلك الكانون كان كافياً لتدفئة بيت من العقد بجدرانه السميكّة وندرة فتحاته.

تتحلّق العائلة حول النار، ويتمطط القط تحت أرجل الكانون، ويبدأ يهرّ نائماً مستديفاً، وبذلك نكون على استعداد لاستقبال الجيران في زيارتهم الليلية المنتظمة، وجلّهم من كبار السنّ، ليشنفوا آذانهم بسماع قصة الزير سالم وأبو زيد الهلالي، ويتغنّى أبي بما فيه من أشعار، يصغون إليه باهتمام شديد، ويتمايل الرجال طرباً وتأثراً، ويرددون الله الله، وتفتح النساء عيونها إعجاباً وإكباراً لأبطال القصة، ويدعون لأبي بالصحة وطولة العمر، يتوقف الراوي عن القراءة عند مقام ومشهد يثير الفضول، حتى يستشير الموجودين لطلب المزيد ومتابعة القصة في اليوم التالي.

إذا بقينا كأسرة لوحدا وأبي غائب وبقي شيء من النار في الكانون، فإننا نتابع سهرتنا نستمع إلى خرايف أمي أو إحدى

العجائز المتأخرة عن الركب، وأثناء ذلك نشوي حبوب الحمص والفل والقطين على بواقي النار أو ندفن في الرماد الساخن حبات من البطاطا والبصل، وأحياناً بيضة أو اثنتين، وإذا انسجمنا مع إحدى السواليف ونسينا البيض المدفون، فإنه غالباً ما ينفجر مسبباً تطاير الرماد، وبواقي شرر الجفت على الحصيرة، فتنتهي سهرتنا بتوبيخ لا يقل ألماً عن الحرمان من البيضة.

إذا كان الجو نهاراً بارداً ما طراً لا يسمح بالذهاب للحقول، يبقى أبي في البيت المكون من حجرة واحدة حتى تملأ أمي من طلباته وتدخلاته واعتراضاته، فتشجعه على الذهاب للمقهى حتى يتسنى لها ولي الذهاب إلى الطابون مجمع نساء الحارة بأجوائه الدافئة، والطابون عبارة عن حجرة دائرية يتم بناؤها بالطين والقصل بارتفاع لا يزيد على مترين، مقببة السقف، يتوسطها جرن من الفخار، تفرش أرضيته بحصى كروي الشكل يحضرونه من الوديان، وله غطاء حديد، وممسك في وسطه، يتم دفن الجرن الفخاري بخليط من أوراق شجر الزيتون وقصل القمح المخلوط بعر الغنم، ويشعل بالنار ليلاً، وعند الصباح تكون النار قد همدت وانقشع الدخان، وبقي رماد ساخن، وفرن حار يوضع فيه العجين حتى ينضج ويتحمّر، في كل مرة سبعة أرغفة حسب سعته، وفيه أيضاً تصنع صواني الخضار وتحمير الدجاج أو اللحم إن وجد، ويبقى بقية النهار دافئاً مناسباً لجلسات النساء والأطفال في جنباته، وكلّ منهنّ مشغولة بأشغال يدوية أو أحاديث حميمية، لم أكن أفهم

معظمها لكونها تتناسب مع أعمارهنّ، وتحمل صفة الرمزية حتى لا نفهم، وما يهمّنا إلا حبة بطاطا مدفونة في رماده الساخن.

يتخلل الشتاء أيام تسطع فيها الشمس، وتغمر المكان بالدفع، يذهب الوالد للحراثة وتبقى النساء جالسات في أحد الذروات الحارة المشمسة أو سطوح البيوت المحمية بجدار البيت المجاور، يمارسن هواية التطريز وحياسة السنارة ونسيج الصوف، ويتعاوننّ في عمل الشعيرية من عجينة القمح بما يشبه المعكرونة حالياً، وفي ترقيع الملابس وشكّ الخرز، ونحن نلعب حولهنّ هاربين من تهديداتهنّ وصفعاتهنّ المفاجئة.

يميل الجو في نهاية ربعية الشتاء للدفع، وتصبح الشمس أكثر سطوعاً، حيث تكتسي الحقول بأنواع من الزهور وبكلّ ألوان الطيف، وتنشط الطيور لبناء أعشاشها، مغرّدة مترقصة استعداداً للتزاوج، وتسمع أصوات الحراثين تصدح في أطراف الجبال والوديان.

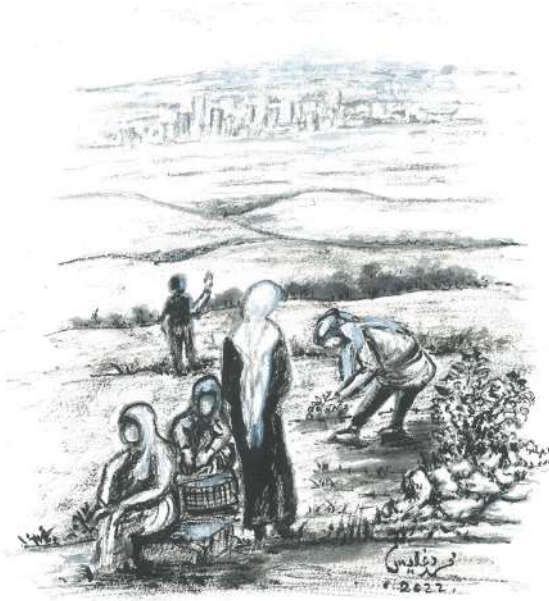
مرافقتي لأمي صغيراً بدفع حنانها وعذوبة توصياتها كان له الأثر الإيجابي في تكوين شخصيتي، في مشوار قصير إلى الحقول لالتقاط البقل والخبيزة والخرفيش والعلت والحميض، مما يلزم للطبخ، وما تيسر مما يؤكل طازجاً من الخس والذبح البري والشومر ولباليب الزعتر، أطيّر فرحاً عندما أجد زنابق النرجس أو زهر الدحنون الأشهب والأبيض والأزرق، وهذه نادرة الوجود، وبوادر زهر الإقحوان الأبيض والأصفر، وعين العصفورة

الإرجواني، وحنونة العرايس الحمراء تحفّ بنا من كل جانب، علمتني أمّي كيف أصنع زميرة من القصب، فكانت هذه أول ما صنعت يداي، وباكورة الابتكارات المسلّية.

يتبع ذلك موسم الفول الأخضر، يصبح عاشق المطر الوجبة الرئيسة على طول الموسم، ولحسن الحظّ أن الفول الأخضر يمكن أن يطبخ بتنوعات عديدة، فلا نملّ منه -قلي وشوي وسلق- والفول بالبندورة والفول باللبن والربيعية (فول وأرز) شبيهة بالمقلوبة، وغير ذلك الكثير.

كان أكثر ما يرهق النساء في نهاية الشتاء وفي الأيام المشمسة هو ما يدعى بالتعشيب، هذا العمل هو إزالة الأعشاب الغريبة الضارة من بين المزروعات الشتوية، مثل: القمح والشعير والعدس وغيرها، وفي مثل هذا العمل اليدوي يستلزم أن تبقى المرأة مقوَّسة الظهر طيلة النهار في أرض رطبة، حريصة على عدم إيذاء المزروعات المفيدة، أرافق النساء أحياناً على مضض، وأتلهى في عمل المزامير وجمع الزهور البرية.

أولى الرحلات الجماعية



تعلّقي بأُمِّي طفلاً جعلني لا أطيق فراقها، ورفقتي اللصيقة بها لها دواع عديدة، حنانها ودلالها ولطف عنايتها مقابل انشغال أبي وجفائه وعصبيته وانفعالاته التي كانت ترعبني، معها فقط أشعر بالأمان والطمأنينة، هذا ما جعلني أصر وبإلحاح شديد أن تأخذني معها أينما ذهبت داخل البلدة أو خارجها.

كانت أُمِّي في صبيحة يوم ربيعي على وشك الذهاب إلى الجبال مع الخالات والجارات لجمع بيوض العكوب، حينها

بكيت بحرقه حتى لَانَ قلبها، وسمحت لي بمرافقتهم على مضض؛ بسبب الشفقة عليّ من بُعد المسافة ووعورة الطريق، وما أن سمحت لي بذلك حتى ركضتُ أمامها جذلاً مسرعاً لاثبت لها جدارتي بمرافقتها، صعدنا سفح الجبل الشمالي حتى تجاوزنا الأراضي المزروعة بالزيتون، ووصلنا إلى قمة الجبل، حيث بداية الأراضي (المفتوحة)، وهي أراضٍ لزراعة الحبوب الشتوية، ومن هناك أصبح الأفق مفتوحاً على كلّ الاتجاهات، ولأول مرة أرى بلدتنا من علوّ بكلّ مكوناتها، لاحظتُ أمّي تأملي للبلدة باهتمام، نبهتني وأشارت عليّ أن أنظر للغرب، كانت السماء صافية، والرؤيا واضحة، هالني عندما رأيت مساحات شاسعة من الخضرة الباهتة، ومن خلفها في عمق الأفق شريط أزرق لامع يمتدّ من الشمال إلى الجنوب، كان منظرًا جديدًا رائعًا لم أر مثله حتى في أحلامي، ظلّ نظري متعلقًا في ذلك المنظر، حتى سمعت أمّي تقول: هذا الساحل الفلسطيني يما ومن خلفه البحر الأبيض المتوسط.

- يبدو قريباً يما.. ليش ما بنروح هناك؟!

- هذه أرضنا التي أخذوها اليهود يما، وما بسمحوا إنّا نروح إلها.

رغم أنني كنت أسمع من الكبار عن حرب الثمان وأربعين، وعن مآسيها، وعن احتلال اليهود لأغنى أراضي فلسطين وأجمل شواطئها ومدنها وبياراتها، إلا أنني لم أكن أبه بذلك لصغر سني، مشدوها ولأول مرة في هذا الموقف، بدأت أتذوق مرارة فقدان

وطعم الحرمان، يجتاحني الشوق والرغبة في الوصول إلى هناك،
حيث حدود وطني، لحقت أمي بزميلاتها وبقيت أتأمل ذاك المنظر
لبرهة، أستم رائحة الهواء الآتي من البحر، ألحقها بتنهيدة عميقة،
يعلم الله مداها، ثم أركض خلف أمي.

تفرقت النسوة في الحقول، كل تبحث عن ضالتها من خشاش
الأرض، بقيت ملاصقاً لأمي التي عرّفتني على نبات العكوب
بغيتنا، راقبتها قليلاً، ثم انطلقت، فإذا عثرت على إحداها أصرخ
بأعلى صوتي منادياً أمي كأنني عثرت على جوهرة ثمينة، فما ألبث
أن ألهو مع الزهور والطيور والتقط بعض الحشائش التي تؤكل
غضة، كما علمتني أمي، حتى جمعت النساء ما تيسر لهنّ من
العكوب الشوكي واللوب والزعموط، وقفلنا راجعين إلى بيوتنا،
لم تفارقني مشاهداتي حتى عندما أغمض عيني.

جنوب شرق البلدة وعلى بعد مئات الأمتار فقط يتفجر نبع ماء
في الربيع، ويبقى حتى منتصف الصيف تجري مياهه في الطريق،
لتصل إلى الوادي مروراً ببعض البيادر الصخرية المنبسطة، وعندما
يصبح الطقس دافئاً والشمس ساطعة في موسم الربيع تستثمر النساء
مياه هذه النبعة، تجمع الملابس والأغطية والملايات والبطانيات
وكل ما استعمل خلال الشتاء، تذهب بها إلى مجرى تلك النبعة
المسمّى (عين أم قريط)، يغسلنها ويجففنها، تقوم أمي وخالتي
بهذه الطقوس سنوياً، وأكون أنا وسلوى المرافقين وعمتي هنية
الراعية للأطفال، وعادة يوصل أبي الأغراض والمجموعة في

الصباح بعد طلوع الشمس إلى المكان نفسه، إلى موقع صخري منبسط (بيدر)، في نهاية مجرى مياه العين، وقبل انحدارها للوادي تكون المياه في الصباح صافية كالزلال، وما أن يوضع كل شيء في مكانه يتركنا أبي ويعود وحماره إلى البيت.

تتنفس أمي الصعداء، وتبدأ في تعبئة المياه في سطول معدنية، وفي الوقت نفسه تقوم خالتي عزيزة بعمل مواقد من الحجارة وجمع الحطب لإشعاله تحت سطول المياه، حتى إذا وصل درجة الغليان ابتدأت مرحلة الغسيل، بعضه يتم عليه في الطناجر، وبعضه الآخر يصب عليه الماء الساخن في اللجن (وعاء معدني مسطح)، ويغسل بالماء وصابون الزيت البلدي الذي يتم صناعته في البيوت، والبطانيات والملايات تستعمل لها مدقة (مطرقة خشبية)، بالطرق عليها مبللة لإخراج ما علق بها من مخلفات الغبار والعرق، تتعاون أمي وخالتي في الغسيل والعصر والنشر على أغصان الأشجار وأطراف الصخور والسناسل المحيطة، ليغدو البيدر كأنه ساحة احتفال تحيط به الأعلام الملونة من كل الجهات، وعادة ما تعتمد النساء تعليق الملابس البيضاء الزاهية والملونة في الواجهة والداكنة الثقيلة في الخلف، لغاية في نفس يعقوب.

المفاجأة المفرحة خلال تلك الرحلة أن أبي يأتي إلينا عند الضحى، حاملاً معه إفطاراً للمجموعة، وغالباً ما يكون شهياً مميزاً، يحتوي على البيض المسلوق والجبن والفلفل والحمص والمدمس والخبز الطازج، وأحياناً بعض الفسيخ (السّمك

المملح) أو علبتين من السردين مع الزيت والزيتون والبصل والفجل، يصل الوالد مزهواً كالطاووس، يلبس ملابس مرتبة ونظيفة، يجلس معنا يوزع الخبز والطعام ويُطري على النساء ما بذلن من مجهود يستاهلنّ معه هذا التكريم الذي هو أقل مما يستحقنّ. كانت هذه أسعد لحظات العائلة التي أشعر فيها، ونادراً ما يحدث أن يضيّف الوالد بكرمه ويصنع لنا شايًا مع الميرمية على الحطب، ويزيد السكر لنشرب نخب تلك الحفلة الممتعة.

قمة تلك الرحلات السنوية وأطولها وأكثرها مغامرة تتحقق يوم الذهاب لجمع الزعر، وتحدد أمّي وأخواتها والجارة يومًا للقيام بتلك الرحلة، وتستعد لها في الصباح الباكر، لذلك اليوم الدافئ من أيام نهاية الربيع وقبل أن تجفّ قطرات الندى عن الحشائش في جنبات الطريق نسرح، نحثّ الخُطى على استعجال، فالمشوار طويل وبعيد، نزل الجبل ونتعدّى وادي المشاعر لتتسلق الجبال المقابلة والشعاب، التي ينمو فيها الزعر بكثرة وبكل أنواعه، من البلدي إلى الفارسي والولادي، الذي يكون قد أينع وأطلق الدلب الطري الأخضر شذي الرائحة، هذا بالإضافة إلى الشומר والميرمية وأغصان البطم والسماق الجديدة الطازجة، نبقى نجوب الجبال ونتخطى الينابيع التي تتهاذى مياهها من بين أحجار ملساء وبلاطات ناعمة، وتلمع الصخور في كل مكان، وقد غسلت وجهها بمياه النزازات، فبدت لنا ألوانها الطبيعية الساحرة، وتتدلى أغصان العرقد والعليق والشبرك في كلّ مكان كشعر الغجرية المجنون.

ترفع النسوة أثوابهن ويثنين أطرافه تحت أحزمتهن المشدودة على وسطهن، لتكون منها حاضنة تضع فيه كل واحدة ما تجمععه من حشائش وأغصان غضة، حتى تغدو تلك الأثواب تنتفخ شيئاً فشيئاً حول البطون، مبشرة بميلاد خيرات الطبيعة الوفيرة، ويتم تجميعها ومن ثم تفريغها في شوالات من الخيش، وتحشوها النساء بكل ما جادت به الأرض، من الزعر والتمر والميرامية والشومر واللوب والزعمطوط والخس والذبح والثوم البري، ويقمن بفرزه بعد العودة إلى البيت، وكل صنف حسب حاجة استعماله، بعضه يؤكل طازجاً وبعضه الآخر يطبخ والقسم الأكبر يتم تجفيفه لمونة البيت.

رغم صغر سني، فقد كانت تستهويني سراويل النسوة المزركشة الواسعة عند البداية، وتضييق عند القدمين بنهايات مرفرفة مطرزة حول أرجل بيضاء رقيقة، كل النساء رشيقات، ولم يكن هناك نساء سمينات بين الفلاحات، لكثرة حركتهن وقلة طعامهن.

عندما ترتفع الشمس وتقرب من الظهيرة ويصبح الجو حاراً يتصبب العرق من جبين النساء وتتورد خدودهن ويتملكهن التعب، يصبح لا بدّ من استراحة مقتطعة، يتم اختيار أحد الأماكن المنبسطة قرب أحد الينابيع وأحياناً على جانب الطريق، يجتمعن وكل منهن صُرتها، وتفرد خبز مدهون بالزيت والملح والبصل، بالإضافة لما جمعه من زعر طري و ثوم بري (ثومة العرب)، وإن كانت إحداهن قد أحضرت سخاناً من الشاي تكون وجبة

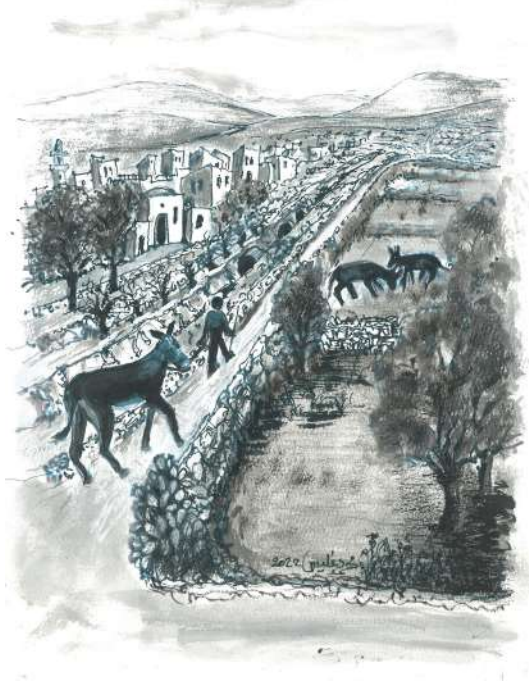
شهية مع الجوع والتعب والأجواء المحيطة من الطبيعة الجميلة، وعلى أنغام أصوات الطيور وهديل الحَمَام ودويّ أسراب النحل المنتشرة في كل مكان التي تسمعها ولا تراها، والنفوس الراضية السعيدة بلا منغصات أو مسؤوليات مزعجة.

أكثر ما كان يطربني ويشير شجوني أصوات طائر الشنّار المنتشر في الجبال، وعلى الأخصّ في هذا الموسم الذي تصبح فيه الطيور نشطة الحركة وشذية الصوت، في موسم بناء الأعشاش ووضع البيض، أجفل عندما تفاجئني إحدى الشنانير، تطير مصفقة بأجنحتها بارتفاعات منخفضة وبسرعة هائلة كالسهم، بعد أن أكون قد اقتربت منها كثيراً دون أن أشعر بوجودها، أخبرتني أمّي أنّ طائر الشنّار يتعد عن عشه بهدوء لمسافة معينة، ثم يطير حتى لا تعرف أين بيوضه، فعلاً نجد الكنوز كأطفال عندما نعر على عش شنّار بالصدفة، وفيه العديد من البيض، التي تصغر بيض الدجاجة بألوانه المبرقة، نسرقه من العش ليتحوّل إلى وجبة شهية، بالسلق أو القلي أو في قرص من العجين يشوى في الطابون.

تعود النسوة عند العصر إلى بيوتهنّ، وبعد استراحة قصيرة يعدنّ إلى لقاء في الساحة بين البيوت، وبمساعدة الجارات يتم فرز المحصول وتصنيفه وفرطه لأغراض تجفيفية، وفي غمرة ذلك تدور الأحاديث عن مغامرة ذاك اليوم، وهنّ يقضنّ عروق الشومر وبعض أغصان الزعتر الطرية والخس البري، ويلهو الأطفال بعمل باقة من الزهور الملونة التي جمعت أثناء الرحلة الميمونة، وأنا

انفذ طلب أمي بحمل مخلفات الفرز وإطعامها للأرانب أو الجدي
الذي نربيهِ بالبيت، مثل هذه الرحلة تبقى تداعب مشاعري طيلة
الليلة اللاحقة، فأرى صوراً للنباتات والطيور وعيون الماء تتراقص
في مخيلتي والروائح التي شممتها تبقى تعبق في ثنايا أنفي.

أصعب المهمات التي تحملتها قبل دخولي المدرسة



لم يشفع لي صغر سنّي وقلة حيلتي وموت أخي الذي سبقني
عند أبي ليكلفني ما يفوق طاقتي، لعل قساوة الحياة اكسبت والدي
قسوة مفرطة أو لعلّه كان يعتقد أن تلك القسوة ستصنع منّي رجلاً
قويّ الشكيمة مستقبلاً، كأنه يطمح أن أتصرف كإنسان بالغ، وأنا لا
زلت طفلاً غضّاً يخاف العتمة ووعورة الطريق وأصغر الحشرات،
كالصراصير والفئران حتى دودة الأرض أو أي زاحف يترك أثراً

على تراب الطريق الناعم.

يطلب منّي أن أحرس المقثاة (أرض مزروعة بالبندورة والفقوس والبطيخ)، وهي تقع على بُعد مئات الأمتار من آخر بيت شرقي البلدة، كنت أشعر أنني بعيد جداً عن الحماية والرعاية التي كنت بأمس الحاجة إليها، والأدهى من ذلك أنه جعلني أنام فيها ليلاً، وما زلت لا أعرف لماذا؟! قد يكون لحراستها من الثعالب أو بنات آوى أو المتطفلين، أو أنه يقصد من وراء ذلك أن أشبّ شجاعاً، ويشتدّ عودي مبكراً، لأصبح أكثر جرأة وأكثر إصراراً على تحدّي الخوف، فإذا غابت الشمس وادلهمت الدنيا بزحف العتمة أغطي نفسي كاملاً بالفراش كي لا أرى أشكال غيوم الصيف، التي تبدأ بالإسوداد وتبدو لي كوحوش مرعبة في صفحة السماء، أتوقع تحت الغطاء وأسد أذناي حتى لا أسمع حفيف أشجار المشمش أو أصوات صراخ الليل بعد أن تجلجل العتمة المكان، كان يأتي ليلاً متاخراً أو لعلّي كنت أشعر بتأخره؛ لأنني لا أدرك الوقت وهو يمر بطيئاً، فإذا وجدني نائماً أسمع منه ما يسوؤني، وأقرر الاحتيال عليه، فأنام جالساً حتى أستدرّ عطفه وشفقته، فلا يلومني.

كل هذا هيّناً مقارنة بالمعاناة والخوف لدرجة التعرق والفرع الذي يتباني، عندما يطلب منّي مرافقة حمار أبي سواء بنقل الحَبّ أو الحطب أو حتى توصيله حيث يعمل.

كنت أشعر وأنا طفل صغير بأن ذاك الحمار بحجم ديناصور، وإنه حيوان شرس، صعب المراس، ويدي الصغيرتان اللزجتان

من عرق والخوف لا تقوى على رده إن أراد تمرداً، وكأنه كان يدرك أن مَنْ يقوده أو يسوقه أضعف من أن يضبطه، يتغطرس ويشمص ويتنح ويرفض المشي، وكأنني غير موجود. اللهم المخيف والطامة الكبرى كانت تحلّ على رأسي عندما أكون مضطراً لسوقه إلى أبي في البرية، سالكاً الطريق الوحيد الصخري الضيق المعلق على حافة أحد سفوح جدران البلدة، والمعروفة بطريق (قطاين أبو شاجوره)، فإذا تقابلنا مع حمار آخر يحمل حملاً فلا يتجاوزه إلا بعد شهيق ونهيق ترتعد لها فرائص قلبي، والأدهى من ذلك إذا مررنا بأنثى حمار، ترعى في أحد الحقول، عندها كيف لي أن أمنعه من العنف والهيجان؟! لينطلق ساحباً حبل رسنه من يدي بعنف، ويلقي بنفسه من الطريق إلى الجرف باتجاه تلك الأنثى، حيث تحدث معركة تشمل المطاردة والرفض والعض، وأنا أقف مشدوها لا أقوى على فعل شيء، حتى يرسل الله برجل يُشفق بحالي، ويمسكه ويعيده لي، فأكمل طريقي أجره جراً، بصعوبة بالغة، حتى أصل إلى حيث ينتظرنني أبي، أجده يلاحظ من تصرفات الحمار أنني تركته يفلت من يدي ليمارس ذكورته، فينالني من الشتم والعقاب ما لا يمكن أن أنساه أبداً.

تمنيتُ كثيراً في خضم تلك الأحداث لو كان لي أخ أكبر مني، يتحمل معي عبء المعاناة، وأنا وحيد أقوم بتوصيل حمل من الحطب في خرج الحمار، وفوقه حزمة من أخشاب الزيتون، وفي طرق زراعية صعبة، وأحياناً يميل الحمل، فأحاول أن أعدله، وإذا مال كثيراً ولم أتمكن منه يسقط الحمل أو يتعثر الحمار به، فيسقطا

معاً، فلا أستطيع عمل شيئاً سوى انتظار مَنْ يساعدني على حلّ المشكلة. كان لي أخ من أمّي أكبر منّي، توسلت أمّي أن يرافقني يوماً في نقل الحطب، لكنه رفض، كنت أرجوه أن يوافق، لعلّه يعينني على أصعب المهمات التي كنت مجبوراً عليها دون اختيار، لكنه رفض، فناله بغضبي طويلاً.

وعلى مائدة الطعام، وهي دائماً على الحصيرة، أختار الجلوس أبعد مسافة عن أبي تلافياً أن تطالني يده الغليظة إذا سقطت كاس الشاي من يدي أو سكبت الزيت على المفروش أو تصرفْتُ أيّ تصرف لا يعجبه.

وفي أيام الأعياد تصرّ أمّي أن يصحبني أبي معه لمعايدة الأعمام والعمّات والأقارب، على أن أكون لبقاً جداً ومؤدباً وخلقواً وذكياً. كيف ستجتمع كل هذه الصفات في طفل مقموع؟! لا بدّ من الوقوع في بعض الهفوات، فتعرضني للذم والشتم، والتهديد بسوء العاقبة، مما يجعل تلك الزيارات مملة وطويلة وحرجة، وأخشى منها قبل وقوعها.

تحضر خالتي المعززة وابتتها المدللة جلساتنا وسهراتنا، فأشغل في عقد مقارنة بيني وبين الفتاة المدللة، وبينني وبين أخي نايف الأصغر مني، فأنا أكبرهم سنّاً، وأكثرهم إدراكاً لما يقال، أسمع أبي يثني عليهما معلناً أن لهما مستقبل متميز، في حين ينتقص من قدري ومكانتي، فأسرّها في نفسي رغم صغر سني، وأردد في نفسي: سأكون أفضل منهما مستقبلاً، وسوف أغيظك

يا أبي. لعل الخوف والحرص على تصرفاتي جعلني أبلهًا حزينًا قليل الحيلة.

لا يمكن أن أنسى ذلك الرعب الذي ينتابني عندما كان يطلب أبي أن آتیه بشيء ما من المغاور التي تحت البيت، والعتمة تلف المكان حتى لو كان معي سراج، ضوءه الخافت المتحرك يجعل الأشياء كالجرار والبراميل في المغارة، وكأنها تتحرك أمامي، فأتخيلها كائنات من عالم آخر، أنزل المكان ببطء شديد، مكرراً: بسم الله، بسم الله، بسم الله.

كاد الخوف يسبقني، سمعت صوتاً مخيفاً من أبي، أُلقيت السراج وصعدت الدرجات أصرخ، وارتيمتُ في حضن أمي، كنت انتفض رعباً وبكاءً، حتى لآمه من هم عندنا «حرام عليك يا رجل»، وأبي يضحك بصوت مسموع، تأثرت بتلك الحادثة منذ طفولتي المبكرة، فأصبحت أرى كوابيس مرعبة، وأسمع من أصواتاً، وأرى صوراً واشباحاً، لدرجة أنني كنت أخشى النوم، كي لا أرى تلك الكوابيس التي لو طالت لذهبت بعقلي.

لم تكن الكهرباء قد دخلت البلدة حينها، مما جعل الحارات الضيقة المظلمة المتعرجة مخيفة لطفل في عمري، فإذا دعاني أبي لشراء سجائر من الدكان، أذهب متسللاً من بين البيوت الخربة، وأمر من أمام أحواش طالما سمعت عنها حكايات مرعبة، وعند أحد زواياها رأيتهم بأم عيني يغسلون رجلاً ميتاً عارياً في حوش بيته، أعبر الحارة ذهاباً وإياباً دون أن أنظر خلفي أو حولي،

مستعيناً بالبسملة في طريقي، كانت هذه المغامرة أخفّ وطناً عليّ من النزول إلى المغارة تحت البيت.

ومن المهمات الصعبة التي عكّرت صفو طفولتي أيام يكون أبي في البيت، يطلب مني صباحاً أن أذهب لإحضار الحليب الطازج من أصحاب الغنم أو البقر في حارات الأخرى، كان ثمن الحليب قرشين فقط، والوعاء الذي سأحضر فيه الحليب عبارة عن طاسة أو دلة قهوة من الألمنيوم، ليس له غطاء، وقد يسيل من فوهة الحليب، فأجد صعوبة المشي في طرق ترابية كثيرة العثرات، والأهم من هذا وذاك أن الأطفال المتمرّين وهم الأكبر سنّاً يستغلون تلك الفرصة للتهجم عليّ، فأحاول تجنبهم وعدم الاحتكاك بهم، مع ما ينالني من أذى، ويرى أبي ما سأل من الحليب، فأتلقي ما لا تحمد عقباه.

كان عليّ أن أرافق أبي في مساءات الصيف، وفي أيام التين، لجمع الذبيل (التين الناضج الساقط تحت الشجرة)، ليتم بسطه في أكثر من مسطح كي يجفّ تحت الشمس، ومن ثم بسطه وضغطه ونشره ليومين متتاليين، ثم جمعه وتخزينه لأيام الشتاء أو بيعه في المدينة، لم تكن المهمة صعبة، لكن الويل لي إذا تركت شيئاً منه تحت الشجرة، رغم أنها مهمة يومية مملّة، يعتريني الرعب شديد.

نابلس أقرب المدن لقريتنا



لأول مرّة أتعرف على ما هو خارج حدود بلدي، وإن هناك أشجاراً وبيوتاً وأسواقاً وأناساً وزحمة تختلف عمّا في قريتي، هناك جَمال مختلف يفوق ما عرفته حين ذاك، لا أذكر سبب السفارة إلى مدينة نابلس، ولماذا اصطحبني أبي في تلك الرحلة؟! أظنّ أن أبي يحبّني، لكنه يكتّم حبّه صراحة، أدركتُ الآن أنه غير قادر على ضبط تصرفاته، خاصة في حالة الغضب، ربما ليس له يد فيها، وجاءته بما مرّ به من قسوة الحياة وضيق العيش.

يجهز أبي نفسه للرحلة قبل موعدها بيومين، ويكتب على ورقة كل ما سيقوم به أو يشتريه من المدينة، ويقدر المصاريف التي سينفقها، فيحتاط لكل شيء، ويسأل أمي وخالتي إن كانتا في حاجة خاصة أو ما يخص البيت.

تقع نابلس على مسافة خمسة وعشرين كيلومتراً من قريتنا، والوسيلة الوحيدة للوصول إليها بـ «باص أزرق اللون»، حيث كان يصل بين سلفيت ويافا، قبل عام ثمان وأربعين، ذاك الباص الذي أحببت رؤيته في ساحة البلدة، وأحلم بركوبه.

قبل طلوع الشمس، طلب أبي أن أذهب إلى (الباص)، وأحجز له مقعداً، وأن يكون على يمين السائق، وليس في المقاعد الأولى، وبجانب الشباك، وذلك قبل أن يتوافد الناس عليه، وهكذا صعدت (الباص) لأول مرة، وجلست في المكان المطلوب فرحاً، وعلى المقعد الجلدي، ممسكاً بالمواسير الحديدية التي أمامي، امتلاً الباص، وحضر أبي، كلّ يجلس في مكانه، وبعد أن تمّ تحميل الأكياس والحاجيات على ظهر (الباص) بمساعدة الشاب (الكنترول)، وهو مساعد السائق، وضابط الوقوف والحركة ولمّ الأجرة من الركاب، تحرك (الباص) بإشارة من (الكنترول)، بقوله: اقصد.. توكل على الله يا معلّم.

قضيت الرحلة واقفاً وسط (الباص) كغيري من الأولاد، كي لا ندفع أجرة، وهي خمسة قروش، لكن ذلك لم يقلل من سعادي الغامرة، وأنا أرقب الأشجار والبيوت، وتبدو أنها تمرّ من جانب

(الباص) مسرعة، بيوت وقرى جديدة وأطفال يلعبون في ساحات المدارس، كل ما رأيته أثار فضولي، وأسعد قلبي، حتى أحاديث الركاب، وصوت ماتور (الباص) وزاموره، وحديث السائق مع الكنترول، والألقاب المضحكة التي ينعته بها، بدت تلك الأحداث معزوفة موسيقية تداعب شغاف قلبي، وتعمق سعادتي بأول رحلة في حياتي.

ما أن توقف (الباص) في أحد شوارع نابلس حتى انطلق الركاب كل إلى غايته، ومشيت خلف أبي اتبعه حيث يشاء، وينهرني ويحذرني ألا أتعرثر (انظر أمامك). كان محققاً بتحذيره، فقد كنت مشدوهاً بكل ما أرى، هناك أناس كثر، وملابس، وأصوات باعة متجولين، وتجار بلكنة جديدة ونغمات متعددة، وفواكه وخضار، مما لذ وطاب، وحلويات على سدور من الألمنيوم، يسيل لها اللعاب، وخبز منفوخ محمّر، لم أر مثله في حياتي، وحامل فراش خشبي على رأسه ينادي بأعلى صوته كعك وبيض، ومحللات اللحوم والسمك الطازج، وسيارات (التاكسي) بألوانها الجذابة.

كل هذا ذاك شيء، والجولة في السوق المسقوف للبلدة القديمة شيء آخر، شارع ضيق بأرضية من بلاط حجري، وسقوف حجرية، تتخللها شبابيك إنارة، ودكاكين صغيرة متلاصقة كالمغاور، يتم النزول إليها بدرجات، رأيت ما لا يخطر على البال، دكاكين ممتلئة إلى أبوابها، وأخذت جزءاً من الشارع، ورائحة العطارة ودخان

مطاعم المشاوي تثير الشهية، وتعطر الأنفاس، عبير أراجيل التمباك العجمي تزيد المكان هيبة وعراقة.

لنابلس رائحة خاصة لا تجدها في أيّ مكان في العالم، كل بضاعة الأرياف المجاورة من الحليب والألبان والزيت والزيتون والتين والعنب والزبيب والفواكه المختلفة والنادرة والخضار والنعناع والورقيات اليانعة تصبّ في نابلس، مما يبعث على البهجة والسرور، غمرتني سعادة لا توصف، وأنا أرى الناس تتزاحم في الأسواق، فيهم الفلاح والمدني والبدوي، ونساء بعباءات سوداء، وأخريات بتنانير قصيرة، كأنه كرنفال بهيج.

كان أبي يستطلع الأسعار، ويساوم بلا هوادة، لا يشتري حتى يعرف أثمان ما يباع في المتاجر كلّها، ثم يشتري بأقل الأسعار، مررنا من أمام محل الشواء، وعضّني الجوع، فدعاني أبي لـدكان كالمغارة، ونزلنا درجات ضيقة، هنا رائحة الشواء، سلّم أبي على (أبو سلطان) بمريوله الأبيض، وهو يقف خلف طاولة حجرية عند المدخل، وعليها أنواع من اللحوم، وطلب أن يحضر لنا أربعة أسياخ من اللحم، وأربعة أسياخ من الكبد، وأربعة أسياخ حلاوات (دهون)، ومثلها أسياخ من الفشة (رئة)، مع خبز كماج ساخن، وبصل وبندورة مشويّة، بكلفة مقدارها عشرون قرشاً، حينها لمست في وجه أبي السعادة والراحة، وهو يراني أكل بشراهة وفرح، مما جعله يأخذ بيدي إلى (محل العكر) للكنافة، وقد كان مغرمًا بالحلويات، وطلب كمية وفيرة منها، ولم أكن قادراً على اتمام حصتي رغم لذتها، وأمرني أن أتي عليها كلّها، فلم أقاوم.

بعد أن أصبنا من الطعام والشراب والحلوى ما أصبنا اشترى أبي حاجياته، وعدنا حاملين بقجاً من القماش، وركبنا (الباص) الذي كان في انتظارنا، وكنا آخر الركاب، وحُشرنا البقع بين المقاعد.

ألقي السائق على أسمعنا بعض الملاحظات، ثم سار بنا يتهدى في طريق العودة، ماراً بمخيم بلاطة وبلدة حواره وبلدة جماعين ومن ثم عقبة جماعين، التي صعدنا (الباص) بأقل من مهله (الغيار الأول)، وببطء شديد، فكان صوت (الماتور) يصم الآذان، ورائحة دخانه تزكم الأنوف.

كانت تجربة فريدة، وقد تركت في دنسي أثراً لا يُمحى من الذاكرة، فأرى في أحلامي أن مدينة نابلس قد اقتربت جداً من بلدي، حيث استطع الذهاب إليها مشياً على الأقدام، وأنعم بما فيها من خيرات حسان، وبقي ذاك الحلم يراودني كثيراً، وأنا أرى فيها المباني العالية التي تطل من وراء الجبال، ومضت الأيام وبقي الحلم يراودني حتى بلغت خريف العمر، رأيت مبانٍ تتعالى مقابل سلفت، رأيت مستعمرة ارائيل القريبة منها، فامتعضت وحاولت أن لا أتذكر ذاك الحلم، وأن احتفظ فقط بذكرياتي عن نابلس المدينة العريقة، التي ما زالت تحتفظ بكل ما رأيت فيها، وبوقعها المميز في وجداني، حيث هي، وكما هي، بل ازدادت ألماً وجمالاً.

طفولة لا تخلو من بعض التسلية والمرح



حتى السادسة من عمري لم أكن قد سمعت الراديو أو رأيت،
بمعنى أن وسائل المعرفة والتنمية التثقيفية كانت مفقودة تماماً في
حياتنا، عوضاً عن أدوات التسلية والألعاب الصناعية الحديثة،
وانحصرت مُتَع طفولتنا في ألعاب بدائية من إبداعاتنا، وسماع
القصص والأساطير من أفواه الأمّهات والجَدات وكبار السنّ،
علماً أنّهم أُمّيات لا يعرفنّ القراءة والكتابة، إلا أن محبتهم
وعطفهم علينا كان دافعهم لسرد الحكايات المسلية والهادئة،
فتبهجنا متعة القصص، وتقذح في رؤوسنا أجمل الخيالات.

اصطحبني جَدِّي لِأُمِّي فِي أَحَدِ أَيَّامِ الرَّبِيعِ الدَّافِئَةِ إِلَى الْبَرِيَّةِ،
وَاعْتَقَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَغَ التَّسْعِينَ مِنَ الْعُمُرِ، فَقَدْ عَاشَ مِئَةَ عَامٍ، وَكُنْتُ
يَوْمَ وَفَاتِهِ طِفْلاً، مَرَرْنَا بِشَجَرَةِ الزَّرْعُرُورِ، زَهَوْرَهَا كَالثَّلَجِ، وَرَاحَتِهَا
عَطْرِيَّةٌ نَفَازَةٌ، تَحُومُ عَلَيْهَا أُسْرَابُ مِنَ النُّحْلِ، وَبَعْضُ الْفَرَاشَاتِ
وَالْحَشْرَاتِ، وَقَفَ جَدِّي تَحْتَهَا وَبَعَكَازَهُ الَّذِي يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ هَزّاً
فَرَوْعاً، فَسَقَطَ مِنْهَا نَوْعٌ مِنَ الصَّرَاصِيرِ، وَطَارَ بَعْضُهَا، فَالْتَقَطْتُ لِي
اِثْنَيْنِ مِنْهَا. كَانَ لَوْنُهُمَا أَخْضَرَ لَامِعاً، وَإِذَا وَقَعْتَ عَلَيْهِ أَشْعَةُ الشَّمْسِ
يَنْعَكِسُ عَنْهُ لَوْنٌ ذَهَبِيٌّ مَحْمَرٌّ، أَخْبَرَنِي جَدِّي أَنَّ هَذَا اسْمُهُ «مَلِيحٌ»،
وَعَلَيَّ أَنْ أَرْبِطَ رِجْلَهُ بِخَيْطٍ، وَأَضْعُهُ فِي الشَّمْسِ، كَيْ يَفْرُدَ جَنَاحِيهِ
وَيَطِيرَ، فَيَدُورُ مِنْ حَوْلِي وَأَنَا مُمْسِكٌ بِالْخَيْطِ، كَانَتْ تِلْكَ أَجْمَلُ
هَدِيَّةٍ فَرَحْتُ بِهَا فَرِحاً كَبِيراً، وَاحْتَفَظْتُ بِهَا فِي عِلْبَةِ كَبْرِيتٍ فَارِغَةٍ،
وَخَبَّئْتُهَا فِي جَيْبِي بِكُلِّ حِرْصٍ وَعَنَاقِيَّةٍ، لِأَلْهُو بِهَا لَاحِقاً.

لَمْ تَخُلْ السَّنَوَاتُ الْأُولَى مِنْ طِفُولَتِي فِي التَّسْلِيَةِ وَالْمَتَعِ
الْفَطْرِيَّةِ، كَاللَّعْبِ مَعَ أَتْرَابِي أَطْفَالَ الْحَارَةِ، نَرْكُضُ وَنَلْعِبُ الْغَمَايَةَ
وَالزَّقِيطَةَ. كَانَ حُضُورُ سَهْرَاتِ الْأَعْرَاسِ فِي سَاحَةِ الْبَلَدَةِ الْوَحِيدَةِ
تَنْبِيرُ جَنَابَاتِ قَلْبِي بِالْفَرَحِ، وَكُنْتُ فِي صَغُرِي أَجْلِسُ مَعَ النِّسَاءِ عَلَى
سَطُوحِ الْمَنَازِلِ الْمَطْلَّةِ عَلَى السَّاحَةِ، الَّتِي تَجْرِي فِيهَا الْإِحْتِفَالَاتُ
وَدَبَكَاتُ الرِّجَالِ وَالْعَتَابَا وَالْمِيجَانَا عَلَى أَنْغَامِ الشَّبَابَةِ (النَّايِ)
وَالطَّبْلَةِ، كُلُّهَا تَتَبَّرُ شَجُونِي. كَانَتْ السَّاحَةُ تُنَارِبُ (الْلُوكَسَاتِ) الَّتِي
تَعْمَلُ عَلَى الْكَازِ لَيْلاً، وَيَعْلُو فِيهَا صَوْتُ الْغَنَاءِ وَالرَّقْصِ، أَرْقُبُ
ظِلَالَهُمْ تَتَحَرَّكُ عَلَى جُدْرَانِ الْبُيُوتِ الْمُحِيطَةِ، فَتَرْتَسِمُ أَشْكَالاً
كَالرُّسُومِ الْمُتَحَرِّكَةِ، حِينَهَا أَشْعُرُ أَنَّهَا مِنْ عَالَمٍ آخَرَ، يَا لِحِمَالِ

أهازيجهم التي لم أكن أفهم معانيها، وصوت الشبابة والطفلة
بإيقاعاتها، فتحرك بداخلي مشاعر الفرح والسرور والنشوة.

كانت براءة الطفولة الغضة تدفعني إلى اللعب مع بنات الخالات
وأطفال الحارة وبناتها، فنختبئ في زوايا الحارة وداخل البيوت، في
مداعبات بريئة، مما يُضفي السعادة على قلوبنا الصغيرة، ويمرّ
الوقت دون أن نشعر بالجوع والعطش أو حتى الرغبة في العودة
إلى بيوتنا، لا تخلو ساعات لهونا الطفولي من مشاكسات انتقامية
من البنات، فتتلف ألعابهنّ، ونعبت بما يخبئته، في سداجة بلهاء، لا
زلتُ نادماً على اتلاف عروس (لعبة) من ريش الطيور، صنعتها
فتاة بيديها الصغيرتين، فقد غافلتها وقمت بإتلافها، ورأيتها تبكي
بدموع غزيرة، وبصمت حزين، حتى بأن أثر دموعها على صفحة
وجهها الأبيض، فأحدثت مجاري دموعها مع الغبار ممرات
بيضاء، تلك الصورة لا تُمحى من ذاكرتي أبداً.

تثير تلك الأمسيات الصيفية اللطيفة في نفسي غبطة وسروراً،
كما تثيرها تلك السماء الزرقاء الصافية، أتأمل نجومها المتلألئة
في ظلام حالك، لا قمر ولا كهرباء، سماء تزينها نجوم متعددة في
لمعائها، على امتداد الخط ما بين الشمال والجنوب، أرى نجومًا
كذرات التبن المتناثرة، في جمال فريد، يدعو للتفكير، ويحلّق فيه
الخيال.

عشت لحظات مستلقياً على (جنبه) محشوة بقطع من القماش
البالي، بجانب البيدر، محملاً في السماء، محاولاً عدّ النجوم

السباحة في بديع السماء، ومحاولاً الولوج إلى أعماق ذاك العالم الذي يثير في أسئلة لا تنتهي، وأرضى بإجابات أمي، إذ قالت: هذه طريق التبانات (مجرة درب التبانة)، ولم يخطر في بالي أننا في أحد أطرافه.

بعد أن شبت تأملاً، وعجز عقلي عن التفكير، انقلبت على جانبي، وقبل أن يتسلل النوم إلى عيني، أرى عن بعد حشرة تضئ وتنطفئ وتلمع بلون النجوم. سألت أمي، فقالت: هذه فراشات تسمى (سراج الغولة). كنت حاولت القبض عليها، فتختفي حيناً وحيناً أجدها أمامي، أمسكت بإحداها، فرحت كثيراً، مؤخرة جسمها يضئ بلون فسفوري، أنارت راحة يدي، لا أعلم من سمّاها بسراج الغولة؟ ولم يعجبني هذا الاسم، إنها من أروع ما رأت عيني، حينها شعرت أنني قد أمسكت بإحدى نجومات السماء.

النساء والبنات من ألطف الكائنات، أقول هذا عندما كنت أسمع منهنّ الإطراء ومعسول الكلام، وما أسمعته من ضحكاتهنّ العذبة، تأتي مجموعة منهنّ وقت العصر إلى البيدر بملابس ملونة ومناديل بيضاء، يتحلقن حول غمار القمح قبل بسطه ودرسه، يقمن باختيار أطول الأغمار وأنسبها، ليفصلن القش الطويل عن سنبله، ويعملن منه حُزماً من السيقان الذهبية، تحتضن كل واحدة حزمته، وتحملها إلى بيتها، ويصبغهنّ بصبغات تراثية متعددة الألوان، كما يقمن بنسجها وصنع الأطباق والسلال والجونة وأدوات حفظ الخبز والزيب والسمسم وما يلزم البيت.

كان السهر مع كبار السنّ له ميزات وذوق مختلف، أصحاب العكازات، غالباً ما تكون العكازة زينة وليس ضرورة، يجتمعون في أحد البيادر التي تخصّ أحدهم، ولحسن حظّي أنني كنت أنام في مقشاة قريبة منهم، فانتهاز الفرصة للانضمام إليهم دون استشارتهم، وأساعدهم في صنع الشاي بالميرمية على الحطب، ويحتسون الشاي، المحلّى زيادة، بتلذذ، وكلّ رشفة لها صوت مميز، وتدور أحاديثهم الشيقة عن مغامراتهم العاطفية، ولا يتورعون من التشبيب بجمال فلانة وشبق علانة، وعن بطولاتهم مع النساء، التي تفوق مطاردتهم للوحوش والضباع، ومقابلتهم للجنّ بأشكاله المتنوعة، منهم ذكور بشعين، ومنهم إناث جميلات جداً، ويعودون يتلمظون بسرود مغامراتهم مع النساء، كلّ منهم يتباهى بخبراته الفريدة في العلاقات الحميمة، كنت أصغي لهم باهتمام، وأشنّف آذاني لأحاديثهم، ويتهايأ لي أنني أفهم ما يقولون، وإن كانت ألغازاً مشفرة، كي لا أفهمها؛ لأنّي صغير، أو يلهوني بصبّ الشاي وإضافة الميرمية والسكر.

لا أزال أذكر ذلك الصوت الشجي الحنون يصدح أحياناً بفرح وبهجة، وأحياناً بحزن عميق، وفي كلتا الحالتين يداعب تلافيف القلب والوجدان، ينطلق من شبابة القصيب، يتناهى لسمعي من أحد البيادر القريبة، أسعى إليه لأجد مجموعة من الشباب يتميلون مع صوت الشبابة، في غناء أحدهم بصوت شجيّ من المأثور الشعبي، ومن المواويل المتوارثة عن الأجداد، ويتبعه الآخرون بالميجنا وترديد اللازمة، عندما يمتلك أحدهم الشجن،

وتجود قريحته بشيء جديد، وغالبا ما يكون وصفاً لمعاناته من
عشق إحدى الفاتنات، تلمح في وجوههم الوجد، وكلّ منهم
يتخيّل أنّ ذاك الوصف ينطبق على امرأة تعشعش في أعماق قلبه،
فتنفرج أساريره، ويكاد أن يطير فرحاً، لا تخلو تلك الأغاني من
مبالغات محبة، تثير في نفسي خيالات لا تصدق، كقولهم:

«مُرِّي ع قبري واندهي باسمي

يحين عظامي ويتحرك جسمي»

عندما نضجت سنابل القمح وهي خضراء وقبل جفافها، كنت
وآبائي نعمل الفريكة، ونحصد القمح، ونعمل منه باقات، ونشعل
النار بالحطب ونشويها، ثم نفرکہا ونستخرج منها حبوب القمح
المدخنة، بعضها يؤكل طازجاً وبعضها الآخر يجفف ويستعمل
في الطعام بطريقة الأرز المفلفل أو الشوربات، هذه ومضة من
النشاطات الموسمية المسلية المفرحة.

ومضة أخرى، كانت تسعدني، وقد أثّرت في مسيرة حياتي، أيام
قطف الزيتون في منطقة اسمها الباطن، وهي قرية من نبع ماء
يحمل الاسم نفسه، وفي الموقع صفوة عراق صخرية، حيث حفر
الأجداد فيها مكاناً لعصر الزيتون، وهي عبارة عن قناتين يعصر
الزيتون بينهما، ويصبّ الزيت في حفرة صغيرة تتسع للتر واحد،
ونجمع ما مقداره ثلاثة كيلوغرامات من الزيتون الناضج المنتخب
من أحسن نوع، فيتم حرقه في نار الحطب، وهرسه بواسطة حجر

كبير أسطواني الشكل، ومن ثم عصره باليدين بعد إضافة حصوات ساخنة إليه لامتصاص الماء منه والمحافظة عليه دافئاً، كي يسيل منه زيت صافي داكن اللون، يتجمّع في الحفرة الصخرية ويسمى البدودية، ويتم نشله بفنجان قهوة وملء الصحون به لاستعماله مع الإفطار، الذي يجتمع حول مائدته كلّ العائلة من رجال ونساء وأطفال، ومن حضر من المعاونين في قطاف الزيتون.

يجلس الجميع في فسحة منبسطة من التراب الأحمر الناعم بين أشجار الزيتون، وأمامهم صحون البيض المسلوق والجبن والزيتون المكبوس والبندورة والبصل، والأهم من هذا وذاك صحن زيت البدودية السالف ذكره مع خبز الطابون الطازج وإبريق الشاي المحضّر على الحطب بسكر زيادة، يتبع ذلك استراحة قصيرة لشرب الشاي ولف سجائر الهيشة للتدخين.

أما الشرارة التي أذكت نفسي شعلة محبّة الرسم، والتعلّق به، وأثرى مسيرة حياتي، حدثت في تلك الاستراحة، حيث أنّ خالتي عزيزة المرأة الذكية التي كانت لا تقرأ ولا تكتب لكنها بارعة في تأليف الأغاني الشعبية والتطريز والحياكة والخياطة، قد أخذت كرتونة بيضاء كانوا يضعون الخبز عليها، وبواسطة عود زيتون محروق طرفه لدرجة التفحّم، رسمت صورة لطفلة (عروسة) بشكل بدائي، بفستان عليه بعض عناصر التطريز الفلاحي، وقدمتها لي قائلة: «خذلك هالعروس». أحببتها كثيراً، وتعلّقت بها، واحتفظت بها طويلاً، تلك كانت البداية لإغوائي بالفن التشكيلي.

أصعب الكوابيس وأكثرها إيلاماً



قد بلغت السادسة من عمري، وكنت أكبر إخوتي لأبي، فقد كنت مجبراً على تحمل أعباء تفوق عمري بكثير، كان أسهلها احضار أغراض لأمي من بيت جدتي ومن السوق، وأصعبها تلبية طلبات أبي واللاحاق به إلى الحقول، لا أستطيع رفض أي أمر من أوامره، تحت هاجس الخوف وعدم رضاه وعواقب غضبه، فيخفق قلبي وتزايد دقاته، حتى أصاب بالتعرق أحياناً، وأتسمّر

مكاني إذا غضب، وأخشى الهروب من أمامه، حتى لا يتضاعف شطط غضبه.

وفي ضحى يوم من أيام الربيع المشمسة، ولم أدخل المدرسة بعد، طلبت مني أمي أن ألحق بأبي إلى أرض لنا تدعى (خلة كشه)، وأقود الحمار، تلك المهمة التي كانت ترتعد لها فرائصي، هذا الحيوان الذي أجده اليوم مسالماً وديعاً، حتى أصبحت أشفق عليه، وأتأمله كثيراً لقاء صبره على ظلم الإنسان له، وإذعانه لكل ما يتعرض له من التعسف، وكنت في طفولتي أحسبه شرساً متغطرساً، عظيم البنية، فائق العناد والقوة، متمرداً نزقاً، يتصرف كما يحلو له، دون أن يكثرث بمن حوله وعليه، كنت أجد مرافقته من أصعب ما يمكن أن يخطر على بالي.

كان يوماً مشؤوماً أن أقود الحمار إلى الخلاء، إلى حيث أبي، بيد أمسك رسنه، وباليد الأخرى أمسك عصا أعطتني إياها أمي، لعلها تساعدني في مهمتي، وما أن وصلنا إلى الطريق الصخري الضيق، وعلى جانبيه بعض أشجار الصبار الشائك، حتى بدأ ذاك الحيوان بالامتناع عن الحركة، وتوقف في منتصف الطريق، وكلّما حاولت تهديده بالعصا يزمجر ويشمص ويشهق وينهق وينطلق بأقصى سرعة، ولم أستطع تثبيته، ووقعت على الأرض، وسحبني مسافة قصيرة، فانفلت رسنه من يدي، وسقطت العصا من يدي الأخرى داخل شجرة الصبار الشائكة، ولم أجدها، وأكملت طريقي إلى حيث أبي دون الحمار والعصا، ووصلته باكياً مرتعداً

خوفًا، سألني: «وين الحمار، وين العصا؟ واستشاط غضبًا وانهاه على رأسي ضربًا، ولم أدِرَ ماذا جرى أثناء تلك الميمعة، وهل يده أصابت عيني أم أنني وقعت على الأرض من شدة الصفعات؟ فتأذت عيني، سامحه الله، هذا قدرني لا أُلومه، تصرفه كان خارجًا عن إرادته، لاحظ أبي أن أذى قد لحقني، فأمرني أن أعود إلى البيت، وفي طريق عودتي شعرت بسائل دافئ يسيل من عيني اليمنى، لمستته فإذا هو دم أحمر، سال على خدي، ولوَّث قميصي.

وصلت البيت، ولا أذكر ما حدث لأُمِّي عندما رأت دمي، ولا أذكر ما حدث بعد ذلك، وكل ما أذكره أن جدتي لأُمِّي -الحاجة شفيقة- أخذتني إلى مشفى العيون، في مكان يدعى البقعة على أطراف القدس، وأطباء المشفى من الأجانب إذ كنت أسمعهم يتكلمون بلغة غير العربية، وقد ادَّعينا أنا وجدتي أن سبب إصابتي هو سقوطي فجأة، بناء على وصية أُمِّي وأبي.

اجتمع أكثر من طبيب عيون وفحصوني، ولا أعلم ماذا أخبروا جدتي، شعرت باليأس في أعينهم وعينيها، مع ذلك أعطوني إبرة في جانبي، وقطرات لعيني، وطلبوا من جدتي حضوري يوميًا لأخذ إبرة، وإعادة فحصي ثانية، مما استدعى أن أقيم وجدتي عند عائلة مقدسية، لها صلة قرابة من بعيد، كنت معصوب العين، وأسمع النساء في البيت ترثي حالي، وتشفق عليّ، ولا أدرك ما يدور حولي، سوى وخز إبرة في الصباح والمساء، وأتلقي قطرة عين حارقة.

تأخذني جدّتي عصراً إلى المسجد الأقصى لتصلّي، وأنا ألعب في
الساحات ما بين المسجد وقبة الصخرة المشرفة، تحت شجرات
عالية، انتظر وحيداً بين صلاة العصر والمغرب، ثم تأتي جدّتي
وتسحبني من يدي للنوم عند تلك العائلة، التي أكرمتنا أيّما كرم.
عُدنا إلى سلفيت معصوب العين، نحمل قطرات العين فقط،
سمعت جدّتي تهمس لأُمّي أنّ الأطباء يفضلون إزالة الجزء المتأذي
من عيني، كي لا يحدث الأذى تأثيراً سلبياً على الأخرى، لكنها
رفضت؛ لأن تلك مسؤولية لا تستطيع حملها.

عند إزالة العصبه عن عيني ظهرت سحابة بيضاء على شكل
خط طولي، وعلى قطر قزحيته، لم أكن أرها، وكلّما اعترض
طريقي شخص من أهل قريتي يتفحص عيني، ليتأكد من الخبر
الذي انتشر بين الناس، وإذا صحبت أُمّي لزيارة الخالات أو أحد
الأقارب شقّ على عيني يتفحصها، يغطي عيني السليمة، ويسألني:
ماذا ترى؟ وكم عدد هذه الأصابع؟ مما سبب لي حرج، فأدّعي أنّي
تمام، برغم أنها خيالات فقط.

لم يكن يؤلمني ذلك نفسياً في حينه، حيث لم أدرك انعكاسات
ذلك على حياتي، إذ لم أشعر بتغيير يُذكر، ألعب وألهو وأركض
مع الأطفال، كما كنت سابقاً، لعل ذلك من لطف الله بي، وبقيت
أروي لمن يسألني ما لقنني إياه أبي وأُمّي: إنّ ما حدث كان بسبب
سقوطي، فأصاب عيني غصن تدلّى على الأرض، والله وحده
يعلم.

بقيت لا أبالي بما حدث إلى أن دخلت المدرسة في السابعة من عمري، وأصبحت تلك المأساة تؤثر على نفسيّتي، وبشكل يزداد عمقاً سنة بعد سنة، ويتهاوس معلّمو المدرسة، وهم من أهل قريّتي، وتربطهم صلة قُربى بأُمّي، فتبدو عليهم علامات الحزن والشفقة، والأكثر حرجاً تعليقات أترابي في المدرسة، ومَن هم أكبر مِنّي سنّاً، وينعتوني بأوصاف وكلمات لم أسمعها من قبل، كانت تؤذيني جداً.

هكذا ابتدأتُ أشعر بنقص لم أعره اهتماماً فيما مضى، كنت من الطلاب المتميزين في الصف، خصوصاً في الرياضيات والعلوم، وأخجل من المشاركة في نشاطات المدرسة، واختار الجلوس في أقصى الزاوية اليمنى للصف، وفي الجانب الأيمن للمقعد الثلاثي بجانب الشباك، لعلني أشعر أن ذلك يبعدني عن تعليقاتهم المؤذية، وإن كانت بريئة.

ومع مرور الوقت أصبحت كثير الحركة، ويقول المعلمون أني ذكي، لكنني شقيّ مشاكس، لعل سبب ذلك ردة فعل، ومحاولة لإثبات الذات، ورد الإساءة بأكبر منها، ولم يدم الحال طويلاً حتى انتقلت إلى الصفوف العليا، فانقلب حالي، وأصبحت هادئاً جداً، وأغضّ الطرف خجلاً، مما أضفى على شخصيتي نوع من الكآبة الملحوظة.

تأسرني محبتي للرسم والنظر إلى الصفحة البيضاء، مذ كنت في الصف الأول، وأعشق الكتاب الذي يحتوي على الرسومات،

وأذهب مبكراً إلى الصف الثاني؛ لأن أستاذهم يرسم لهم رسومات على اللوح بطباشير ملونة، فأسبق عريف الصف لاستمتع بمشاهدتها، قبل أن يقوم بمسحها، وزاد تعلّقي بالطبيعة، وبالأشجار والصخور، بألوانها وظلالها، وغدوت أذهب للبرية كثيراً، ووحيداً في أغلب الأوقات، أجوبُ الجبال والوديان، وأتسلل بين أكمات البلوط والعرقد وأشجار الزيتون الروماني، لتأملها دون حرج أو خجل، فهي ساكنة متعاطفة، تحتضني بمودة دون تعليق أو شفقة مقية، متحاشياً أن أذهب لأي مكان آخر فيه أبي أو يمر منه، وأميز صوت نهيق حمارة عن غيره، فأنزوي عن أي طريق ممكن أن يسلكه، وإذا رأني أتعرض للتقريع، أقول في نفسي: «لما أكبر، والله لأهرب إلى مكان لا يعرفه، ولا يعرفني فيه أحد».

كان أبي يصطحبني وأخي الأصغر نايف أيام العطل الصيفية للعمل في أرض زيتوننا في الجبال، ونساعده في تنظيف الأرض من الحجارة، ويقوم بقلع الصخور التي تعترضه أثناء الحراثة، ومن ثم تكسيرها، وأنا وأخي نتكفل بنقل ما نستطيع حمله إلى السناسل (الجدران الاستنادية)، ويقوم ببنائها أو إصلاح الأجزاء المنهارة منها، وأحياناً نظف الأرض من الأشواك والنباتات البرية والأغصان الجافة، ونجمعها في مكان واحد، فيقوم أبي بإشعال النار فيها، نبدأ العمل من الصباح الباكر وينتهي عند مغيب الشمس، كنت أحسب ما تبقى للمغيب بعدد أصابع اليد، وأجمل أوقات العمل ساعة أن تلحق بنا أمي، وقد حملت بعض الطعام،

بوجودها نشعر بالأمان والحنان، إذ تلاطفنا وتساعدنا، وترجو أبي
أن لا يثقل علينا أو يتعبنا.

يجلس أبي للغداء، وقد بلل قميصه العرق، واختلط التراب
بعرق يديه، فأقوم بصبّ الماء على يديه، ويعدّ صحن السلطة
المفضل لديه، من البندورة والبصل وزيت الزيتون والملح والماء،
وبعد تناول طعام الغداء تغادرنا أمّي، وهي تحمل على رأسها حزمة
من حطب الزيتون، نبقي نتابعها أنا وأخي حتى تغيب عن ناظرينا،
ثم نعود للعمل، وحينها نشعر بالوحشة وقلة الحيلة والصبر.

كنت وأخي نتلقى توبيخ أبي، وأحياناً الضرب المبرح، إذا
ارتكبنا خطأً أو تسببنا بخدش إحدى غرسات الزيتون الجديدة،
كنت الأكثر تعرضاً للعقاب؛ لأنني الكبير. أحمل إبريق الماء الذي
ملأته من الينابيع التي مررتُ بها إلى موقع عملنا، فإذا صادف أن
تعثرتُ في حصي الوادي المستديرة الملساء، وهذا ما حدث في
أحد الأيام، وانكسر إبريق الفخار ينالني منه عقاباً قاسياً متبوعاً
بسيل من الشتائم والتفريع، حتى أختنق بدموعي، وجفاف حلقي.

براءة الطفولة وحُسن الصديق (رفقة الطفولة)



لعل توفر بعض الفراغ مع فقدان وسائل الترفيه وضيق البيوت
وانشغال الأهل عنا وحاجة أجسامنا للبروتين الحيواني الذي يندر
وجوده في طعامنا كان الدافع الخفي الذي جعل صيد العصافير
أكبر متعة وأكثر رغبة في طفولتي.

كنّا (شلة) من الأولاد، أكبرنا لا يزيد عمره عن عشرة أعوام، جمعتنا ظروف حياة متماثلة، بيوتنا صغيرة، وإمكاناتنا متواضعة، وأهلنا مشغولون بأرضهم وزروعهم، ولم تسعنا بيوتنا، فوسعتنا جدر البلدة، وسفوح تلالها، وينايع مياهها. انشغل الأهل بأعمالهم، وسقطنا من حساباتهم، فهم لا يعلمون بجوعنا وعطشنا، الأطفال الصغار فقط هم من يحظون باهتمامهم، أما نحن الكبار نعتمد على أنفسنا، حسب اعتقادهم، حالنا حال الأسر الريفية، ينجبون الكثير، ويشقون في تربيتهم.

أصبحت (الشلة) أقرب لي من أهلي، أقضي معهم جلّ النهار، أحدهم قد أصيب بشلل الأطفال صغيراً، مما ترك في رجليه قصوراً ملحوظاً، رغم ذلك كان بارعاً في تسلق الطرق الوعرة، والسلاسل الجبلية العالية، فهو بطيء الحركة، لكنه لا يهدأ أبداً، ولأنه أكبرنا عمراً كان جاداً، يأمرنا فنطيعه، ينظر علينا في مهارته بنصب فخاخ الطيور، والطعوم المناسبة لكل نوع من أنواع الطيور، ويقوم بذبح العصافير، فهو من يمتلك (موس كباس) مسنون، ويقرر وجهتنا كل يوم، وهناك زميل ثان، قصير القامة، يتيم الأم، أبوه شيخ كبير، فقير الحال، أبيض مستدير الوجه، ذو عينان زرقاوان، وشعر أملس محمر، هو أيقونة المجموعة بشقاوته وحركاته المضحكة ونعومة صوته، إذا أكل كان يغمض أحد عينيه بالتبادل مع عينه الأخرى، أطلقنا عليه لقب ال «بسّه» (أي القطة)، فلازمه اللقب، وأصبح معروفًا به طيلة حياته، وزميل ثالث كان صاحب بنية قوية، أحمر الوجه، تتملكه الطيبة، لكنه للأسف مصاب بالصرع، وأحياناً

يسقط مغشياً عليه، فنسرع إلى أقرب نبع ماء، نرش الماء على وجهه ليفيق، للأسف مات يافعاً، رحمه الله ، أما زميلنا الطيب اللطيف عبد الفتاح فقد كان أول من حرّك في داخلي الرغبة في صيد العصافير، وهو أول من رافقته بهذه الرياضة الجسمية والروحية، ولا أنسى أبداً أول عصفور اصطدناه سوياً، وفرحي الكبير بهذا الصيد، عصفور رمادي بذيل أحمر، كنّا نطلق عليه اسم (الشحتوت)، وقد اصطاده عبد الفتاح، وهو بحاجة إليه أكثر مني، فقد آثرتي على نفسه، وقدمه لي لفرحي الغامر. كانت هذه مجموعتي الدائمة أو الشلّة، وأحياناً ينضم إلينا آخرون دون مواظبة يومية، وكلهم يكرهون المدرسة والدراسة، ويلعنون المعلمين والمدير إلا أنا، فلم اتفق في كرههم، ولا أعلن عن رأيي، أحدث نفسي قائلاً: لا لن أترك المدرسة، وسأكمل تعليمي، وأدرس في الجامعة، وهذا ما حدث، ولم يجتز أحد منهم المرحلة الثانوية سواي.

كنّا نصطاد العصافير بالفخاخ التي نصنعها بأيدينا، ندفنها في تراب ناعم تحت الشجر، وأحياناً نصبها على بلاط حجري فوق الشجرة، نضع فيها طُعماً، وهو عبارة عن دودة أو حشرة نستخرجها من الأرض، نجلس متخفين نرقبها، نركض كل حسب سرعته، ينتفض الفخ ويقع العصفور بين فكيه، نمسك رقبته، نقبضه حياً، وإذا أهملنا مراقبة الفخ نجده مختنقاً، فلا يضرنا أمره، نذبحه ميتاً أو حياً، وكثيراً ما نذكر اسم بالله عليه، ونقطع رأسه، ونسلخ جلد رأسه، وأشجعنا يأكله نيئاً، وعادة ننتف ريشه (نمعه)، وكلّما جمعنا اثنين أو ثلاثة منها نعود إلى البيت فرحين

بصيدنا، وتقلبه الأمهات بكثير من الزيت، ونأكله بشرهة، وبكثير من الخبز، أما العصفور القويّ الحيّ فقد كنّا نتباهى بصيده بين الأطفال المدللين، يشتريه أحد آبائهم بقرش ليفرح ابنه. كان بعضنا بارع في صيد العصافير باستخدام الشعبة (النقيفة)، هؤلاء كانوا الأطفال الصقور الذين يفخرون بأنفسهم، وهذه أعظم متع طفولتي، وأقربها لنفسي، ولم أسمع من تلك (الشَّلّة) أي تعليقات تؤذيني، ولم أذكر أننا اختلفنا أبداً، تجمعنّا طبقة اجتماعية واحدة، ومحبة فطرية واحدة، لا يشوبها أي نوع من الأنانية.

لازمتني تلك الهواية أيام دراستي حتى أنهيت الصف التاسع، رغم معارضة أبي، وتهديدته المستمرة بأقصى العقوبات إن رأى معي فخاً، إلا أنني أصبحت مدمناً عليها، وأمارسها سراً، وأخفي الفخاخ في البرية، أخرج مبكراً إلى المدرسة، ولا أسلك طريقي المعتاد، بل أسلك طريق الحقول، حيث أنصب الفخاخ قبل الطابور الصباحي، ثم أعود إليها بعد انتهاء الدوام المدرسي، لأجد في بعضها عصفوراً ميتاً أو حيّاً، أو جردوناً أو سحلية لا زالت على قيد الحياة، أو سحبت الفخ إلى مكان بعيد، وأحياناً افتقدتها نهائياً، حتى أصبحت في الصفوف الثانوية، وسافر أبي إلى البرازيل، واشترت أمي بارودة (خرطوش) صيد بعد إصراري ورجائي لأيام طويلة دون ملل أو كلل، ورضخت لطلبي، واشترته بمبلغ كبير (عشرة دنانير)، تحوشتها من عملها على ماكينة الخياطة، التي كانت تقضي معظم وقتها جالسة تخطط الملابس للجيران، وتقوم بتكليف وتصغير الملابس المستعملة، لتصبح سراويل أو

قُمْصَانًا لِي وَلَا خَوْتِي، وَلَا أَذْكَرَ أَنْنِي لَبَسْتُ مَنَامَةً (بيجامة) إِلَّا بَعْدَ أَنْ مَاتَ أَحَدُ الْجِيرَانِ، فَقَصَّصْتُ (بيجامته)، وَلَبَسْتُهَا فَرَحًا.

كَانَ صَدِيقِي فَارَسٌ قَدْرِي قَرِيبًا إِلَى نَفْسِي أَيَّامَ الْمَدْرَسَةِ، نَتَقَاسَمُ الْعُمَرَ وَالصَّفَّ وَالْحَارَةَ وَصَلَةَ الْقَرَابَةِ، فَأُمُّهُ ابْنَةُ خَالَةِ أَبِي، وَنَعِيشُ ظُرُوفَ حَيَاةٍ وَاحِدَةٍ، رَغْمَ أَنَّهُ لَمْ يَهْتَمَّ بِصَيْدِ الْعَصَافِيرِ مِثْلِي، لِإِنْشَاغَالِهِ بِمُسَاعَدَةِ أَخِيهِ الَّذِي يَكْبُرُهُ عُمَرًا، وَكَانَ أَخُوهُ كَفِيفًا، وَيَدْرُسُ فِي مَدْرَسَتِنَا، وَفَارَسٌ هُوَ الْوَحِيدُ الْقَادِرُ عَلَى مُسَاعَدَتِهِ فِي نَشَاطَاتِهِ الْمَدْرَسِيَّةِ، وَكَانَتْ هَوَايَاتِهِ الْمَوْسِيقِيَّةُ تَسْعِدُنَا، كُنْتُ أَشْتَاقُ لَهُ جَدًّا، وَأَحْرَصُ عَلَى مُتَابَعَةِ دُرُوسِنَا مَعًا، وَعَرَّفَنِي فَارَسٌ عَلَى جَارِهِ، الَّذِي تَرَكَّ الْمَدْرَسَةَ، يَدْعَى فَوْزِي، كَانَ لِي مَعَهُ حِكَايَةٌ فِي مَسِيرَةِ حَيَاتِي، سَيَأْتِي ذِكْرُهَا لَاحِقًا، جَمَعَتْنِي عِلَاقَةُ الْمَحَبَّةِ وَالْمُودَةِ بِفَارَسٍ مَدَى الْعُمَرِ، مَهْمَا فَرَّقَتُنَا الْأَيَّامُ.

كُنَّا مَجْمُوعَةً أَصْدِقَاءَ نَسْتَغْلُ فُرْصَةَ انْشَاغَالِ الْأَهْلِ بِأُمُورِهِمُ الْحَيَاتِيَّةِ، نَخْرُجُ مِنْ بَيُوتِنَا مِنَ الصَّبَاحِ الْبَاكِرِ إِلَى الْبَسَاتِينِ، نَأْكُلُ مِنْ ثَمَارِ الْأَرْضِ مِنَ الْفَوَاكِهِ الْمَتَوَفَّرَةِ صَيْفًا وَالْخَضِرَاوَاتِ شَتَاءً، نَلْعَبُ وَنَلْعَبُ بَكْرَةً مِنَ الْقِمَاشِ (الشَّرَائِطِ)، وَنَصِيدُ الْعَصَافِيرَ، وَنَلْعَبُ الْجُلُولَ، وَكُلُّ لَعِبَةٍ لَهَا مَوْسَمٌ مُعَيَّنٌ، وَلَا نَعُودُ إِلَى بَيُوتِنَا إِلَّا مَسَاءً أَوْ عِنْدَمَا يَقْرَصُنَا الْجُوعُ، نَتَنَاوَلُ رَغِيفَ زَيْتٍ وَزَعْتَرٍ، ثُمَّ نَعُودُ سَرِيعًا إِلَى الْبَرِيَّةِ أَوْ نُمْضِي الْوَقْتَ عِنْدَ صَدِيقِنَا الْمُقْعَدِ، وَلَا أَعْرِفُ سَبَبًا لِمَرَضِهِ، كَانَ يَقِيمُ فِي عَرِيشَةٍ عَلَى سَطْحِ بَيْتِهِمْ، نَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهِ مُقَابِلَ أَنْ يَصْنَعَ لَنَا الْفَخَاخَ، فَقَدْ بَرَعَ فِي صِنَاعَتِهَا، نَقْضِي وَقْتًا مُمْتَعًا

بصحبتة، وهو يتفنن في صناعة الفخاخ، وسيارات الأسلاك، يبهرننا
بإتقانه، وأمه تشجعنا على البقاء عنده، ونكرر زيارته يومياً، وتقدّم
لنا الشاي حرصاً على تسليّة ابنها، ليبقى متفاعلاً مع أترابه، ولا
يُصاب بإكتئاب، كنا نشترى منه الفخ الصغير بـ (تعريفة)، والفخ
الكبير بقرش، والسيارة بخمسة قروش، ونحمل له ما جنيناه من
الفواكه والخضار، سواء كان حلالاً أم سرقة، نحملها هدية له في
كل زيارة، ونأخذ معنا في بداية الربيع باقة من النرجس، فيطير بها
فرحاً.

أُمِّي فِي مَسْتَشْفَى الْأَشْرَفِيَّةِ لِلْأَمْرَاضِ الصَّدْرِيَّةِ



كنت أيامها قد دخلت المدرسة في الصف الأول الابتدائي، لم
أنس ولن أنسى يوماً أثناء قطف الزيتون، حيث كنا نلحق بأهلنا
لمساعدتهم في نهاية دوام المدرسة أو أيام الإجازة الأسبوعية، أن
أُمِّي كانت فوق إحدى زيتوناتنا قرب وادي الشاعر، وكان الوقت

ما بين الظهر والعصر، مرهقة وممتعة اللون، وهي ضعيفة البنية، فأصابها نوبة من السعال الشديد، والكل مشغول في قطاف الزيتون دون اكتراث، وأقف تحت الشجرة أبصرها متوسلاً بشفائها، ولم تنته موجة ذاك السعال إلا والدم ينزف من فمها، وسال حتى بلل جزءاً من ساق الشجرة، وبعد أن هدأ السعال تابعت أُمِّي عملها، ولم أعر انتباهاً لما تعانيه، نظراً لصغر سني، ولم أخف إلا عندما رأيت الدم يخرج من فمها، تكررت حالتها عدة مرات، مما حدا بأبي أن يأخذها إلى طبيب يدعى نصفت كمال في نابلس، وبعد فحصها أخبره أنها تعاني من (السل)، وقد تمكن منها تماماً، سمعت أبي يسرّ الخبر إلى خالتي، إن (فشّة) رئة أختك مهترئة، وأوصى الطبيب بعلاجها في مشفى الأمراض الصدرية في عمان، وهو المكان الوحيد المؤهل لعلاجها.

رافقها أبي إلى عمان، وتم ادخالها فوراً للعلاج، وعاد أبي، وبقيت وأخي وأختاي الصغيرتان في رعاية عمتي، وتقوم خالتي بإعداد الطعام، وتفاقت أمورنا إلى ما هو أسوأ بعد إصابة أختي الصغرى بمرض، وأصبحت حالتها سيئة، وبدت هيكل عظمي كأطفال المجاعات، وخرجت أُمِّي بعد أربعة أشهر من العلاج، وعادت للبيت تحمل أدوية ومقويات غذائية تشبه الكاكاو، وتحسنت صحتها كثيراً.

مرّ علينا شهر رمضان وأمي في المشفى، بيت بلا راعية وأب يصحو ساعة السحور، ويشعل بابور الكاز (البريموس) لصنع

الشاي وتسخين الخبز وتقديم الحليب لأختي الصغيرة، ثم ينتظر عمتي لرعايتنا، ويغادر البيت إلى عمله، وأذهب إلى مدرستي.

جاءت العطلة الصيفية، وأوصت أمي أبي أن يصحبني في زيارته القادمة إلى المشفى، ومرت شهور، ويبدو أن إصرار أمي ورجاءها دفع بأبي ليصحبني معه إلى نابلس أولاً، ومن هنالك ركبنا (الباص) إلى عمان، وكان مكتظاً بالركاب والأمتعة، وكنت أحمل سلّة عنب وتين هدية للشيخ علي الشمالي، الذي يزور أمي في المشفى أثناء غيابنا الطويل، حاملاً لها بعض الهدايا والكلام الطيّب.

تهادى (الباص) عند الضحى بمنحدر الأغوار على طريق الباذان، وكانت أطول رحلة في حياتي، وبدأت استراحتنا الأولى في نبع الباذان، التي فاضت مياه ينابيعه اتجاه الوادي، وفي المكان مطاعم ودكاكين متواضعة ومقهى، وكثير من الفواكه، جلست على قارعة الطريق أتأمل الشجر الظليل، يجلس في ظلها باعة العنب والمشمش والخوخ والتين والعنب، وعلى الجانب الآخر بركة مياه ضحلة، فيها زجاجات الكازوز الملونة (مشروبات غازية)، اشترى أبي واحدة لي، شربتها باستمتاع بالغ.

تابعنا رحلتنا باتجاه الأغوار، فوجئت بسماعي صوت عجلات (الباص) واهتزازاته، وهو يجتاز جسر اللنبي، جسر الأمير محمد لاحقاً، وهو جسر حديدي شيد على نهر الأردن، وكان في تلك الأيام يزخر بمياه خضراء، تُظهره هادئاً رزيناً من خلال أغصان

الأشجار الكثيفة، التي تحفّ به من كل جانب، تجاوزنا الجسر
الواصل بين ضفتي الأردن إلى الأغوار، ولم يكن هناك أي نقاط
تفتيش، إذ كانت الضفتين تحت علم واحد، وصعدنا طريقاً أدى
بنا إلى استراحة ثانية، فوصلنا ساعة الظهيرة نبع العدسية القريب
من بلدة ناعور، كان الطقس حاراً، وقد نالنا بعض التعب، وحظيت
للمرة الثانية بزجاجة كازوز باردة، شعرت بسعادة غامرة وأبي
يقدمها لي مع رغيف من الكماج، لا أعرف بماذا كان محشواً،
أظنه من الفلافل والحمص، كان أبي سعيداً، وهو يراني أقضم
السندويشة بنهم، وأشرب الكازوزه بارتواء، والسعادة تلوح على
وجهي.

أخيراً وصل (الباص) محطته الأخيرة وسط عمان، وبالقرب
من الجامع الحسيني، وأمام أحد مداخل سوق السكر المجاور
للمسجد توقف، وبدأ يفرغ حمولته من الركاب والأمتعة، وكان
الوقت عصراً، مشيت وراء أبي، أحمل سلة التين والعنب، وقد
ذبلت أوراق الشجر التي تغطيها، وصغر حجمها، مشينا باتجاه
بيت الحاج علي الشمالي، الكائن في شارع الملك طلال باتجاه
حي المهاجرين قرب سيل عمان، الذي تجري مياهه مكشوفاً،
كان الشيخ علي الشمالي صديق جدّي وجدّتي في رحلتهم للحج
في سالف الزمان، وظل صديقاً للعائلة، ومضيفهم وملجأهم في
عمان، أسير خلف أبي مندهشاً من عدد الناس وتنوع ملابسهم،
وأمام الجامع الحسيني باعة وبضاعة ومشترون يتفحصونها،
سمعت أشبه ما يكون بالصراخ يأتي من السماء، رفعت نظري،

رأيت لأول مرة سرباً من الطائرات تشق الفضاء، لعلها كانت إحدى احتفالات المملكة بعيد الاستقلال، وتبادر لذهنى أنها صواريخ، فلم أرَ من قبل طائرات ولا غيرها، لكن سمعت باسم الصواريخ، فظننتها هي، انتبه أبى فوجدني أمشي وعيناي معلقتان في السماء. كانت شرفات مقهى الجامعة العربية، والمباني المحيطة تحجز عن عينيّ معالمًا بعيدة، أراها لأول مرة في حياتي، نهري أن انتبه لخطواتي، حرصاً على سلة التين، فتضيع الهدية أو تتهشم، مضت دقائق وإذ بنا في بيت الحاج علي الشمالي، الذي استقبلنا بحفاوة ووجه سمح، بلباسه الأبيض، حيث يُقيم هو وعائلته في بيت قديم، في مدخل ضيق يتفرع من شارع طلال، وقَدّم لنا الطعام الشهي، خرجت مع أحد أبنائه إلى الشارع، نعدّ السيارات التي تمرّ من أمامنا، وكان عددها قليلاً آنذاك، وأقمنا تلك الليلة في بيتهم.

وفي صبيحة اليوم التالي تسلقنا طريق المصدر، الذي كاد أن يكون خالياً من المباني، حتى وصلنا إلى مبنى حجرّي ذي ساحة أمامية، وهو المدخل الرئيسي، وتحيط به أشجار السرو، عرفت أنه مستشفى الأمراض الصدرية، المطلّ على أراضٍ وجبال خالية تماماً، خاصة من الجهة الجنوبية، لم يسمح لي بالدخول إلى المستشفى، حرصاً على الأطفال وصحتهم، فذاك المرض يُعدّ من أخطر الأمراض المعدية، دخل أبى وتركني في مدخل المستشفى مع طفل آخر، وما هي إلا لحظات ليعود بصحبة أمّي بلباس المشفى الأبيض، احتضنتني بشوق لا يوصف، ودموعها تغسل وجهها، لم تقبلني؛ لأن تعليمات المستشفى تمنعها، كانت نظرة

الوجه، ينعكس وجهها عن تبشير الصحة والعافية، وأصبحت وجنتاها مزهرتان، وجسم ممتلئ يبدو من ثوبها القطني الأبيض، ذاك اللباس التي ترتديه النساء المحظيات للنوم، لا يمكن وصف رحلتنا، ولم يطل لقاؤنا، ولم تقبلني على وجنتي، بل اكتفت بقبلة على رأسي ويدي، تودّعني بدموع سخية، ركبنا (الباص) قاصدين مدينة الزرقاء لزيارة أقاربنا، بدا لي نهاية سيلها ومحطة قطار عمان، مررنا بمناطق شبه قاحلة إلا من بعض الخضرة هنا أو هناك، سمعت السائق يقول: «للي نازل على الرصيفة يحضّر حاله. توقف (الباص) في محطته الأخيرة أمام مبنى بدا لي ضخماً، فأخبرني أبي أنه سينما، وخلفه مباشرة تقبع بيوت صغيرة من الطوب والطين والصفيح، إنه مخيم جنّاعة للاجئين الفلسطينيين، كان أبي يوصني طول الطريق ويملي عليّ ما سأقوله إذا وجّه لي أي سؤال، وكيف أتصرف وقت وصولنا، ووقت نومنا.

استقبلنا العم موسى عبد الجواد، الذي يكبر أبي بعشر سنين، بحفاوة واحترام، وعلى كتفيه عباءة بنية اللون من الجوخ المقصّب، رجل طيب المعشر، صبور الوجه، ممتع الحديث، يسرد حكاياته عن مقاومة الإنجليز ومعاناته في سجونهم، ونتيجة ذلك ترك سلفيت وعاش في عكا، ومن عكا إلى بيسان، التي أحبها كثيراً، وطاب المقام فيها، ثم خرج إلى مخيم الزرقاء، بعد نكبة عام ثمان وأربعين، وسرد حكايات زواجه المتعدد بعد وفاة زوجته الأولى، واستعرض أمامنا بطولاته ومغامراته بحكايات مسلية، يتخللها

الغناء والأهازيج والعتابا، كل ذلك أثناء سهرتنا، وبعد عشاء
بصحبة ابنه وبناته الثلاث، في حوش بيته، المكون من سقيفتي
طين، وفي الركن دكان متواضع جداً، وبجانب الحوش ما يشبه
المطبخ والمرحاض، سهرنا ونمنا في المكان نفسه من الحوش،
وأعتقد أنني وفقت فيما أوصاني به أبي، تلقيت بعض الثناء مع
بعض التحفظات والحمد لله، قالها أبي ونحن نغادر في الصباح إلى
عمان، ومن ثم إلى نابلس وسلفيت، هذا ما أذكره عن تلك الرحلة،
إذ لا أذكر شيئاً عن رحلة العودة، وكيف ومتى وصلنا لقربتنا.

مكثت أممي في المستشفى أربعة أشهر، ورجعت متعافية،
وتغيّرت كثيراً، فأصبحت أكثر جمالاً ونضارة، وتغيّرت نفسيّتها
إلى ما هو أفضل، وعاد لها الفرح وخفة الدم التي نعهد لها، وحنانها،
وتسرد لنا حكايات المستشفى وزميلاتها من شتى بقاع الأردن،
وأغانيهم والأهازيج التراثية، وحكايات الأطباء المشرفين.

لديت ع الثوب وأعجبني وحسبت في الثوب نشمية

ركضت أنا لما انقطع قلبي أثارها عجوز وملوية

يا عسكريا لابسين شداد ديمة ع الخط دورية

ما شوفتولي حبي ع المركب هالسياقيها ثمنمية

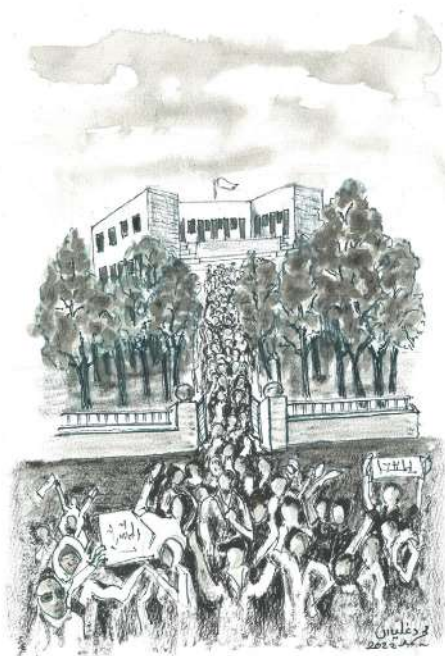
يا علي يالي لابس الحطة يا مرتكي ع الحنا طيري

ارفع الحطة عن الحاجب والوجه ظي القناديلي

كان احتفاء كبيراً بعودة أمِّي معافاة من رحلة علاجها الطويلة، ودعانا الأقارب والأصدقاء على الغداء والعشاء، ونحن برفقتها، لم أعد أرى أمِّي تعاني من أعراض ذاك المرض، وحرصت كل شهر على استلام الأدوية والمقويات من عيادات الصحة في نابلس، ومضت سنوات عديدة وبشكل دوري منتظم على هذه الحال.

تشعر أحياناً بالتعب أو بضعف بُنيته وضيق التنفس، وتقول لي: يا ترى هل ممكن أن أعيش حتى أراك رجلاً بالعشرين من عمرك، وتحصل على شهادة المترك (التوجيهي)، وتصبح أستاذاً قد الدنيا كابن فلان، وتلبس ملابس مرتبة ونظيفة، وتتقاضى راتباً (اتن عشر) ديناراً شهرياً، ولا تذهب للحراثة أو الحصيد أو قطف الزيتون»، الحمد لله فقد عاشت وتحقق حلمها، وأكثر من ذلك.

حقبة التظاهرات والحركات الحزبية



في نهاية الخمسينات، أي في عام سبعة والخمسين، انتشرت الشيوعية في بلدنا انتشار النار في الهشيم، حيث إن أحد مؤسسي الحزب كان من أبناء البلدة، وأصبح معظم شباب البلدة أعضاء في ذلك الحزب، بما فيهم طلاب لم يبلغوا سن الرشد، وتناهى إلى سمعي أن بعض النساء كنَّ أعضاء في الحزب، وسميت سلفيت موسكو الصغرى، كنت في الصف الثاني الابتدائي، لا أعرف

شيئاً عن الشيوعية ولا غيرها، وما أذكره أن مظاهرات ومسيرات وشعارات تخرج لا أعرف سبباً لاندلاعها، وأكثر ما كان يسرني في تلك المظاهرات تعطيل الدراسة، فترتاح من حفظ الشعر وامتحانات الإملاء.

وما أن تبدأ الحصة الأولى في المدرسة حتى يأتي شباب ويخرجوننا من صفوف المدرسة، ويبدو أن هناك تعاوناً مع بعض المعلمين، وبمعارضة مدير المدرسة فقط، الذي لم يكن بيده أمر لمنعنا، وتنطلق المظاهرة وسط هتافات لم أفهمها أبداً إلى مدرسة البنات المجاورة لمدرستنا، ويتم إخراجهن، فيتقدم المظاهرة الشباب والأولاد ومن خلفهم البنات والصبايا، ويقودها شاب محمول على الأكتاف بهتافاته التي ما أنزل الله بها من سلطان، مروراً من أقصى شرق البلدة إلى ساحتها غرباً، حيث مخفر الشرطة، ويفهموننا نحن الصغار إذا سألك شرطي «ليش أنت ماشي بالمظاهرة، قول له: أنا شيوعي أحمر مثل الدم».

يبدو أن الشعارات التي كانت تُرفع في المظاهرات معارضة للنظام، وأن الحزب الشيوعي كان محظوراً، وهناك تعليمات لرجال الأمن التحلي بالصبر والحكمة، ويبرز في تلك المظاهرات الأعضاء النشيطون في الحزب، فتأخذ المظاهرة مداها وتتضخم، وكان أكبرها في مدينة نابلس، وسمعت أن الكثيرين من شباب البلدة شاركوا فيها، وتصدى لها رجال الأمن، وقاموا بفصّها.

صحونا في أحد الأيام باكراً على خبر تطويق البلدة، وسد منافذها، وانتشار الشرطة والجيش، وفرض حظر التجوال،

وجمعت الشرطة رجال البلدة، وساقوهم إلى مخفر الشرطة، وكان أبي أحدهم، ولم يتم فطوره، وقد رافقهم حيث يريدون، وخرجنا نحن الصغار إلى الشوارع، نرقب ما يحدث، وشاهدنا قادة المظاهرات وبعض معلمي المدرسة ما نالهم من تنكيل وقمع، واستمرّ الحال حتى عصر ذاك اليوم، وعاد أبي ومعظم الرجال إلى بيوتهم، وعدد منهم رُحِّل في باصات إلى التجمع في مقاطعة نابلس، ومن هناك إلى سجن المحطة بعمّان، وإلى سجن الجفر الذي أنشئ لهذه الغاية، وصغار طلاب المدرسة تم إيداعهم في إصلاحية نابلس، وما أن مضت أيام حتى سارت مظاهرة حاشدة شارك فيها طلاب المدارس من أولاد و بنات تأييداً للنظام والملك، بعد أن عرّب الملك الجيش وأقال كلوب باشا من قيادته، وأذكر من تلك الشعارات التي رُفعت في المظاهرة (هذه خطوة يا حسين)، واستمرّت المظاهرات أياماً احتفاء بتلك الخطوة الجريئة.

سفر أبي إلى البرازيل



بعد أن ضاقت الحياة على الناس في نهاية خمسينيات القرن الماضي، وكبرت العائلة، وتضاعفت احتياجاتها، وفتحت فرص العمل في دول الخليج، وعلى الأخص في الكويت كباب رزق سهل نسبياً، قرر أبي في عام ثمان وخمسين السفر إلى الكويت، والسفر بحاجة لتأشيرة دخول، عندها لم يتمكن أبي من الحصول على (الفيزا)، فاتفق مع صديق له من أبناء البلدة السفر إلى الكويت عن

طريق التهريب، تدفعه الرغبة في تغيير أوضاع أسرته، بعد أن ضاق بنا الحال، كما ضاق الحال بأبناء البلدة. وصل أبي وصديقه إلى بغداد ثم البصرة، يقودهم دليل متخصص في توريث المهاجرين غير الشرعيين مقابل دريهمات، فطاف بهم الصحراء ما بين البصرة والكويت، يمشون ليلاً ويهجعون نهاراً، حتى أصبحوا على مشارف الكويت، وأضواؤها تلمع في الأفق البعيد، ولسوء حظهم انكشف أمرهم، ووقعوا في يد إحدى دوريات حرس الحدود، وألقي القبض على أبي وصديقه بعد أن اختفى دليلهم، واقتيدا مخفورين إلى بغداد، ومن هناك إلى عمان، وعاد أبي خائباً، تعلق وجهه علامات الفشل، بعد غياب شهر كامل.

أصاب أبي الحزن والكآبة، ولم يعد قادراً على ممارسة أعماله الزراعية، وحاول بعد الرحلة الفاشلة العمل في مقالع الحجر بأجر مقداره ثلاثون قرشاً في اليوم، وتجددت رغبته في السفر إلى أي مكان في العالم، وقرر السفر إلى البرازيل، واعتقد أن ما شجعه على ذلك بعض أبناء البلدة، الذين سبقوه إلى أمريكا اللاتينية، فمنهم من نجح في فنزويلا وكولومبيا وتشيلي والبرازيل، ومنهم من فقد أثره ولم يعد له ذكر أو خبر. كانت أمي تشجعه على السفر إلى البرازيل نظراً لمعاناتها وخشية من عصبيته المفرطة، والتي ستنعكس عليّ وعلى إخوتي، وهي ستتحمل مسؤولية البيت رعايته وتدير عيشنا، مقابل تحررها من موجات الرعب والخوف علينا، والتضحية كي تتنفس بعض الحرية في إدارة شؤون أسرتها وبيتها.

عندما أيقنت أُمِّي أنه لا حول لها ولا قوة أمام غضب أبي،
الذي لا يستطيع هو نفسه السيطرة على أفعاله، قاست من مآسيه
وعصبيته المفرطة ما قاسته، فكيف لا وهو الذي قتل ثوراً بحجر،
ولم يذبحه، بل تركه يموت بدمه، وأنا شاهد على فعله وغيره من
الأفعال القاسية.

لم تكن أُمِّي تقوى على حمايتي من هيجان غضبه، وضربي
المبرح المتكرر لأنفه الأسباب، حتى أصابها الملل واليأس،
وكادت أن تترك البيت وتخرج منه، فإذا بدأ بتعنيفي وضربي تصعد
إلى سطح البيت كي لا ترى وتسمع.

كان أبي وأُمِّي يزرعان أشغال البندورة الصيفية في أرض
تدعى القناطر، رجعت إليهما في نهاية الدوام المدرسي مباشرة
لمساعدتهما، وأنداك قد اشترى أبي لي جزمة من الجلد أو
البلاستيك السكب في بداية الشتاء، ويبدو أنها كانت قديمة
مما ساعد على تفسخها عند ثنياتها، فاتهمني بتمزيقها بالشفرة،
فأقسمت له أنني لم أفعل ذلك، ولم يصدقني وهم بضربي، فهربت
من أمامه لأول مرة في حياتي، أظن سبب هروبي أننا في البرية، ولحق
بي وهو يلقي عليّ كل ما تطاله يده من حجارة الأرض، وأفرّ كقط
مذعور، لم تستطع أُمِّي أن تفعل شيئاً، وجلست على الأرض، ولم
تقوَ على النهوض إلا بعد وقت بمساعدة عمتي، حتى كاد أن يُغمر
عليها من شدة الخوف عليّ.

لا أعرف سبباً لضربي ذاك اليوم الذي أذكره، فتلقيت صفعات أطاحت بيّ أرضاً، مما تسبب في خلع كتفي من مكانه، تحملت في البداية، وما أن وقعت حتى شعرت بالألم شديد، فصعدت إلى سطح المنزل كي لا يسمع بكائي، اشتدّ الألم وصرت أشعر بما يشبه الصعقات الكهربائية إذاً حركت يدي، سمعت إحدى الجارات صوت ألمي فأخبرت أمي، حملتني أمي وسارت بي إلى مجبرّ الكسور، وهو رجل كبير طاعن بالسن، ويدعى الحاج عبد الغافر، سحب يدي وأعاد كتفي إلى مكانه، متعجباً بسخط، كيف يمكن لطفل أن يتحمل كل هذا الألم، وقال: حرام عليكم يا جماعة، ما جرى ويجري لهذا الولد!

لم أكن وحدي الذي يعاني، بل وعمتي هنية التي كانت ترعاني، وأمّي التي شاهدها يوماً تُضرب بلا رحمة، بدأت أشفق على أخي نايف الذي نال من عقاب أبي ما ناله، وسمعت أن جدّي لأبي لم تسلم من ضربه حتى أدمى رأسها، أما جدتي لأمي فلم تكن تحبّه، ولها من الأسباب ما يدفعها لكرهه، وكانت تتمنى سفره، وكيف لا وهي من رافقت رحلة علاج عيني في القدس، وتعلم ما جرى لي بالتفاصيل، ويحرجها ما تسمعه وتلمسه منه.

أكمل أبي استعدادة للسفر بعد أن باع قطعة أرض لنا في جدر البلد، مزروعة بالتين والزيتون لتغطية نفقات سفره، واشترى ملابس افرنجية حسب تعبيره (لم يلبسها من قبل)، وهي عبارة عن طقم سفاري من قماش الكاكي، جاء يوم السفر، وتوافد على بيتنا معظم أهالي البلدة لوداعه، من يسافر للبرازيل قد لا يعود، وإذا

عاد في ذاك الزمان فبعد عشرات السنين، وكان السفر عن طريق البحر، حيث تنطلق الباخرة من بيروت لتصل إلى البرازيل بعد شهر، مروراً بإيطاليا وإسبانيا والمحيط الأطلسي.

في فجر اليوم التالي كنت وأخي برفقته إلى نابلس، فها هو سيغادر إلى بيروت بالسيارة، ومن ثم إلى البرازيل بالباخرة، خلع ملابسه العربية، ولبس ملابسه الإفرنجية، ودّعته قائلاً ببراءة الأطفال «لا تنسانا يا بوي»، احتضنني لأول مرة بحرارة، وأعتقد أن عينيه قد دمعتا، تابعت السيارة حتى اختفت.

لا أجزم كيف كانت مشاعر أُمّي بعد سفره، أما أنا فقد تنفّست الصعداء بعد مغادرته، وأصبحت أشبع من النوم حتى بعد شروق الشمس، وكان قد حلف بالطلاق أن لا أبقى في الفراش بعد طلوع الشمس، سواء في أيام العطل أو الدوام، وكان محرّماً عليّ صيد العصافير وحمل الفخاخ تحت طائلة العقاب الشديد، وبعد سفره بأيام صنعت عدداً من فخاخ العصافير، وحملتها بكل حرية ودون خوف، وكانت العطلة المدرسية قد ابتدأت، كنت في الصف الثالث الابتدائي وترفعت إلى الصف الرابع عام تسعة وخمسين.

تركنا أبي، ولدان وثلاث بنات، وهنّ الأصغر، وأنا أكبرهم عمراً، كان وضعنا المادي مأساوياً، فلم ندرك عبء المسؤولية، وهمّ معيشتنا الذي حملته أُمّي، وتمضي الليل والنهار على ماكنة الخياطة، وأحياناً تعمل عند الآخرين في أعمال الحصيد والتعشيب وغرلة القمح، كي توفر لنا لقمة العيش، وتحملتُ جزءاً بسيطاً

بعد سفر أبي بسنتين أو ثلاث، فأعمل في الورشات وأبيع الميرامية في المدينة، وأقضي بعض الوقت عاملاً في متنزه بلدية نابلس.

لا علم لي فيما عاناه أبي في غربته، فقد غادرنا إلى البلاد البعيدة، لا يعرف لغتها وثقافتها وسُبل عيشها، ولا بدّ أنه عانى ألم الفراق ومتاعب الحياة وطلب الرزق ليساعدنا على العيش، ولا يملك حرفة ورأس مال، وامتدت خمس سنوات لم يساعدنا، وكانت هي الأصعب على أسرنا، وبعد هذا الانقطاع أرسل ثلاثمائة دولار، كانت بالنسبة لنا ثروة كبيرة، وتكرر إرسال النقود وإن كان بشكل متباعد، فقررت أمي بناء بيت لنا على ربع دونم أرض اشتراها أبي قبل سفره شرقي البلد، ولم يدفع من ثمنها البالغ مائة دينار سوى عشرين ديناراً.

جمعت أمي الحجارة في موقع البناء، في مكان اسمه الوعرة، وعلى مدى شهور أصبح في الأرض تلة من الحجارة القابلة للطحن، والطحن دارج في ذاك الزمن، فأحضرنا كسارة متنقلة، وقد حوّلت تلك الكومة إلى (حصمة ناعمة) وحصى بأحجام مختلفة، وبدأنا ببناء البيت وبمساحة مائة متر مربع تقريباً من الباطون المسلّح، ويتألف البيت من ثلاث غرف وشرفة أمامية وممر له باب أمامي من الجنوب وآخر خلفي من الشمال دون منافع صحية، وبنيت المنافع خارج البيت، وكشفت أمي عن رغبتها في بناء البيت، كي يجد أبي في حال عودته شاهداً على حصيلة تعبهِ وغربته.

سمعت أبي قبل سفره بيومين يقول لأُمِّي: سأغيب عنكم من سنة إلى أربع سنوات على الأكثر، ولم يعلم أن غربته قد تطول،

فلم نره إلا بعد سبع وعشرين سنة أي من عام ٥٩ - ٨٦، حتى كدت أنسى تفاصيل وجهه، وجاهدت أمي جهاداً مستميتاً في تربيتنا وتوجيهنا للتعليم والصالح.

كنت أكثر الراحين من سفر أبي، رغم ما كابدته من ضنك وتعب وفقر وتحمل المسؤولية ولو جزئياً، وعشت حراً في تصرفاتي وأفكاري، ونجوت من القمع والضرب والإهانة، وبدأت تتكوّن شخصيتي من جديد، وإن بقيت بعض الرواسب المذلة والخضوع تلازمني طوال سنوات عمري، ومسحة من الحزن والألم تصبغ ملامحي، وقد ظنّ من لا يعرفني أنني يتيم مكسور الخاطر، لا أبالغ إن قلت أنني أصبحت أكثر سعادة وحضوراً في غيابه، وطفولتي معه لم تكن مأسوف عليها، ولا أذكر يوماً أنني أخذت منه قرشاً، كنت ألح على أمي بمصروفي إذا رغبت بشيء أو شراء لوازم المدرسة، فهي من تؤمنها لي، وفي يوم من الأيام أضعت قلم رصاص ثمنه قرشين، وهذا الثمن باهض تلك الأيام، ونذرت أن أصوم لله يوماً إن وجدته، لكن دون جدوى، فاضطرت إلى سرقة (شلن) خمسة قروش من جيب أبي، واشترت القلم، ولم أعد باقي المبلغ، بل تصرفت به، واشترت بعض التسالي والساكر، وحمدت الله أنه لم ينتبه، والله وحده يعلم ماذا كان سيحدث لي لو علم بذلك، كان وراء خطأي الحرمان والجهل الطفولي، وكأنّ سفره كابوساً مرعباً قد أزيح عن كاهلي، وعندها ملكت حريتي المنضبطة بعالم الطفولة والريف.

انقطاع الممول لخمس سنوات



لم يمر أكثر من أسبوعين على سفر أبي حتى نفذ الطحين، فذهبتُ إلى أحد التجار الذين يبيعون الطحين، وكان ثمن الكيس ديناراً وربعاً، لا أذكر كم وزنه آنذاك، فاشتريته بالدين على أمل أن يتيسر ثمنه قريباً، ولا أعرف كيف ومتى؟! نفذ الطحين من جديد، وذهبت للتاجر نفسه لأشتري كيساً جديداً، قال لي: يا شاطر ادفع ثمن الكيس السابق، سأعطيك كيساً جديداً بالدين، فعدتُ إلى

أُمِّي مكسور الخاطر، وأجر ذيول الخيبة، وأخبرتها بما قال التاجر، فتبسمت وطيّبت خاطري قائلة: ولا يهملك حبيبي لا تزعل، أنا سأندبر الأمر. ولا أعلم كيف؟! وبقينا نأكل خبزاً ظهر فيه العفن، ومنذ ذاك الوقت لم يحوجني ربي للاستدانة من أحد أو الشراء بالدين أو بالتقسيط؛ لأن الله يعلم أنني لا أقوى على فعله، حتى وإن بلغت بي الحاجة أقصاها، فهو يرزقني من حيث لا أحسب، كما سيرد لاحقاً.

لا أعرف كيف أُمِّي تندبر أمور عيشنا، لعلها تستعين بجديتي أو من غيرها، ولاحظت يوماً مع بداية السنة الدراسية أن رسوم المدرسة، والبالغة دينار ونصف، قد اقترضتها من شيخ كان جارنا، ويقوم على خدمة المسجد، ويعيش على الصدقات، ورغم حداثة سنّي شعرت بالمسؤولية والرغبة بمساعدة أُمِّي في أول فرصة تتاح. عملتُ في فتح طريق غرب البلدة مع الأشغال العامة لأيام فقط، وغيري ينتظر دوره؛ لأنّ فرص العمل نادرة، وعملتُ في كسارات الحجارة، وهي أشقّ الأعمال، لما يثيره من غبار يضيق بها التنفس، وسرحت مع الرجال إلى أراضٍ بعيدة، حيث يقومون باستصلاحها وتعزيلها من الحجارة وبناء سناسل كجدران استنادية في سفوح الجبال لحماية كروم الزيتون خوفاً من انجراف التربة، تنقلتُ بين حفر أساسات بعض المباني البسيطة، ونقل ما يلزمها من حصمة وإسمنت، وأتقاضى عشرة قروش يومياً.

لحقتُ بصديقي الذي يعمل في متنزه بلدية نابلس، وعملنا سوياً نمسح طاولات الزبائن، ونضع عليها أباريق المياه الزجاجية مع الكاسات، حتى يحضر (الشيف) ويقدم الطلبات، وأحياناً أتعرض لبعض التهكمات من فتيات نابلس المدينيات، وكنا ننام في وقت متأخر بعد تعب وإرهاق شديد، وينالنا (التسميط) من كثرة الحركة على مدار نهار وجزء من الليل، ننام في العراء حول نافورة مياه قد فاضت ذات ليلة فقمنا مذعورين، ثم عملتُ في مقهى صاحبها نابلسي سيء السمعة، ولقبه أبو الكلبات، عملت عنده كصبي توصيل طلبات لمدة قصيرة؛ بسبب ألفاظه وكلماته النابية، وعملتُ عند رجل طيّب في مطعم للمشويات، يفتح حتى وقت الظهيرة، أشوي اللحم والكبد وما شابهها، ثم أنظف المحل، وهو عبارة عن بيت درج بين محلات تجارية قرب حسبة الخضار.

لم تتعدَّ أجرتي العشرة قروش يومياً مع وجبة طعام مما تيسر، أو مما بقي في صحنون الزبائن، وأنا م على بسطة الدرج العلوية، وكان صاحب المطعم أبو الصادق جهماً كالمصارعين، ولم أسمع منه إلا كلاماً طيباً وحرصاً على عدم الإساءة لي من أحدهم.

كان عملي خلال الإجازات المدرسية في الصف السادس والسابع، وعندما بلغت الصف الثامن عرّفني صديقي فارس على جارهم فوزي، وهو من جبلي لكنه أكثر فقراً مني، وقد ترك المدرسة منذ زمن بعيد، وأبوه عجوز لا يقوى على العمل، وفوزي أكبر إخوته، بسيط المظهر، طيب القلب، رث الثياب، وأجمل ما

فيه أنه غير مبالٍ، وطويل البال، عرض عليّ أن نبيع الميرمية في نابلس، لحبي تلك المدينة والتجوال فيها والحاجة للعمل دون قيود، وافقتُ بحماس زائد ودون تردد.

ذهبنا إلى الجبال ومعنا حمارين، وعلى كل منهما خرج، نجمع فيه أغصان الميرمية الطرية، فإذا انتفخ الخُرج نعود للبيت وقت العصر، ونقوم بمساعدة الأمّهات بعمل ضمّم (باقات)، في كل منها عشرة أغصان، نضعها في كيس خيش مبلل بالماء لحفظ الرطوبة، نصعد (الباص) صباحاً متجهين إلى نابلس، نُبقي الكيس داخل الكراج، ونأخذ منه عدداً من الربطات، حيث نذرع شوارع المدينة، خاصة السوق المسقوف الذي يخلو من السيارات، ننادي ذهاباً وإياباً بأعلى صوت «ميرمية خضره وطريه، ميرمية بتخلي العجوز صبيه»، ونكرر جولتنا حتى نفاد الكمية، كنّا نبيع الضمة بتعريفة والثلاثة بقرش، فأعود لأُمِّي بما لا يقل عن نصف دينار، مما شجع أمّهاتنا على أن يقمن بجمع الميرمية يومياً، ونقوم ببيعها، وانضمّ إلينا صديقي عبد الرؤوف، فتوسعت تجارتنا، وبقيت ورفيقي عبد الرؤوف بعد أن غادرنا فوزي، ولا علم لي بالسبب.

أصبحت وعبد الرؤوف أكثر جرأة وطموحاً، وتوسعت دائرة نشاطنا من نابلس إلى القدس إلى أريحا والزرقاء وإربد، لا نهتم لتعب أو مرمطة أو تشرد، كما يقولون، المهم أن نساعد أهلنا كرجال، وإن نمنا على أرصفة الشارع.

كانت مرحلة صعبة في حياتي، وتجربة مؤلمة عشتها في صيف قائف، ورحمة الله وعنايته هي من حمّنتي، وإرادته وضعتني في مواقف صعبة، ونجوت منها بفضل ورعايته.

في صباح مبكر تحركنا، أنا وصديقي عبد الرؤوف، نحمل خيشتين (الخيشة: كيس كبير) من الميرامية، قاصدين الزرقاء عن طريق نابلس كعادتنا، كان حملنا ثقيلًا هذه المرة، فركبنا (باص) نابلس يرافقنا دعاء الأمهات ورضائهنّ، ثم انتقلنا إلى (باص) الزرقاء ولا اذكر لماذا لم يكن معنا ما يكفي للأجرة؟ وعندما جاء (الكنترول) لتحصيل الأجرة اكتشفنا أننا لا نملك الأجرة كاملة، فأخبر سائق (الباص) الذي كان قاسيًا جدًا، فأنزلنا في الأغوار، وبقينا على جانب الطريق في حيرة شديدة من أمرنا، حتى يسّر الله لنا سائق شاحنة متجها إلى عمان، فحملنا معه، ومن هناك ركبنا إلى الزرقاء، مقابل ضمتي ميرمية من كل واحد منا، وصلنا وقت مغيب الشمس، وضعنا أكياس الميرمية تحت درج حسيبة الخضار، ونمنا في بيت أحد أبناء البلدة عبد الفتاح الشوني، وفي صبيحة اليوم الثاني فتحنا الأكياس، وحملنا عددًا من الضمم، وباشرنا البيع في الأسواق وأمام المساجد. كان صديقي عبد الرؤوف أكثر لياقة مني وكياسة، فباع أكبر كمية مبكرًا، أما أنا فبعد عدة جولات اكتشفت أن جزءًا كبيرًا من بضاعتي قد سُرق، وبعث ما تبقى، وكل ما جمعته لم يصل النصف دينار، في ذلك اليوم المشؤوم التقينا بأحد أترابنا ألا وهو محمود، وهو من سكان سلفيت سابقًا، وقيم في الزرقاء منذ سنوات، فأغوانا لدخول السينما، وكانت تذكرة السينما خمسة

قروش، شاهدنا فيلماً تافهاً حتى التاسعة مساءً، وشربت كأس كاكاو بقرشين، واندلق نصفها على (بنطالي الكاكي)، ولم يبق معي سوى أربعين قرشاً. اصطحبنا محمود إلى بيته لنبيت عنده، وفي الطريق عرّج بنا على شخص يعرفه، حيث يسكن في دكان فارغ على قارعة الطريق، كان الرجل شيخاً ملتجئاً يصطحب ولداً بعمرنا أو يصغرنا سنّاً، استقبلنا الشيخ مهلاً مرحباً، وبعد أن صلّى العشاء شربنا شايّاً وسهرنا حتى منتصف الليل، وعندما هممنا بالرحيل قال الشيخ: لماذا لا ينام عندنا أحد ضيوفك يا محمود؟ فاجأني محمود بموافقته مباشرة، ولسوء حظّي وقع الاختيار عليّ، كي أنام في بيت الشيخ والولد، ولم أكن أعرف صلة القرابة بين الشيخ والولد، وظننتُ أنه أحد أحفاده، غادرنا محمود وعبد الرؤوف.

فرش الشيخ ثلاث فُرش (جنيّات) متلاصقة على الأرض، ونام الولد على الطرف بجانب الجدار، وأنا في الوسط، والشيخ على الطرف، وشعرت بحركات مشبوهة تصدر عن الولد، فابتعدت عنه، ونمت على ظهري، وقبل أن أغمض عيني وأغفو شعرت بالأسوأ، حيث تحرك الشيخ بطريقة مستفزة، مرة ينقلب اتجاهي، ومرة يدير ظهره لي، ساورني خوف شديد، وخشيت أنني وقعت في مصيدة تحرش، ولحسن الحظ أنام بكامل ملابسي، بنطالي الكاكي يشدّه حزام من الجلد على وسطي، وقد وضعت ما جمعته من النقود في جيبِي، وبقيت ممدداً على ظهري، كانت ليلة ليلاء، حالكة السواد، ولم يغمض لي جفن، وتمضي الدقائق كأنها

دهر، ولولا خوفي من الخروج إلى الشارع في الليل الذي لا يكون آمناً أكثر من الدكان، لخرجت بأي وسيلة كانت، ولحسن حظي أن الشيخ قد غطّ في نوم عميق، بعد أن طار النوم من عيني، وراودني الشك أن الشيخ شاذ، والله أعلم بمبتغاه، كنت حريصاً وحذراً.

عيناى يقظتان ومحدثان في سقف الغرفة، انتظر بزوغ الفجر بعد ليل طويل، سمعت دقات جرس إحدى الكنائس، تمنيت أن لا يتوقف، فقد يكون مثابة التسلية لي، لعلّه يحملني على الصبر، بقيت مستلقياً على ظهري حتى تسابيح آذان الفجر، فاستبشرت بالفرج القريب، ومن مفارقات الزمان أن الشيخ قد قام يسخن الماء للوضوء ويصليّ الفجر، وما كدت ألمح سنا ضوء خافت يتسلل من تحت باب المخزن الحديدي، حتى عزمت على الخروج من ذاك الوكر الكئيب الموحش، وتنفس الصعداء وأنا أسير في الشارع العام، وكأني خرجت من سجن رهيب، تفقدت نقودي الأربعين قرشاً، فلم أجد منها سوى خمسة عشر قرشاً، ويبدو أنها سقطت في الفراش، ولم أعد لأسأل عنها في ذاك الوكر المشؤوم، وكأن الرعب يجثم على بابه، انتظرت عبد الرؤوف حتى حضر، ولم أخبره بما حدث، لكن حالتي كانت مزرية من قلة النوم، ومن فقدي لخمسة وعشرين قرشاً، فضياعها مأساة كبيرة، رغم ذلك كنت فرحاً للنجاة من شرك نُصب لي، هذا ما اعتقدته، اعتذرت لعبد الرؤوف عن مرافقته إلى عمان والعودة إلى البلدة، وبعد مغادرته ذهبت إلى عبد الفتاح الشوني، وأخبرته بضياع نقودي، ولا

أستطيع العودة لأُمِّي خالي الوفاض، ولم أخبره بما حدث تلك الليلة، قال «بسيطة هات معك شوال الخيش وتعال معي لنذهب إلى عمان»، فأطعته بلا تردد، فهو يكبرني بسنة، وأكثر مني خبرة في حياة المدينة، وصادقاً معي، وتربطني به قرابة من بعيد.

وصلنا عمان وسرنا إلى أحد المخيمات، ولا أذكر إن كان مخيم الوحدات أو مخيم الحسين، وأرجح أنه مخيم الحسين، سألني:

- بتعرف تشحد؟

- لا أبداً، ولا مرة.

- طيب بس خليك ساكت.

كان أكثر مني بؤساً، وضعيف البنية، ورث الثياب، وفي صوته بحّة، طفنا بين البيوت المكتظة والحارات الضيقة والأدراج المهلهلة، وأخذ يطرق أبواب البيوت، وما إن فُتح باب حتى انزوي خلفه خجلاً، وهو يشرح لمن في الباب حالنا، ويقول للنساء: خالتي إحنا أجينا من فلسطين نبيع ميرمية لكن ميرمياتنا انسرقت ولا نستطيع العودة، فبعضهنّ يتصدقنا علينا بتعريفة أو بقرش، وبعضهنّ يقدّمنا خبزاً وبندورة وخياراً، وأحياناً قطعة جبن، ولم نرفض شيئاً مما يُقدّم لنا، واستمرّ تسولنا حتى منتصف النهار، إلى أن عاد المبلغ أربعين قرشاً من جديد، ومعنا خبز وخضار وقليل من الجبن، نضعها في كيس أحمله على كتفي.

- خلص أخوي عبد الفتاح بكفي عشان ألحق باص نابلس.

- طيب زي ما بدك.

- لكن لا أريد أن أصرف من النقود الي معي قرشاً واحداً.

و من يومها عرفت أن قرش التسول صعب صرفه؛ لأنه جاء من مذلة.

- طيب خبي النقود مليح لاحد يسمع صوتها وتعال معي.

سحبني إلى شرطي سير يقف داخل ما يشبه البرميل، وسط دوار صغير أمام أمانة عمان (مكتبة العاصمة الآن)، لينظم السير اتجاه شارع الشابسوغ وشارع طلال وغيرهما. يرجوه قائلاً:

- هذا الولد قريبي مقطوع ما معه نقود، ويريد الذهاب لأهله في نابلس.

- طيب خليكم واقفين جنبي.

مرّ شرطي سير يركب دراجة، فأردفني خلفه وأوصاه:

- لا تترك الولد حتى تضعه في الباص المتّجه الى نابلس، وخذ رقمه وحمله مسؤولية وصوله لأهله.

وصلنا «العبدلي» حيث مواقف (الباصات)، وسلّمني لسائق، وأمره أن يوصلني دون أجرة إلى نابلس، جلست في أحد مقاعد، ووضعت الكيس تحت الكرسي. كنت جائعاً، تناولت من الكيس ما تيسر لي من الخبز والبندورة، وحين امتلأ (الباص) بالركاب، وصعد السائق، نظر إلى الركاب يتفحصهم، فرآني جالساً في المقعد، صاح بأعلى صوته:

- وَلَئِكَ أَبُو الميرمية.. قوم انصرف.. أقعد في أرضية الباص أو على الدرج الخلفي.

امتثلت لأمره سريعاً، وجلست على درجات الباب الخلفي، وتركت المقعد لراكب آخر، وها نحن نصل إلى نبع الباذان، حيث يقف (الباص) في استراحة قصيرة، ونزل الركاب لشراء بعض الحاجيات من أكل ومشرب، اجتاحتني رغبة بشراء زجاجة (قازوز) برتقالية، فخشيت أن يعرف السائق أنني أحمل نقوداً، ولا أريد أن ينفذ قرشاً واحداً، فأحجمت عن تلك الفكرة السخيفة، فما أن وصلنا نابلس حتى سارعت في حمل الشوال على كتفي، وسرت إلى مكتب (تكسي سلفيت)، وقد أقبل الليل وخلا المكان من الحافلات، ووجدت (تاكسي) لرجل تلمح فيه السكينة، يُدعى حسيب الرمال، قلت له:

- عمي أبو إياد بديّ أروّح وما معي نقود.

- معلش حطّ الكيس في الدّبة واركب.

أخذ (التكسي) حمولته، وصلت البيت ليلاً، كانت أمّي في حالة مزرية، احتضنتني وهي تغالب دموعها، وتعلم معاناة السفر التي ألحقت بي التعب والشقاء، كما ألحقت بصديقي عبد الرؤوف الذي سبقني في الوصول، لكن أمّي فرحت بعودتي كثيراً كما فرحت أخواتي وأخي، وقدمت صرة النقود لأُمّي، وحمدت الله على سلامتي، وأثنت عليّ كثيراً، وهي لا تعلم عن تلك الليلة التي

تركت في حياتي كابوساً مربعاً، وها أنا أنام ملئ جفوني في دفيء عائلي قلّ نظيره.

لا زال بياض عيني يوقعني في حرج مع الناس، فأغمض طرف عيني لمحدّثي، وهذا ما لفت نظر طبيب عيون التقيته صدفة في أحد شوارع نابلس، وكنت وقتها أبيع الميرامية، وسألني عن السبب، وأخبرته عن الحادثة التي تركت وجعاً يطرق أبواب حياتي كلّها، وأشار عليّ بمراجعة مشفى العيون في القدس، وقال: لعلّ هناك من يحاول إزالة تلك السحابة المخرجة.

ذهبت وحيداً إلى القدس ولم أخبر أحداً بمقصدي، وبعد فحوصات أجراها الأطباء، أخبروني أنهم لا يستطيعون عمل شيء سوى عملية تجميل تصبغ تلك البقعة البيضاء بلون حدقة العين، ووافقت على الفور، وخضعت للعملية ببنج موضعي، وعدت إلى البيت معصوب العين اليمنى، فتفاجأت أمي، وتألّمت كثيراً لحالي، فقد عانيت تلك الليلة آلاماً مبرحة، وداومت على استعمال قطرات العين أياماً قبل أن أكشف عنها، كانت أقل تشوهاً مما كانت عليه، وبدت قزحيته تتحول إلى اللون الأزرق بدلاً من اللون الأسود، فظهر عليها بعض الانحراف، ورضيت بما قسم الله لي، وأكملت مسيرة حياتي بما آل إليه الأمر.

سنوات المراهقة، هواياتي: الرسم والموسيقى



في زماننا كانت الدولة تجري ثلاثة امتحانات عامة لجميع الطلاب، امتحان ما بين المرحلة الابتدائية (أول ست سنوات)، والمرحلة الإعدادية (ثلاث سنوات)، والثاني بين الإعدادية والثانوية (ثلاث سنوات)، وقد اجتزت الامتحانات بنجاح بيسر، رغم أنني لم أكن ممن لهم القدرة على مراجعة الدروس والقراءة

كزملائي المجتهدين، إذ كانت هوايتي في صيد العصافير شغلي
الشاغل، أجوب البساتين وأتسلق الجبال بحثاً عن الأعشاش
ونصب الفخاخ، بل كان عشقي للطبيعة البرية يحقق مكنون
رغباتي.

بعد أن بلغت من العمر أربعة عشر ربيعاً تغيرت ملامحي
ونغمة صوتي، وزاد تدفق الدم في عروقي، مما أذكى شعلة الشباب
في أحاسيسي ورغباتي، وتوسعت اهتماماتي، وامتلكت حيوية
جامحة زاد من نشاطاتي، لعلّ الريف وصفاء وسعة أفقه ورونق
ربيعه وسطوع شمسهِ قد عمّق مشاعري، وأوقد جذوتها، وأصبح
لكل شيء لون وطعم جديد، يحرك كوامن النفس ورغباتها.

يعيش الشباب في الريف هذه المرحلة التي يسمونها المراهقة،
مرهفي الحس، نرجسي التفكير، متدفقي الحيوية، غزيري
التخيلات الرومانسية، لديهم القدرة على قطع مسافات طويلة
دون تعب أو كلل، يجذبهم لون ثوب أحمر يتحرك في أطراف
الحقول، مجرد نظرة أو بسمه على استحياء يختلسها شاب من فتاة
تغمره سعادة تدوم ساعات أو أياماً، تجعله يرى كلّ شيء جميل،
النسيم يصبح منعشاً، والشجر يزداد اخضراراً، قطوف العنب
ذهبية، أغصان نباتات العرقد والعليق تصبح حنونة محبة.

في هذا العمر أصبحت لنا (شلة) من زملاء المدرسة، إذ لا بدّ
من مجموعة متقاربة يثون أسرارهم وأخبار مغامراتهم المتخيلة
أحياناً أكثر من الحقيقة، ازداد اهتمامنا بملابسنا وتلميع أحذيتنا

وتسريح شعورنا ووضع نظارة شمسية على عيوننا السعيد، منّا من معه ساعة يد يكشف عنها ليراها الجميع، نتمشى ثلاثة أو أربعة في شوارع البلدة الجديدة، من ساعة العصر حتى بعد العشاء، نمرّ من أمام بيوت فيها صبايا، كلّ منّا يتخيّل أنها تهتم به، وهم غالباً في غفلة، لا يكادون يشعرون بوجودنا، ننسج قصصاً من بنات أفكارنا تداري تشبيحاتنا، أصبحت دروسنا لا تحظى بجلّ اهتمامنا، نجتمع ليلاً في أحد سقائف الجدات المهجورة إلا من الفئران، بحجة مذاكرة مشتركة لدروسنا، لا نقرأ شيئاً سوى حلّ مسائل الرياضيات المناطة بنا كواجب بيتي، ولا يعيقنا أثناء ذلك سماع الأغاني العاطفية من (راديو ترانسستور)، يستلفه فارس من أخيه المكفوف، حتى إذا أنهينا حلّ الواجبات نعود إلى اجترار أحداث ومغامرات اليوم السابق، ونلهو بلعب الورق، أحدها يُشعل (البريموس) ليصنع لنا شايّاً حلواً جداً نتمتع به؛ لأنه المشروب الوحيد المتوفر، أحياناً يطول سهرنا حتى مطلع الفجر، الأهل مشغولون عنا بأعمال الفلاحة، لدرجة أنهم لا يسألوننا عن شيء.

لم تخلُ هذه المرحلة من مغامرات لم أَسعَ لها بحرفية أو سابق تخطيط، لم أكن ضليع في أساليب الفهلوة واقتناص الفرص، بل كنت خجولاً جداً، قليل اللباقة، ضعيف التعبير، خصوصاً أمام العنصر الأنثوي، لدرجة احمرار وجهي، ويعتريني التعرق، وخفقان القلب، خاصة عندما التقى بفتاة جريئة، لم أكن أبحث عن جمال وذكاء أو عن عُمرٍ، أتوق فقط لأي علاقة بريئة، ولو عن بُعد،

يطمئن إليها قلبي، وتعزز ثقتي بنفسي، وتشعري أنني مرغوب،
ولي حضور كأني من أبناء جيلي.

هواياتي المفضلة وخلوتي مع الطبيعة، كانت جولاتي في البرية
هي الطريقة الأمثل لتفريغ طاقتي، عشقت الصيد والرسم، وهي
هواياتي، لأنها لا تضطريني للاستعانة بالآخرين، وكانت الزهور
والطيور الفرحة الذي ينعش روحي، وتترك لي مساحات من العزلة
والتميز بين اترابي، رسمت الخرائط ووسائل الايضاح لمعلمي
مدرستي ولكثير من زملائي، خاصة للبنات اللواتي تمنيت أن أفوز
باهتمامهن وإعجابهن، وكنت أقتصد في استعمال الورق والألوان
لضيق الحال.

منذ نعومة أظفاري يأسرني صوت الناي (الشبابة)، ويداعب
مشاعري، وجاء في يوم أحد الشعراء البسطاء ومعه ربابته (الآلة
الموسيقية البدوية) أمام مقهى البلدة، أخذ يشدو ألحاناً عذبة،
ترافقه أشعار لم أفهم معانيها، لكنني طربت لوقع ألحانها، تمنيت
حينها لو عندي مثل آله، في إحدى الليالي سمعت أخا فارس
يعزف إحدى أغاني فيروز على آلة العود، فأحسست أنني أعيش
حُلماً في غاية الروعة والجمال، تملكنتني الرغبة في العزف على
آلة موسيقية، لكن من أين لي بآلة موسيقى؟! مع هذا صنعت ربابة
تشبه العود العربي، مستعملاً أسلاكاً رفيعة وخيوط النايلون أوتاراً
لها، وحاولت أن أصنع الوتر بخصلة من شعر أختي الطويل، فلم
تصلح، فاستعرت خصلة من ذنب فرس خالتي، فكانت النتيجة

أحسن قليلاً. كانت تلك الآلات تُصدر أصواتاً نشازاً، فأنا لا أعرف العزف، ولم أكن أعلم أن الأوتار لها دوزان محدد، مع هذا فقد كانت مناسبة لأخذ صورة معها بالأبيض والأسود، تُشبع جزءاً من غرور الشباب المراهق، تلك الحمى التي تفرسها علينا الفطرة دون استئذان.

عشت حادثة وأنا صغير، ففي الخامسة من عمري كما أتذكر، تركني أهلي مع مجموعة من البنات في بيت واحد، وذهبوا للعمل في إحدى المزارع، وكانت ترعانا فتاة تكبرنا بعشر سنوات، وفي ذاك اليوم أخذنا باللعب سوياً، وما هي إلا ألعاب طفولية، فاقترحت علينا الفتاة لعبة العرايس، فوضعتني في غرفة لوحدي، وعرّنتني من ملابس السفلية، تلك الألعاب بريئة، وإن كانت لا تروق لنا، وهي تعلم ما تقوم به من فعل، لعلها تستمتع بلا براءة أبداً، وعندما أدركت أنني منزعج مما فعلته، ألبستني ملابس، وأوصتني مرّات كثيرة أن لا أذكر ما فعلته لأُمّي أو لأحد، وفعلاً نسيت تلك الحادثة، ولم أخبر أحداً.

دارت الأيام وكبرنا، وتزوجت الفتاة، وبلغت من العمر أربعة عشر عاماً، وكنت في عنفوان المراهقة، وذات مساء ربيعي رافقت أُمّي في زيارتها، في بيت من طابقين، وأثناء جلستنا العائلية في الساحة المطلة على الكروم سمعنا بكاء طفل صغير، فأسرعت السيدة إلى الطابق العلوي، وكنت أتبعها حيث طفلها، حملته وأرضعته، وأخذت تهدده عليه، وأنا أهزّ سريره، ثم وقفت خلفي

وانحنت على ظهري، فلامس صدرها النافر كتفي، وتدلى شعرها على وجهي، حينها شعرت بأنفاسها الحارة، وبجسدها يستفز ذكوريّتي، وكاد قلبي يفرّ من صدري، فاهتزت فرائصي وارتعدت، وكدت أدخل في غيبوبة ممتعة، ولاحظت هي ما اعتراني، فقبّلتني قائلة: معقول بعدك صغير! حينها تركتني في بحر من الحيرة، وفي سيل من العشق والشبق، ذهبت بعد أن أشعلت في هشيم جسدي ناراً.

أصبحت تلك المرأة حمّى تداهمني في صحوي ومنامي، وغدوت لا أطيق البعد عنها، كأني وقعت في شباكها، أدور في فلكها سواء علمت هي أم لم تعلم، أبيت على خيالاتها، وأصحو على أنفاسها الحارقة، كل شيء يذكرني بها، عبير الأزهار، ورائحة الفاكهة الطازجة، وشروق الشمس وغسقها، كنت على استعداد أن أضحي بكل شيء من أجلها، تزداد عذوبة كلما اقتربت منها، مرّت الأيام وطواني الطموح وقلة الحيلة، وما كادت مشاعري تخبو حتى تشتعل من جديد، بنظرة أو تنهيدة أو لمسة.

وفي ليلة هادئة صافية، وأنا نائم في مقشاة الفقوس والبندورة والكوسا، بعد عمل نهار هدّ جسدي، وأحرسها من بنات آوى (الواويات والثعالب)، وبعد أن هبط الليل، وسكن الناس، ونامت العيون، إذ بهمس في أذني يوقظني فجأة، كانت بملابس النوم وبصدر نصفه مكشوف وذراعين، أضفى برد الليل نعومة على جسدها الدافئ، جسد أملس يتمايل أمامي كطائر أبو الحناء،

شممت رائحة تغمرنى بالمسك، اندست في فراشي لاهثة تقطر
عسلاً ولهفة، خشيت أن يصحو من كان ينام قريب منّا على صوت
أنفاسنا، أمسكت بيدي وقادتني إلى زاوية كثيفة بالأشجار، وغبنا
في ظلمة الليل، كانت أكثر لحظات العمر متعة، عدت إلى فراشي
بعد أن فارقتني مسرعة، وأي نوم غزا جفوني ليلتها، بقيت أرقب
نجوم السماء، فأراها أكثر لمعاناً، وأصغي الى صراصير الليل
كأجمل سمفونية سمعتها، وتبدو لي الحشرات (سراج الغولة)
المضيئة في الظلام نجومًا تتساقط، كشفت عن جسدي لاستمتع
بخيالات تغمرنى، تهدأ أنفاسي، ويخف توترى، و تتبدد مخاوفي،
حتى مطلع الفجر، ثم غفوت في رياض جنتها.

عشت ذكرى جميلة لم تغب عني، وتحررت من عقدة الإنزواء
والإحباط، وشعرت أنني رجل يتحمل مسؤوليات الحياة،
واستمرت حياتي بين الحلم واليقظة، واشترت خرطوشاً أصطاد
به العصافير والطيور البرية، وكنت أقضي الكثير من أوقات فراغي
في الجبال وعلى ينابيع المياه، في وادي الشاعر ووادي الدلبه،
استعضت عن الفخاخ بالخرطوش الذي أعيد تعبئة طلقاته بنفسي،
وكي لا أشتري الطلقة بأربعة قروش صنعتها يدياً، فكان منها ما
يصيب، ومنها ما يخيب كما يقولون.

دراسة الفرع العلمي في نابلس



لم أكن من الأوائل في المدرسة رغم ذلك لم أرسب ولا في أي امتحان، ولم أتأخر في أي صف سواء في المدرسة أو الجامعة، حتى فحص السواقة نجحت بالامتحان النظري والعملي من أول مرة، لا أذكر أبداً أنني فشلت في أي مقابلة أو مسابقة فشلاً ذريعاً، ليس لأنني عبقرى زمني، بل هو توفيق من الله ورضى أمي وذكاء

متوسط، ومعرفة ورغبة في تحقيق الهدف الذي أسعى للوصول إليه.

كنّا ستة زملاء فقط، قد وصلنا إلى الصف الحادي عشر العلمي من أصل ستين طالباً دخلنا المدرسة الابتدائية معاً، ولم تكن الدراسة العلمية متوفرة في مدرستي التي قضيت فيها الصفوف السابقة في بلدي، لذا كان علينا الالتحاق بمدرسة الصلاحية الثانوية بنابلس، من باب عشق الفلاح للمدينة، والتحرر من قيود الأهل في القرية، استأجرت وزملاء أربعة آخرين بيتاً في أفقر أطراف المدينة، هي خلّة العامود على سفح جبل الصنوبر، كلنا في بيت مكوّن من غرفة واحدة، ملحق بها ما يصعب تسميته حمّاماً، وداخل الغرفة نأكل ونشرب الشاي وندرس ونسخن مياهاً للاستحمام، وننام على فرش أرضية على حصيرة من القش، كانت الغرفة واسعة نسبياً لدرجة أننا نستقبل الضيوف فيها أحياناً، كنّا نقضي فيها ستة أيام في الأسبوع، ويوم الجمعة عند الأهل في البلدة.

رغم أن نابلس تبعد فقط خمسة وعشرين كيلومتراً إلا أن الانتقال إليها كان نوعاً من الغربة آنذاك، تختلف ثقافة المدينة وأسواقها وسكانها تماماً عن أهل القرية، من لهجة وعادات وتقاليد، ونسبياً التعليم والتربية، كنّا شباباً في عمر المراهقة، يعترينا ذاك الشعور الفاض بالذاتية، ومحاولة اثبات جدارتنا أمام من يظنون أنفسهم الأرقى والأعلى درجة، إنها عقدة الفلاح والمديني، كانت رائحة العنصرية تضعنا في إحراجات كثيرة، كانت تلك أحاديثنا،

ونحن نتسكع في أسواق المدينة ساعات المساء، نرقب حركات أبناء وبنات المدينة، وتجارها وسكانها، وأكثر ما يزعجنا شعورنا بالنظرة الدونية والتعالي علينا أحياناً، مما سبب إشكالات بيننا وبين شباب المدينة، فلا أبالغ إذا قلت أنني لم أشعر في حياتي بمثل هذا الشعور من الاحباط، نتيجة الفارق الطبقي الذي لمستته في تلك المرحلة، ولأول مرة أكره المدرسة، وقد مللت الدراسة، وضعفت رغبتى بالتفوق والتميز، وأصبح كل شيء عبء ثقيل على كاهلي، على شخصيتي وملبسي ومصروفي، حينها شعرت بالكآبة والاحباط، ولولا تشجيع ابن عمي محمد رباح المستمر لتركّت المدرسة آنذاك، وهو زميلي في المدرسة نفسها، ويشاركني السكن.

في نهاية الفصل الأول الدراسي فقدت جذوة الفرح بتلك التجربة ووهجها، وخاب ظننا بمتعة الحياة في المدينة، وأصبحت أعباء الدراسة ترهقنا وتضيق بها صدورنا، تبعثرت الصورة الوردية التي تخيلناها عن الارتقاء الذي كنّا نطمح إليه، مما أثر على تحصيلنا الدراسي، وانعكس سلباً على علامتنا التي بالكاد معها حصلنا النجاح.

لم تكن الصورة قاتمة تماماً، وخلال تلك الشهور تعرّفت على أصدقاء قرويين مثلي، وعلى رأسهم صديق جمعتني الأيام به أول شهور السنة، شاب رياضي أسمر، خفيف الظلّ، ألا وهو عبد الرزاق الصلاحات من الصوالحه في غور الأردن، رغم أنه لم

تعجبه مدرسة الصلاحية، فانتقل منها إلى مدرسة خاصة، تُدعى الروضة في نابلس، إلا أن صداقتنا استمرت وتطورت من صداقة فردية إلى صداقة عائلية، في زيارات متبادلة بين العائلتين، وكنت أشعر أنني أحد أفراد عائلته، وشملت صداقتي ومحبتني لكل شخص في عائلته الكريمة حتى يومنا هذا.

تركنا السكن في المدينة بداية الفصل الثاني من الصف الحادي عشر العلمي، وعُدنا جميعنا لسكن قريتنا التي لم نكن نشعر بقيمتها وقت غادرناها، وأصبحنا نركب (الباص) في الصباح الباكر من ساحة القرية إلى نابلس، أحياناً نجلس على مقاعد (الباص) وكثيراً نقف ويجلس كبار السن والنساء، أثناء مرور السائق من سكاكا وياسوف، مروراً من مثلث زعترية إلى حواره ومخيم بلاطة، وكان أول ما يطالعا من المدينة سجن المقاطعة، ويليه مدرسة الصلاحية الثانوية للتخصص العلمي، وخلفها مدرسة الجاحظ الثانوية للتخصص الأدبي للذكور، وإلى جانبها مدرسة العائشية الثانوية للإناث، حيث تهفو إليها قلوب الشباب.

نركب (الباص) من قرية سكاكا ومعنا صبية فلاحية لوحتها الشمس، فاكسبتها حمرة مضافة إلى حمرة الخجل، وحمرة وجهها من انعكاس قميصها الخمري، مما جعلها نقطة التقاء عيون الشباب، واقفة وسط (الباص)، فاختلس النظر إلى وجهها، وإذا انتبهت أشحت وجهي وغضضت بصري، ليس أدباً أو تكبراً، وإنما خجلاً ومداراة لما اعتقدته عيباً في نظري، لا أريد أن أراها تمتعض وتلوي عنقها بعيداً إذا حدّثت بها، فأجرح مشاعرها.

كانت طالبتان فقط من قريتنا، تدرسان الفرع العلمي في نابلس، إحداهما تقيم عند أقاربها في المدينة، والثانية لا تركب إلا سيارات (التاكسي)، وفي المقعد الأمامي بجانب الشباك، فإذا ركبْتُ مرّة في المقعد الخلفي يشغلني التحديق برقبتها التي تظهر من تحت شعرها، حيث أن بنات المدارس لم يكن محجبات في ذاك الزمن، وهي لم تشعر بوجودي أصلاً، وإن شعرت فلم تعيرني أي اهتمام، إذ كانت مزهوة بنفسها، لدرجة الخيلاء، وحقيقة كانت في قمة الأدب، وتهتمُّ بأناقته وقص شعرها أي اهتمام، وتبدي اهتمام خاصاً ببياض رقبتها.

كانت مدرسة الصلاحية الثانوية للذكور هي المدرسة الحكومية الوحيدة للفرع العلمي في المحافظة، وكان الصف الحادي عشر والصف الثاني عشر يقسم إلى أربع شعب، وفي كل شعبة لا يزيد عددهم على ثلاثين طالباً، ويتوزع طلاب كل بلدة على الشعب الأربعة، مما أفقدنا روح المنافسة وحميمية الزمالة واندفاع المشاركة، واستمرّ الحال على مدى سنتين، وكان دوام الطلبة على فترتين، الأولى فترة صباحية وفيها أربع حصص دراسية، والثانية مساءً وفيها حصتان أو ثلاث، وبينهما ساعة غداء، وأذكر أنني كنت أجاهد لفتح عيني في الفترة المسائية لشدة النعاس، فلا أكاد أسمع من حديث المعلم شيئاً، خاصة إذا كانت تلك حصص الرياضيات أو الفيزياء أو الكيمياء، فالنوم يسيطر عليّ، فيقع تعنيف المعلم عليّ كالصاعقة، مما دفع معلّم الكيمياء للحقد عليّ، وقد أهملني، فأدى إلى ضعف ثقتي بنفسي، ورغبتي في التفوق، واثبات

الذات، وأصبحت أميل للسهر مع الأصدقاء، ونتسلى بالتندر على غيرنا، وأحياناً نلعب الورق، مما زادني إرهاقاً.

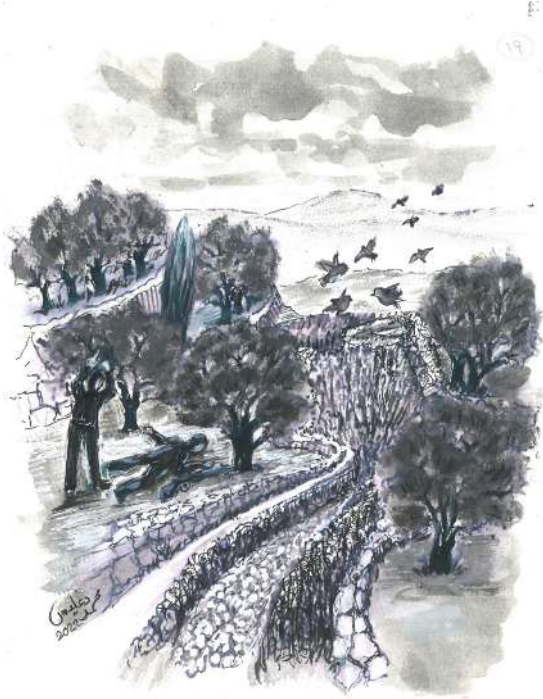
كان بعض زملائي الشيوعيون الذين يكبروني سنّاً يسعون إلى انضمامي للحزب الشيوعي، وكان الحزب محظوراً آنذاك، يمررون لي ورقتين مطبوعتين لجريدة الحزب الشيوعي بسرية تامة، يستعيدونها لاحقاً ظناً بأنني قرأتها، ونادراً ما أفتحها، كانت هوايتي قراءة الروايات، مثل رواية مجدولين والفضيلة التي ترجمها المنفلوطي، وأقرأ قصص أرسين لوبين البوليسية، وكذلك مجلة الموعد المصرية التي تعنى بأخبار الفنانين المصريين والممثلين، ومجلة العربي الكويتية، وهي مجلة ثقافية، فبعض المعلمين يوصي بقراءتها.

فإذا وقعت في الحبّ أو ما تهيأ لي أنه حبّ أو حبّ من طرف واحد يستهويني الغناء الإذاعي، مثل أغاني صباح وسميرة توفيق وعبد موسى وتوفيق النمرى، ويزدني الوله بأغاني عبد الحليم حافظ وتأوهاتة، وفريد الأطرش وتلوعاته، فأبكي من حمّى حبّ متخيّل، وفي الليل يسمو ذوقي، فأسمع أم كلثوم، وكانت ليلة الخميس الأخيرة من كل شهر تُحييها أم كلثوم في القاهرة، ويبثّها (الراديو) مباشرة للمستمعين، فكانت أم كلثوم حقّاً سيّدة الغناء العربي، ويُطلق عليها اسم كوكب الشرق، كنت أسمع ليلاً بعض المقاطع الهزلية لثلاثي أضواء المسرح، وبعض منولوجات شكوكو، وأسمع غير هؤلاء، أما فيروز فكانت حاضرة في المشهد

الغنائي أيضاً، ولم تكن أذواقنا قد نضجت بعد لسماع أغانيها الرائعة بألحان الأخوين الرحبانين.

مضت تلك السنة طويلة جداً، وأحداثها متناقضة متضاربة، ونجحت دون تفوق يُذكر، وبمقبول فقط، فقد عشقت مادة الأحياء، وتميّزت فيها، أما الكيمياء الصماء فكنت أمقتها جداً، وقد يكون معلم المادة سبباً في مقتي، ولا زلت أكره تلك المادة.

فاجعة مقتل عزيز



جاءت عطلة الصيف الأخيرة، وقبل السنة النهائية للمرحلة الثانوية، وبعد سنة مرهقة تمثل حلقة غير متوازنة في حياتي، وعادة ما يستعد الطلاب لامتحان الشهادة الثانوية العامة (التوجيهي) منذ ابتداء هذه العطلة، فيشترون كتب السنة القادمة للبدء في قراءتها، والاستعانة بمعلمين لشرحها وفهمها، إلاّ أنا فقد كنت

بأشدّ الحاجة إليها لأُسْرِّي النفس، ولعلني أَسْتَعِيدُ توازني، وأجدد همّتي ونشاطي، وأعود إلى هوايتي المفضلة، ألا وهي الصيد. كنت أتأبط الخرطوش (بارودة الصيد)، وأذهب حيث يباح المياح المنتشرة في أكناف الجبال والوديان المحيطة، ومنها: عين الشاعر وعين الخانق ونبع مقر الدبور والينبوع وعين فرخة وغيرها الكثير، أعمل سترة من أغصان الزيتون، وأجلس فيها أترقب ورود الحمام والعصافير إلى المياه، وأطلق عليها النار، فأصيد بعضها، ويفرّ البعض الآخر، تلك كانت هوايتي التي حققت لي الابتعاد عن الناس، كنت بأمس الحاجة إلى خلوة أقضي فيها معظم ساعات يومي، ملتصقاً بالطبيعة التي أعشق العيش في أحضانها، مع مواسم التين والعنب وخيراتها التي تغني عن الجوع، ووفرة الطيور بعد انتهاء مواسم تفريخها قبل شهور.

كنت اصطحب أخي الصغير نايف لم أكن متأكداً أنه سيشاركني الهوس في الصيد أم أنه يرافقني رغباً عنه، لا أزال أشعر بالذنب، فقد أكون قد أجبرته على ما لا يحب، وكنت أرفع صوتي عليه عندما نختلف، وأحياناً أضربه؛ لأنه الأصغر، كان يتحمّلني على مضض، ويبقى السؤال يلحّ عليّ: هل ظلمته يوماً من حيث لا أقصد أذيته؟ هذه الذكرى تؤلمني، وأودّ أن يسامحني على جهلي بحقه؛ لأنني أحبه، ولم يحدث أبداً أن شوّه إخوتنا أي ضغينة أو كره، هو الوحيد في هذا العالم الذي كنت لا أشعر معه بالخجل أو الشعور أمامه بالنقص.

جاء صديقي وزميلي عبد الرزاق الصلاحات من الغور شرقي
نهر الأردن لزيارتنا في العطلة، ذاك الشاب الدمث الوسيم الطيب،
فلم يحدث يوماً أن اختلفنا؛ لأي سبب من الأسباب، حضوره
ليتنا أسعد الجميع، أحبه الأهل والمعارف والأصدقاء، ذهبنا معاً
في رحلة صيد، كنّا أربعة: أنا وعبد الرزاق وأخي نايف وابن عمي
محمد رباح، أحمل بارودة الصيد وبعض رصاصات (الخرطوش)،
نسير إلى غرب البلدة، وصلنا نبع المطوي والينبوع، واستقر بنا
المقام في عين فرخة، هناك اصطدنا بعض الطيور والحمام البري،
وفي طريق عودتنا عصرًا وبعد أن قطعنا مسافة تزيد عن العشرة
كيلومترات جلسنا للاستراحة تحت شجرة زيتون، بالقرب من نبع
يُدعى عين العصافير، تمددنا على الأرض، ويبدو أننا أخذنا غفوة
قصيرة، وتركنا أخي نايف مستيقظاً لحراستنا، لم نكن قد أفرغنا
(الخرطوش) من الرصاصة المحشوة فيه، وأثناء لهوه بالسلاح
انطلقت الرصاصة فوق رؤوسنا، فزعنا يَتملكنا الرعب، لنجد
أخي قد أخذته الصدمة، ووجهه اصفرّ حتى كاد أن يُغمى عليه من
شدة الخوف، كانت عناية ربنا هي التي حمتنا على يد ذلك الولد
الطيب البسيط، وفي ضيافتنا عزيز غريب، خرجنا سالمين مما كان
سيحطم حياتنا كلّها، حقاً كنّا في منتهى الجهل، فلا نقدر خطورة ما
بأيدينا، ولا أعلم ماذا كان سيحلّ بأمّي لو حدث ما يؤذي أحدنا؟!
وأستغرب كيف أثق بصغيري ويده سلاح خطير!؟

ابن عمي محمد رباح، شاب يكبرني بسنة واحدة، شاب وسيم
طويل القامة، سمح الوجه، واسع العينين، أبيض يشوبه حمرة،

مسترسل الشعر، طيب المعشر، سلس الحديث، لا يغضب أبداً، وإذا غضب من شيء تملكه الضحك والتهكم، لا يعرف الحسد أو الغيرة، يردد أغاني عبد الحليم حافظ، لا نكد في حياته، رغم قسوة أبيه الذي تمتد يده ليحلق شعره الطويل على الصفر، فلم أشعر يوماً أنه غضبان من فعل أبيه، صاحب صوت شجي، يصدر عن عاطفة جياشة، أحبته ورافقته في السهر والتنزه، كان صنو شبابي، أقمعه فيضحك، أغضب منه فلا يغضب، أصبحنا في صف مدرسي واحد، لرسوبه في أحد الصفوف، وكان مميزاً جداً في الرياضيات، وطموحه أن يصبح شاعراً، رغم أنه فشل في اللغة العربية.

جاء محمد إلي بيتنا صبيحة أحد الأيام الأخيرة من أيام الإجازة الصيفية، وسأل أمي إن كنت لا أزال نائماً على سطح بيتنا، كعادتنا في ليالي الصيف ننام على سطوح المنازل، لتلافي الحرّ في بيوتنا، نتحمل لساعات البعوض المزعجة، وشروق الشمس الساطعة مبكراً، صعد محمد إلى السطح وأيقظني من النوم بابتسامته المعهودة، قائلاً:

- يلا قوم بدنا نروح على الصيد أنا وأنت وخالي.
- أجبتّه وأنا مغمض العينين: هل معكم خرطوش ثانٍ؟
- لا مالقيت، بكفي خرطوشكم.
- ما بدي، خليني نايم، معقول ثلاثة بخرطوش واحد، ما بنفع يا صاحبي.

حاولت أُمِّي ثنيه عن حمل (الخرطوش)، وادّعت أنها لا تعرف مكانه، فبادرها بالقول:

- أنا بعرف مكانه، محمد يضعه خلف الباب..

تناوله بسرعة، وحمله على كتفه، بصحبة خاله، وتقول أُمِّي:

- لقد اعجبني مشيته وثقته بنفسه.

صحوت من نومي ولا أعلم وجهته، تمنيت لو رافقتهم، وقع خبر مقتله بطلقة (الخرطوش) عليّ كالصاعقة، وكنت ما بين مصدّق ومكذّب، قتل بالقرب من «عين فرخة»، يا لهذا القدر المحتوم، صرخت بصوت مخنوق، جلست على التراب حاملاً رأسي بين يدي في بكاء متصل، اسودّت الدنيا في عينيّ، فاحتضنني صديق الطفولة فارس قدري، وبكىنا بألم وحزن ملؤا الأرض.

وقفت مترنحاً، وقدماي لا تحملاني على السير، ذهبنا إلى «عين فرخة» مشياً، وهي تبعد عنا ما يقارب الخمسة كيلومترات، في الطريق نجلس في بكاء متواصل، نتجرع ألم الفراق ومرارة الخسران، نتابع مشينا بصعوبة، إلى أن وصلنا الموقع، كان جسد محمد ممدداً بجانب الزيتون التي تشهد لقاءاتنا ولعبنا وضحكنا، مغطى (بشرف)، بقيت بعيداً فلم أجرؤ على الاقتراب منه، ينتشر الناس بأعداد كبيرة تحت الاشجار وبجوار السناسل الحجرية، كان الجميع واجمين بانتظار والده والطبيب الشرعي وضابط الشرطة، الذين وصلوا قبل المغرب بقليل، كان والده أكثر صلابة

وصبر وجلد منّا جميعاً، وبعد أن كشف عليه الطبيب، وأعلن سبب وفاته، تلك الطلقة التي استقرت في رثته.

استجوب ضابط الشرطة خاله الذي رافقه في رحلة الصيد، فأجاب خاله: كنّا على وشك مغادرة المكان، حينما سحب محمد (الخرطوش) من بين غصني شجرة الزيتون، فانطلقت الرصاصة وأصابته في مقتل، كان الدم يتدفق بغزارة، حاولت إسعافه، الدم تدفق من فمه، وهو يردد: خالي. وأخذ يبكاء هستيري..

سجّلت الحادثة قضاء وقدرًا، وأمر الضابط بمصادرة السلاح، وتم التحقيق معي في مخفر الشرطة، ثم في محكمة أمن الدولة في القدس باقتنائي سلاحاً غير مرخص، وواظبت على حضور جلسات المحكمة إلى أن قامت حرب حزيران من عام سبعة وستين، فضاعت القضية مع ضياع البلاد، ومن ذاك اليوم لم أعد أحب الصيد والسلاح، وأشفت على الطيور التي ترصدها في حياتي.

غادر الجميع المكان، حاملين جثمان محمد في سيارة شاحن صغيرة، وجلست بجانبه جثمانه، كان جسده غضاً بارداً كالثلج، أدركت حينها أنّ محمداً غاب عنا للأبد، في تلك الليلة دُفن صديق العمر الذي أحببته كثيراً، ومَرَّت الأيام ثقلاً، ولم يملأ الفراغ أحد.

لم تمض أيام حتى عدتُ لمدرسة الصلاحية، وأتممتُ السنة الأخيرة من دراستي الثانوية، كانت سنة حزينه كثيبة، كنت حينها كثير الشرود، ومراراً سألني أصدقاء الدراسة عن محمد رباح،

فما كان إلا أن أغالب دموع عيني بصمت، أخبرتهم بما حدث، فابتعدوا عني، وابتعدت عنهم، كأنني السبب فيما حدث، أو لعلنا جميعاً لا نريد الحديث عن ذاك اليوم المشؤوم، أراه في منامي، فتفزعني الأحلام، استعيد جلساتنا ومرحه، فتنهمر دموعي، وأذكر الحلم الذي تكرر كثيراً أثناء دراستي في تركيا، جاءني مرّة ركباً حصاناً أشهب، ومرّة أراه ولا يكلمني، فأسأله:

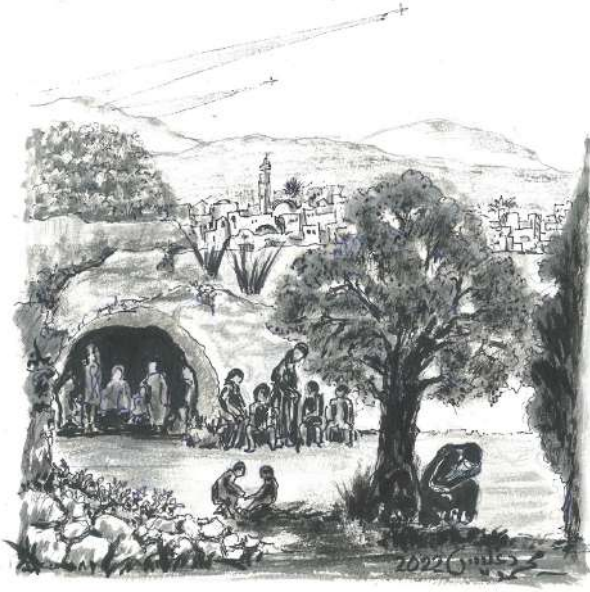
- وين كنت يا صديقي، وين رحت؟ وشو غيرك يا زلمة؟ قالوا
إنك متّ؟!

فأجاب:

- أنا موجود، لكن لا أحد يراني؛ لأنني لا أكلم أحداً منكم!
يظهر كثيراً في أحلامي، فلا يكثرث لأحد، ولا يمزح كعادته، في حين أكون شديد الفرح بلقائه، أريد احتضانه، لكنه لا يتجاوب مع مشاعري، وليس لديه ردّة فعل كما عهدته.

مرّت أيام السنة الأخيرة بطيئة مملة، أذهب للمدينة صباحاً وأعود مساءً، كنت أستعجل الزمن لتنتهي تلك السنة الطويلة، أحياناً أنام عند صديقي عبد الرزاق الذي يسكن في نابلس، نتدارس مواد الرياضيات، فهو من الأصدقاء المخلصين، ولا أنسى محاولاته لإعادتي إلى طبيعتي التي نشأت عليها قبل الحادثة، يشتري فرخة بنصف دينار ويحمّصها بالزيت والبصل فتكون وليمتنا، نأكلها سوياً مع أصدقائنا، ونلهو قليلاً.

حرب حزيران عام سبعة وستين



بدأت الحرب قبل يومين من انتهاء الامتحانات الثانوية العامة (التوجيهي)، تبث الإذاعات المسموعة والمرئية والأخبار المتواترة عن الاستعدادات والتدابير، وتملاً أسماعنا الأغاني الوطنية، التي تمجد العروبة، تغشى الأبصار صور صواريخ القاهر والظافر والطائرات، بات وشيكاً تحرير الأوطان، ما أعظم تفاؤلنا وأحلامنا! وفجأة صدحت المدافع، ودوى صوت الرصاص،

وغمرنا الأمل باسترداد الحقوق المغتصبة في فلسطين، وبقيت أبواق الإذاعات تبشّر بالنصر المؤزر وإسقاط العشرات من طائرات العدو، وبعد منتصف تلك الليلة قنابل مضيئة في سماء البلدة، وحوّلت الليل إلى نهار، ثم دوى قصف صاروخي طال القريب من بيتنا، واهتزّ البيت، وانخلعت الأبواب من أماكنها، وتكسر الزجاج، وسقطت الشبايك، وتناثر كل شيء، فخرجنا مذعورين من البيوت إلى الخلاء، كان القصف يطال كل شيء، ولم تقع إصابات بين الناس، رغم شدة القصف، وكأن الهدف إثارة الرعب في قلوب الناس، وخلق حالة من الذعر، وتحطيم المعنويات.

ترك الناس بيوتهم في صبيحة اليوم الثاني، ولجأوا إلى المغاور المنتشرة في محيط البلدة وأطراف الجبال، حاملين معهم ما تيسر من المتاع والطعام، نتخذ من المغاور مناماً للنساء، وخارجها ينام الرجال، وبقيت البيوت بعيدة.

بعد يومين لبّى شباب البلدة نداء التطوع للدفاع عن الأرض، والتحقوا بمركز شرطة البلدة، وتجمّعوا في ساحة مبنى دار البلدية، وحضر ضابط الشرطة، وشكل فريقين، فريق للدفاع المدني وإطفاء الحرائق، وفريق للمحافظة على الأمن في محيط البلدة وداخلها.

تمّ اختاري مع فريق الأمن والدفاع عن البلدة، خاصة أنني وبعض زملائي تلقينا تدريباً عسكرياً في مرحلة المدرسة الثانوية، كان معظم التدريب يتعلّق بالمشاة، وأداء التحية العسكرية، وزحف

القردة، وزحف التمساح، وبعض تطبيقات فك السلاح وتركيبه،
والرماية على أهداف ثابتة، خمس طلقات من بندقية إنجليزية لم
تصب الهدف، ولربما بعضها أصاب.

أُلقيت على مجموعة الدفاع المدني محاضرات عن الإسعافات
الأولية وإطفاء الحرائق، وتسلمنا هراوات فقط، وفي اليوم الرابع
والخامس تجلّت الصورة المأساوية للحرب، ولم نصدّق ما يُشاع
عن هزيمة جيوش دول الطوق، والجيش العراقي الذي تورط في
الحرب، ودخلها متأخراً، واحترقت دباباته وعرباتهِ العسكرية من
على بُعد كيلو مترات غربي نهر الأردن، ولم يصل حدود الضفة
الغربية، والجيش السعودي الذي وصل مدينتي معان والكرّك،
وبعض طلائعه وصلت عمّان فقط.

في مساء اليوم الخامس بينما كنت أتجول مزهواً بهراوتي،
وصل ابن خالتي قادماً من نابلس، فرأني اتبختر في الشارع، توقف
وسألني:

- شو هذا إالي معك؟!

- أنا متطوع للدفاع عن البلد.

- طيب وين سلاحك؟!

- ألا ترى هذه الهراوة المهولة؟

- روح شوفلك محل تخبّي فيه أحسنك، ها هم اليهود قادمون،
وصلوا في نابلس.

- (قلت بعصبية): انت كذاب، طابور خامس، محبط ومنهار!

- وَلَكُ رَوْحٌ قَبْلَ مَا يُوْصِلُوهُنَّ إِلَى الْيَمِّ، وَيَحْشَوْنَ الْعَصَا فِي ط ..

وقع كلامه عليّ كالصاعقة، ولا أستطيع التفكير في أي شيء،
وبتنا تلك الليلة وما تلاها من الليالي لا نخلع ملابسنا، ولا
أحذيتنا، ولا يكلم بعضنا بعضاً، أصبنا بالذهول والحنق والقهر،
ونحن نرى دخول جنود ومجندات جيش الاحتلال البلدة،
يتقدمون بناقلاهم المكشوفة، يتوقفون كل مئة متر وقفة قصيرة،
ثم يتابعون اختراقهم للبلدة، من شرقها إلى غربها، وهم يستلقون
على عرباتهم، يضحكون ويغنون.

عشية تلك الليلة وقبل الاقتحام علمنا أن الجيش قد وصل إلى
مشارف البلد، وعسكر هناك، وهم يطلقون أعيرة نارية في الهواء،
ويلهون في ليلة لا نوم فيها، اعترتنا الهموم والمخاوف، تجاذبتنا
الأفكار من سيء إلى أسوأ، وما بيدنا حيلة، لا نأكل ولا نشرب
ولا نتكلم، وأخيراً نطق كبيرنا، ابن خالتي الذي خدم في الحرس
الوطني الأردني المتجهم الوجه المقهور:

- شو رأيكم أن نقتل أخواتنا البنات؟ فعندي بندقية!

- فاجأنا باقتراحه الغريب، فأجبنا: وَلَ ليش؟!

- عشان ما نشوف اعتداء اليهود عليهم أمامنا!

- يا زلمة صليّ عالنبى، نموت قبل أن نرى بأعيننا أي اعتداء
على امرأة.. إلا هذه!

اعتدل والده العجوز، ورد عليه: انكتم واخرس..

ساد صمت كئيب.

أثناء تقدّم رتل الجنود نحو البلدة شكّل وجهًاؤها وفدًا لملاقاتهم، وعندما اقتربوا أطلق الجنود الرصاص في الهواء، فتراجع بعضهم، وبعضهم حمل علمًا أبيض، علامة السلام أو الاستسلام، يتقدمهم رئيس البلدية حسن الزير، ذاك الرجل الحكيم، والتقى بقائد العدو، وقال لهم: إنّ البلدة مسالمة، ولا حول لهم ولا قوة، ومطلب أهلها أن لا يعيث الجنود فسادًا بالبلدة، وأن لا يعتدوا على أحد، وهذا ما كان.

تقدم الجنود إلى أن وصلوا المقاطعة ومخفر الشرطة، فوجدوها فارغة، ودخلوا البلدية، وسلّم الناس خراطيش ومسدسات مهترئة وبندقيتين، حصلوا عليها زمن الجيش التركي، مما أثار استغراب الضابط، وتساءل: ما هذا الشعب الذي يريد تدمير إسرائيل، ولا يملك شيئًا؟! وهكذا احتلت البلدة، دون مقاومة، ولم يعتد الجنود على أحد، ولم يمسّوا ممتلكاتهم الخاصة.

كانت تلك أيام سوداء في حياتي، كانت كابوسًا لم يخطر على ذهن أحد، وغشي البلدة حزنًا مقيتًا، لا أحد يعمل، ورجالها يجلسون في المقهى وفي الساحة العامة واجمين، لا دردشات ولا لعب ورق ولا شرب قهوة، تغشاهم خيبة الجيوش العربية التي انسحبت من أراضي ثلاثة دول عربية، واحتلها العدو، وبعض

الجنود العرب الذين استبسلوا في القتال، ونفدت ذخيرتهم، فأخفوا ملابسهم العسكرية وأسلحتهم المستهلكة، استضافناهم عندنا وألبسناهم من ملابسنا .

سادت الإشاعات بين الناس أنّ هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي سيعيدان الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحرب، ومضت الأيام، مبعوث حضر ومبعوث غادر، ولم يتغيّر الحال، وعشنا خيالات وخزعبلات وأضغاث أحلام.

خرج المرحوم الملك الحسين عشية هزيمة الجيوش العربية يدعو الشعب للمقاومة، ووجه المرحوم عبدالناصر خطاباً حزيناً للأمة العربية، وإنه يتحمل المسؤولية، وقدم استقالة، فخرجت المظاهرات تطالبه بالبقاء، وتبادل العلمانيون والإسلاميون الاتهامات بمسؤولية الهزيمة، وما آلت إليه الأمة العربية من تخلف، وطالت تلك التهم عمالقة الغناء العربي، وصار للمحتل حدود تصل نهر الأردن وقناة السويس وريف دمشق.

رحلة على غير هدى



مرت أيام حزينة دون الشعور بقيمتها، بدت كحلم بغيض في لحظة ضياع ويأس وملل، فكان لا بدّ لي من البحث عن التغيير، لذا قررت أن أغادر بلدي إلى أي مكان، قاذني تفكيري أن تكون وجهتي شرق الأردن، قصدتُ صديقي عبد الرزاق الصلاحات، كانت بيوتهم شرقي النهر أقرب ما تكون إلى بيوت فلسطين، ها هي قرية «الديات» قلب غور الأردن، بيوتها طينية على أرض

زراعية، يفصلها عن النهر شجيرات غورية كثيفة، هجرها أصحابها وقت الحرب، واتخذوا من منطقة «الصيحي» سكناً لهم.

أردفني أحد أقارب صديقي عبد الرزاق على جناح تراكتور زراعي، وأخذني إلى حيث يقيمون، سالكين طريق العارضة المتعرج الصاعد من الغور الأوسط، ثم إلى السلط، كان الطريق كثير الحفر، ضيق العرض، حاد الميل، لدرجة أنني كدت أن أسقط من مكاني أكثر من مرة، وصلنا إلى مكان منبسط، تربته حمراء، مزروعة أشتال الدخان، في وسطها منطقة صخرية، تنتشر فيها أشجار ضخمة من البلوط، وهناك نصبت بيوت من الشعر (خيم) لجميع عائلة صديقي وأبناء عمومته وأقاربه كقرية بدوية صغيرة.

جمعتني الأيام وصديقي وأهله، تبادلنا سلاماً حاراً، واحتضاناً طويلاً، ودموعاً غزيرة، ساد لقاءنا الشوق أكثر من الكلام، لم يكن صديقي يعرف ماذا حدث لنا غربيّ النهر، أتعبه القلق على مصيري، مما جعل لقاءنا مؤثراً جداً، لن أتركك تذهب لأي مكان، ستبقى معنا، تبسم عبد الرزاق وهو يُسمعني قراره.

كنا في ظلال أشجار البلوط، نقضي معظم ساعات النهار نشرب القهوة العربية، نأكل ما تيسر من الطعام، تصنع الأخوات خبز الشراك على الصاج، ويقلي العم أبو العبد بعض الخضار التي يحضرها من الغور في ذهابه وعودته، يمتطي أحياناً بغلته، عابراً بين الجبال، وإذا تيسرت له وسيلة انتقال يذهب ويعود في اليوم نفسه.

لا تخلو أحاديث الرجال من الطرافة والمتعة، تنتقل من مكان لآخر، كل حسب حركة الظل، ونستمع لمغامراتهم وأسرار حياتهم، نسير أنا وصديقي وابن عمه بين أشجار البلوط، نذهب أحياناً إلى نبع الماء، ونعبي مواعين الماء الجلدية، ونساعد الصبايا في تحميلها على الحمير، لم تكن تخلو تلك الممارسات من المرح والتعليقات البريئة المتبادلة مع الصبايا.

كانت بيوت الشعَر مقسومة إلى مساحتين، واحدة للرجال وأخرى للنساء، أما قضاء الحاجة فكان في الهواء الطلق، وعلى مسافة بعيدة من البيوت، والاستحمام نادر ما كان في خيمة عامة مخصصة لهذا الغرض، ونستخدم سطل بلاستيك وعلبة صغيرة لدلق الماء على أجسادنا، هكذا كانت تمضي الأيام سهلة، لا عمل ولا مسؤوليات، رغم أنها بطيئة إلا أنها مريحة، وأكثر ما فيها المصادقية، ودفع العلاقات الإنسانية، كانت فرصتي لاستعادة حضوري، ولملمة شتات نفسي.

أمضيت وقتاً طويلاً بين هؤلاء الأخوة الطيبين، إلى يوم إعلان نتائج امتحان الثانوية العامة (التوجيهي)، ذهب أبناء عمومة صديقي إلى عمان كي يستطلعوا النتيجة من الوزارة، وانتظرت أنا وصديقي بجانب (راديو الترانستور) الصغير المربوط بمجموعة من البطاريات الكبيرة، الذي يعدد أسماء الناجحين في بث مباشر طويل، جلسنا تحت شجرة بعيدة حتى عصر ذاك اليوم، جاء دور نتائج مدرسة صديقي (الروضة نابلس)، ولم يكن اسم عبد الرزاق

من بين أسماء الناجحين، تألمت أكثر منه، أصابتنا حالة من الذهول، فلم أعد أشعر بما يدور حولي، إلى أن جاء دور نتائج مدرستي (الصلاحية نابلس)، سمعت اسمي من بين أسماء الناجحين، مرّ الاسم كحلم، لم أكد أسمع، فاحتضني صديقي مهناً بنجاحي، عدنا إلى البيت ساعة الغروب، عاد أبناء عمومته من عمان بخبر النتيجة، فقال العم أبو العبد للمجتمعين: لدي ولدان، أحدهم ناجح والآخر رسب، وقدم القهوة العربية للجميع، ووزع حبات الملابس (الحامض الحلو)، كنت خجلاً بينهم، ولم أشعر بالفرح كما حلمت.

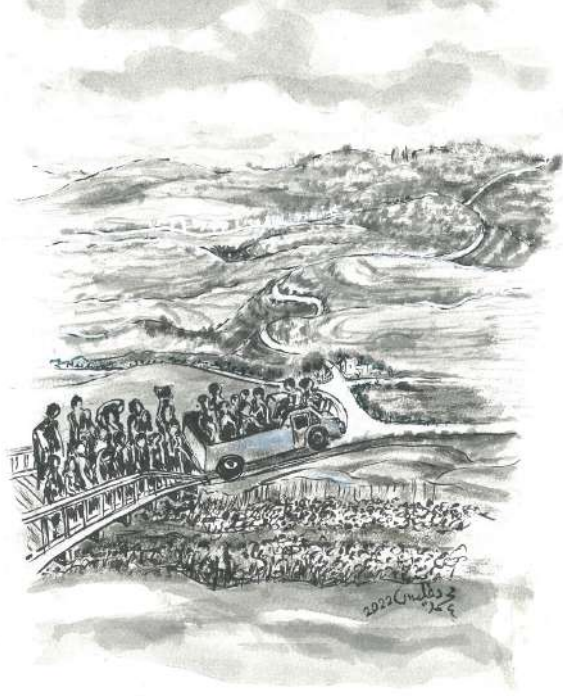
قررت بعد يومين الرجوع إلى الأهل في الضفة الغربية، كان طريق العودة بالتهريب ليلاً بين الجبال، لم تكن هناك حدود ولا نقاط عبور آنذاك، ودّعهم بشوق يزف الأمل بلقاء قريب، مشيتُ وصديقي عبد الرزاق إلى مفترق الصبيحي على طريق السلط، احتضنته مودعاً بدموع سخية، لم أره يوماً يبكي كمثّل هذا اليوم، ركبنا أول واسطة مواصلات إلى الأغوار (الصوالحة)، ومن هناك ركبنا (تراكتور زراعي) حتى وصلت بيوتهم قرب النهر، حيث كانت عمّة عبد الرزاق قد عادت لبيتها، وكان عليّ أن انتظر ليحلّ الظلام وألتحق بأيّ متسلل إلى فلسطين. نمت قليلاً في ساحة البيت بعد العشاء، وأحسّت عمّتنا أمينة بمرور عائلة متسللة، فأيقظتني قائلة: الحق بهم، كان الظلام دامساً، ولم أكن أحمل معي أي شيء، أسرعنا باللاحاق بهم، فإذا هم رجل وامرأة وطفلان، سلّمنا عليهم، وعرّفت بنفسي، وطلبت مرافقتهم، وافقوا دون

اعتراض أو اكتراث، يبدو أنهم كانوا يعرفوا طرقاً محددة لعبور نهر الأردن، أماكن تكون فيها المياه الجارية ضحلة (ملاحات)، ولشدّة الظلام لم أتعرف على وجوههم، كانت أصواتهم لطيفة.

وصلنا النهر، ولم أكن أعرف عمق المياه، ولكن الرجل يعرفها جيداً، كان يحمل على كتفه كيساً، لا أعرف محتواه، وقد يكون بعض المهربات كالسجائر أو غيرها. حمل كيس المرأة على ظهره، وحملتُ أحد الأطفال، وحملت المرأة الطفل الآخر، قطعنا النهر بسهولة، وبهدوء تام دون ضجيج، ولم نلاحظ أحداً آخر، فقط كانت صمت الليل الرهيب، وعلينا أن نبتعد سريعاً عن النهر، وتركنا خلفنا الأغوار وجبال السلط شرقاً، واتجهنا غرباً نصعد الجبال، ونهبط الوديان، نتعاون على حمل الأطفال والأكياس، لم أشعر بالتعب، رغم أن العرق قد بلل ملابسي، ولعل الرغبة بوصول الأهل هو الهاجس الذي دفعني لتجاوز الصعاب، نمشي ليلاً، وإذا سمعنا صوتاً نختئ، أو إذا لاح ضوء سيارات الجيش الإسرائيلي سواء أكان قريباً أو بعيداً، إلى أن شق ضوء الفجر وأضاء طريقنا تعرّفنا على وجوه بعضنا، كان الرجل والمرأة ذا بشرة سوداء، والأطفال بسمرة جميلة، أكملنا مسيرنا حتى وصلنا شارعاً معبداً على جانبه ساقية ماء، غسلنا وجوهنا وأرجلنا من الوحل والعرق، ومرّت بنا سيارات يبدو أنها تتجول في المنطقة لالتقاط المتسللين، استقلّ الذين رافقتهم سيارة إلى طولكرم، وركبتُ سيارة إلى نابلس، وهناك اشتريت قميصاً مستعملاً، لبسته فوق قميصي المتسخ، واتّجهتُ إلى موقف سيارات سلفيت.

فرحت أمي وإخوتي وخالاتي بعودتي فرحاً لا يوصف، بعد أن
يُسوا من عودتي؛ لأنهم لم يسمعوا خبراً مذ غادرتهم، وهناك مَنْ
عاد من أهل بلدي وقد أخبرهم أنه لم يرني ولم يسمع عني خبراً،
وزاد قلقهم وحزنهم وفقدوا الأمل بعودتي بعد أن سمعوا عن أناس
قُتلوا على الحدود أثناء تسللهم، أكرمتني أمي بطعام جديد كل يوم
عوضاً عما سبق، ولم تدم سعادتهم طويلاً بعد أن قررت الخروج
ثانية لآكمال دراستي في عمان.

الرحلة إلى المجهول



خالج أُمِّي شعور أن سفري سيطول، فأعدت صرّة من ملابسي،
وبعض ما أحتاحه، وكانت تجهد في إخفاء دموعها، وتبدي بسمة
تشجيع رسمتها على وجهها بجهد شديد، ودّعني بفارغ الصبر في
صبيحة يوم يفصل الصيف عن الخريف، وقبل ركوب السيارة
المتجهة إلى «جسر دامية» على نهر الأردن احتضنتني بدعاء
ودموع مخنوقة.

وصلت إلى نقطة جيش الاحتلال على الجسر، حيث كان المحتل يسمح للناس بالخروج والرحيل إلى الشرق، ولا يسمح لأحد بالدخول من الشرق للغرب، ويسألون المغادر عن اسمه فقط، أعطيتهم اسماً غير اسمي، ولا يطلبون وثائق، فلا أريد لنفسي التنازل عن هويتي الفلسطينية، وإن لم أستطع البقاء حراً فيبقى اسمي حراً.

كان الناس يقطعون المسافة بين نقطة العبور غربي النهر إلى شرقه مشياً على الأقدام، ويحملون بأيديهم وعلى رؤوسهم الأمتعة، وسيارات على الجهة الشرقية تنتظر النازحين، فيركبونها وبعضهم يتسلق ظهرها بعشوائية، ووجوههم مكفهرة حزينة. ركبت ظهر سيارة في رحلة مزعجة حتى وصلت الى ما يسمى آنذاك المثلث المصري قرب الشونة الجنوبية حالياً، ومن هناك ركبت سيارة إلى عمان، والتقيت بأحد أقاربي، اصطحبني للمبيت في فندق نهر الأردن الكبير، وهو عبارة عن تسوية بناية واسعة، مفتوح على حديقة أمامية متواضعة، ويقع بجانب أحد الأدراج المؤدية إلى جبل عمان، وقبل النوم أكرمني قريبي بعشاء قلاية بندورة باللحمة، لا زلت أتذوق طعمها اللذيذ، وجلسنا في حديقة الفندق الأمامية، فلا أملك من المال إلا القليل، فكان عليّ أن أجد مأوى لا يكلفني نقوداً، فقررت الذهاب إلى بيت أحد أقاربي في الزرقاء، فمن الممكن أن يستقبلني لمدة محدودة، كان عمي موسى يسكن في مخيم جناعة في مدينة الزرقاء منذ أن هاجر إليها في عام ١٩٤٨، وصلت (دكان أبو أحمد)، وهو من كبار عائلتنا،

وكان دكانه عبارة عن ممر يُفضي إلى حوش خلف الغرفتين التي يسكنهما مع أسرته، ووجدت اثنتين من أبناء بلدي قد سبقاني إليه، وهما ليسا من أقاربنا، إلا أن كبير العائلة يعلم مقدار المعاناة التي عاشها في حياته، أخذته الرأفة بنا، وأفسح لنا مكاناً في إحدى الغرفتين، فأرسل ابنته من زوجته الأولى كي تنام عند دار شقيقها، وحشر نفسه وأبناءه وزوجته في غرفة واحدة، وترك ثلاثتنا ننام في الغرفة.

بعد عودة الحاج موسى من صلاة الفجر يفتح دكانه، وقبل طلوع الشمس يوقظنا، فيخرج كل واحد منا قاصداً طريقه، كنت أسير في شوارع المخيم الترابية، ومن هناك أصل مركز المدينة، فلا أجد إلا عمّال النظافة، الذين يجوبون سوق الخضار، فأضطر إلى ركوب الباص قاصداً عمّان، حيث ألتقي أبناء بلدي، فقد اعتدنا أن نلتقي إما في مقهى شعبي وإما نقصد مقهى العاصمة مقابل البنك العربي، نتقصى أهل بلدتنا، وأحياناً نقصد فندق الرياض، الذي يأوي المقطوعين من أهل بلدي، فنعلم بأخبارهم، ونتلقى رسائل أهلنا، فهو همزة الوصل بيننا، ومن يُرد أن يسمع خبراً من قادم إلى عمان، ففي الفندق الخبر اليقين، وكان يقيم فيه أحد شباب بلدي بشكل دائم، فيقصده بعض التجار وسائقي السيارات بين عمان وسلفيت.

كانت في عمان أولى محاولاتي ومحاولة زملائي في البحث عن عمل، كي نعتاش منه، وإن كانت فرص العمل نادرة جداً؛ لكثرة

النازحين من فلسطين إلى الأردن، فامتلات المخيمات بالناس، وتوزعوا ما بين مخيم البقعة قرب صويلح، ومخيم شنلر قرب الرصيفة، وعشر زميلي على عمل في شركة، أما أنا فعملت كاتب استدعاءات على الرصيف، أمام مكتب تسجيل النازحين، في مبنى يقع أول طلوع الحايك باتجاه جبل عمان، اشترت ماعون ورق وورقتي كربون أزرق وقلم حبر أزرق جاف لهذا الغرض، وكنت أتقاضى خمسة قروش عن كل استدعاء أكتبه لأحد العجائز الراغبين بالتسجيل في قوائم النازحين.

أصبحت عمان هي مكان رزقي ومعارفي وأصدقائي، أزور (بيت أبو رياض قدرى)، وهو ابن خالة أبي وأبناءؤه من جيلي، أسهر عندهم، حيث يقع بيتهم في جبل الأشرفية، وأتعشى معهم، وأحياناً أنام في حوش بيتهم، وتركت بيت عمي في الزرقاء، وأقمت في فندق الرياض برفقة صديقي تيسير الشنار.

ينام العشرات من الشباب على سُرر حديدية على سطح الفندق، فغُرف الفندق لا تتسع لكل هؤلاء، وكان أجرة المنامة على السطح أقل من الغرفة، بعشرين قرشاً لليلة واحدة، وأتناول وجبة طعامي في مطعم الكلحة، وهي عبارة عن صحن بامية فيه رائحة اللحمية وصحن أرز وكثير من الخبز، وثمان الوجبة اثنا عشر قرشاً، أما باقي وجباتي من الفلافل أو على حساب الكرماء، وكان ما أصرفه في أسبوع ديناراً واحداً.

سعتُ للحصول على جواز سفر، وكنت أذهب صباحاً لدائرة الأحوال المدنية، وأعود بعد انتهاء الدوام، ولم يصلني الدور،

وعندما وصلني الدور كانت وثائقي الشبوتية غير كافية، فاحتاج إلى وثائق أخرى من سلفيت، كما أحتاج لصورة عن جواز عمي، فقصدت مدير الجوازات، ورجوته والدموع تسيل على خدي لتيسير طلبي بحجة للدراسة فقط، فأمر بإعطائي جواز سفر لسنة واحدة فقط، كدت أطيّر فرحاً.

كان طموحي بمواصلة تعليمي الجامعي مثل زملاء الدراسة، فقد قضيناها سوياً، اثنا عشر عاماً من الصف الأول الابتدائي إلى التوجيهي، كان عددنا ستة طلاب، كيف يكون لي ذلك ومعدل علاماتي في التوجيهي لا يتجاوز السبعين بالمئة، ولا أملك النقود؟! كنت أطمح بدراسة الطب أو الهندسة، ولم يكن في الأردن سوى الجامعة الأردنية، وفيها كليات الآداب، وبعض العلوم والزراعة فقط، ولم يكن فيها ما أطمح إليه.

ذهب غسان وفارس إلى جامعات مصر، وسافر أحمد وجهاد إلى جامعات إسبانيا، وسافر عبد العزيز إلى يوغسلافيا، وبقيتُ في عمان وحيداً، فازدادت الدنيا في عيني سواداً، وتسلسل الإحباط واليأس إلى نفسي، وفقدت الأمل.

ضوء في نهاية النفق



ذات مساء التقيت شاعر عفانة أحد أبناء بلدي مصادفة في فندق الرياض قادمًا من سلفيت، وكان أكبر مني سنًا بستين أو ثلاث سنوات، وقد أنهى دراسته الثانوية في السنة التي أنهيت فيها دراستي الثانوية.

أعاد امتحان الثانوية العامة ثلاث مرات؛ بسبب مادة الإنجليزى، رغم أنه عبقرى بالرياضيات، وهو شاب مهذب جداً ودمث ومن

عائلة ميسورة نسبياً، ولم يكن شاكر عفانة من أصدقائي، لكنه أخبرني برغبته في السفر إلى تركيا لدراسته الجامعية، وتكفل أخوه المغترب في السعودية بمصاريف دراسته، وكان يشجعني بالسفر معه، وجامعات تركيا غير مكلفة ولا تلتفت إلى مستوى معدل علامات التوجيهي، وكما يقولون العين بصيرة واليد قصيرة، فالسفر والدراسة تحتاج للمال.

في الشهر العاشر من عام ١٩٦٧ وجدت في الفندق رسالة بانتظاري، رسالة من شاكر عفانة من اسطنبول، يخبرني أن تكاليف السفر إلى اسطنبول لا تتجاوز السبعة دنانير، وإن العيش هناك مُيسر، وليس تعلّم اللغة التركية بأمر صعب، ويحثني على السفر بأي ثمن كان، فلم استطع النوم عشية قراءة رسالة شاكر، وأمضيت تلك الليلة أفكر بالسفر، وأصبح هاجسي السفر بأي طريقة وأنا لا أملك إلا عشرة دنانير، ولا أستطيع طلب النقود من أمّي، فهي أحوج ما تكون لتدبير عيش أخواتي وأخي وتعليمهم، والتواصل مع أبي في البرازيل صعب جداً، فيحتاج وصول الرسالة إليه شهراً كاملاً، والرد عليها شهراً آخر، وأذكر أنه أرسل لنا مبلغاً من المال أثناء الحرب على البنك العربي بنابلس، ولم نستطع استلامه من البنك، فالحرب أغلقت البنوك في الضفة.

حضر ابن خالتي صالح الجرن قادماً من سلفيت إلى عمان، وهو تاجر زيت، ويسعى لتحصيل ديونه من التجار، التقيته رغم ما كان بيننا من خلاف، إلا أن ظروف الحرب وظروفي خاصة

وحالي وضعف جسمي كان سبباً كافياً لمحو الأحقاد، عاملني بلطف أكثر مما أتوقع، مما شجعني بطلب المساعدة المادية، وأخبرته برغبتي في السفر إلى تركيا للدراسة الجامعية، ففضل عليّ وأقرضني عشرين ديناراً، على أن يستردها لاحقاً من أمي في سلفيت، فأصبحت أمتلك ثلاثين ديناراً، وقررتُ السفر إلى اسطنبول.

قصدتُ ابن عمي أحمد (أبو عدنان)، وهو صاحب محل تجاري في حصة الخضار في الزرقاء، ورجوته أن يكفلني بتأجيل خدمة العلم العسكرية مجنداً، فوافق على مضض، سافرتُ بسيارة تكسي أمريكي موديل قديم من العبدلي في عمّان إلى دمشق، بأجرة دينار واحد، ومنها إلى اسطنبول.

محطات على طريق دمشق حلب اسطنبول



نزلتُ من السيارة في ساحة المرجة بدمشق، ومشيت على غير هدى إلى سوق الحميدية، تأخر الوقت، والوصول لحلب مستحيل، فكرتُ في المبيت في فندق، وتذكرت حينها أن لي عمّة متزوجة تسكن في الشام، ولا أعرف الوصول إليها، فذهبت مشياً إلى ابن بلدتي شكري الذي يدرس في كلية الآداب بجامعة دمشق، وكان شكري شخصية معروفة بين طلبة الجامعة، فالتقيته

وهو الذي أوصلني إلى بيت عمتي في حارة الفاخوره بالقرب من مشفى المجتهد، وصلت بيتهم الدمشقي القديم، عمتي التي لم أراها منذ أكثر من عشرة سنين، منذ زواجها في سلفيت. كان لقاؤنا حاراً جداً، وفرحت وزوجها كثيراً وهما يسمعان أخبار الأهل وبلدتنا بعد الحرب. حُظيت بنوم مريح وطعام لذيذ، ولم يسمحوا لي بالسفر وأقمتُ يومين في ضيافتهم، واشتريتُ ملابس من سوق الحميدية تقيني برد شتاء تركيا، فاشترت من بائع متجول جاكيتاً طويلاً مستعملاً، له صفان من الأزرار، ألبسني إياه البائع، قائلاً: تمام على قدك، كأنه مفصل بمقاسك، شعرت بأنه كبير، لكنه ثقيل ودافي ورخيص الثمن، فقط بست ليرات سورية، أي ما يعادل النصف دينار أردني، اشتريته رغم أنه يمكن بمقاس (ريغان) رئيس الولايات المتحدة آنذاك.

اشترت ما يمكن ان يكون ضروري، وبما لا يزيد على الدينارين فقط، ونمت تلك الليلة في دار عمتي وتناولت عشاءً دسماً، وفي صبيحة اليوم التالي ركب السيارة متجهاً إلى حلب، توقفنا لاستراحة قصيرة في معرة النعمان، واشترت سندويشة غسل بشمعة، وانطلقنا من هناك مباشرة إلى محطة القطار في حلب، ولحسن حظي أن رحلة القطار إلى اسطنبول كانت في اليوم نفسه مساءً، مما وفر الوقت للذهاب إلى سفارة تركيا والحصول على تأشيرة دخول، وعدت إلى محطة القطار، واشترت تذكرة على قطار اكسبريس الشرق السريع، في درجة الثالثة؛ لأنه لا يوجد درجة رابعة، ويلي عربتنا عربة الأغنام والحيوانات، وهي أرخص

تذكّرة في القطار، وكان ثمن التذكّرة خمسة دنانير أردنية، وهكذا قد وفّرت أجرة النوم في الفندق ليلية واحدة.

في كل غرفة من الغرف الصغيرة التي تتكون منها كل عربية من عربات القطار صفان متقابلان من المقاعد الخشبية، يتسع كل صف إلى ثلاثة أشخاص، وفوق المقاعد رفوف خشبية لوضع الحقائب والحاجيات، ويوجد أمام الغرف ممر طولي، تفتح أبوابه للحركة فيما بينها، والتنقل بين عربات القطار، ومنه يتم الاطلالة على الجهة المقابلة (الأمامية) بالنسبة لمجموعة العربات، وللغرفة شباك زجاجي واسع، تشاهد من خلاله الأشجار والشواخص، وهي تمرّ سريعاً من كل جانب، وتلوح في الأفق جبال تكسو قممها ثلوج بيضاء لامعة، رغم أن الشتاء لم يحين موعده، وترسم الثلوج الخفيفة دوائر بيضاء حول الأشجار، وتبدو كأنها ظلال داخل مسطحات بيضاء، إذ أن الثلج لم يكسُ الأرض كاملة، إنما يبدو في جبال طوروس العالية، أمام تدرجات التضاريس الأرضية المتفاوتة الارتفاع.

كل ما أراه امامي وأمرّ به جديد، مما أشعري بالسعادة والبهجة، وأنساني ما يعتريني من خوف ورهبة المغامرة والخشية من المجهول، تعمل القاطرة على الفحم الحجري، وتجرّ خلفها عدداً من العربات، تخترق انفاق الجبال ربع ساعة وأكثر، تمرّ فوق الجسور الحديدية المعلّقة على الأنهر والوديان والقناطر القوسية المنشأة من الحجر، كتلك المسمّاة بالجسور العشرة في عمّان، ولم

يكن لهذا القطار من اسمه نصيب، يسمّونه اكسبرس الشرق السريع، وما هو باكسبرس أبداً، إذ يتوقف في كل قرية ليركب الفلاحون من رجال ونساء، وترتدي النساء السراويل الواسعة، وهنّ محجبات، يقطر الخجل من عيونهن، ورجال بصدرية قصيرة وسراويل من الكاكي، ينتقلون من محطة إلى أخرى، ينزلون ويصعد غيرهم عند كل محطة، يصعد باعة متجولون، يبيعون لبن العيران، وبعض الحلوى المحلية الصنع، والفواكه المجففة، يشتريها الركاب أمثالنا خطفًا، فلا يلبث القطار أن يصفر مؤذناً بالحركة، ليسارع الباعة الشبان إلى القفز من أبواب العربات، وعادة ما يكون وقوف القطار قرب المدن أطول منه في القرى، ليفسح الطريق أمام قطار آخر قادم من الجهة المقابلة، أو ليجتازه في المحطة، ولم يكن سريعاً كما هو اسمه، ويغادر المحطات بطيئاً حيث نستطيع شراء بعض الفواكه من خارجه، وعندما يتحرك سريعاً نلحق به، ونصعد في أي عربة من عرباته، ونبحث عن عربتنا، ونلوذ في النوم بإحدى زواياها، وفي إحدى العربات مطعم صغير لشرب الشاي والقهوة، تتوسطه طاولات صغيرة، وكراسي متواضعة، وتستغرق الرحلة من حلب إلى اسطنبول ما يقارب أربع وعشرين ساعة، يداهمنا البرد ليلاً وهذا أكثر ما يؤذيني، لكنه لم يزعجني كثيراً؛ لأنني على استعداد أن أتحمل مشاق السفر.

أذكر أثناء انتظار انطلاق القطار من محطة حلب تعرفت على شابين عراقيين، وهما اللذن قدما لي نصيحة بالحصول على تأشيرة من السفارة في حلب، أحدهم اسمه سعدو والآخر مجيد،

يبدو على سعدو يبدو أنه ميسرّ الحال، فهو أنيق الملابس، ومثقفًا يتكلم التركية التي تعلمها من أمّه كما أخبرني، ولم تكن هذه زيارته الأولى إلى تركيا، أما صديقه مجيد فيبدو شخصية بسيطة طيبة، ومن السياسيين اليساريين، وخرج من السجن منذ مدة وجيزة، ويسعى في زيارة اسطنبول للاستجمام والترويح عن النفس، أو لعلها هجرة لغير رجعة، لا أذكر كيف بدأ تعارفنا، كما يبدو أن غبار الحزن والتشرد كانا ظاهرين على قسمات وجهي، مما أثار فضولهما، وسؤالي إذا كنت وحدي، ومن أين جئت، وإلى أين أذهب؟! فأخبرتهم أنني من فلسطين، وقد غادرتها منذ شهرين بعد حرب حزيران لهذا العام، وإنني قاصد باب الكريم، بحثًا عن إمكانية دراستي في الجامعة، وبدا عليهما التأثر، وأحسست باهتمامهما البالغ، ولمست منذ لحظتها شهامة أهل العراق ونخوتهم، ورافقاني طيلة الرحلة، ولم يفارقاني إلا ما ندر، ولن يتركاني حتى أصل إلى صديقي الذي سبقني، وأن لا أحمل همًّا.

لازمْتُ هذين الشابين الرائعين في رحلتي، ونزلنا في محطة حيدر باشا في اسطنبول الشرقية (الآسيوية)، ثم ركبنا سيارة من المحطة التي تقع على مضيق البسفور إلى الباخرة، التي تعبر المضيق حاملة الركاب والسيارات، وبعد نصف ساعة وصلنا اسطنبول الغربية (الأوروبية)، وأصبح سعدو هو أمير رحلتنا لتمكنه من اللغة التركية. طلب سعدو من السائق التوجه إلى اكسراي، ومن ثم إلى بايزيد، حيث نزلنا في فندق متواضع اسمه (الشهداء الثمانية عشر)، أخذ مجيد يهمس في أذن سعدو كلامًا لم افهمه، وكان يحثه

صديقه ان يلبي طلبه، وأن لا يضيّع الوقت بعد أن وصلنا اسطنبول،
توقعت أنه جائع، ويريد أن يأكل شيئاً، سألت سعدو:

- ماله مجيد ليش مستعجل؟!!

- مجيد حيوان وإن كان لا يمشي على أربع، (لم أفهم ماذا
يقصد؟!)

لم أكرر السؤال، نزلت معهم، وركبنا سيارة إلى مكان لم
يخطر في ذهني، كان أحد أحياء عارضات الهوى، أصابني الدهول
والحرج، ولم أصدق ما تراه عيني، تجولت برفقتهم، وقد اعتدت
على تلك الظروف الصعبة، وجد مجيد ضالته، كانت امرأة على
وشك أن تصبح عجوزاً، وقال: إن الرجال يزهدون بمثل هذه
المرأة، ولديها من الخبرات ما لا تكن عليه الفتيات الصغار،
ضحكت وسعدو، وانتظرنا عودة مجيد، وطال الانتظار، وعاد إلينا
وقد دبّت فيه حياة جديدة، وقال سعدو: مبروك يا عريس.

في طريق عودتنا للفندق تناولنا بعض السندويشات، وبتنا
في الفندق، ولم يسمح لي سعدو بدفع أجرة ليلة المبيت، فلم
أصرف أي قرش، وبعد إفطار متواضع في الفندق طلب مني سعدو
عنوان صديقي شاكر عفانة، ثم أوقف سيارة واصطحبني إليه.
كان الوصول وإلى صديقي والعثور عليه سهلاً، ودّعني سعدو في
منطقة قريبة من التقسيم، ومنذ ذاك الحين لم أرَ هذين الشابين، ولم
أعلم بأخبارهما، وبات لقائنا ذكرى لا تنسى.

في مدينة اسطنبول



الانتقال من بيئة قروية هادئة وديعة بسيطة إلى مدينة صاخبة
تضيق فيها كقشة في محيط من ثقافة أولية محدودة إلى ثقافة عريضة
متنوعة، والأهم من ذلك اللغة التي تقربك من كل ما يحيط بك
إلى مجتمع لا تفهم مما يقولون شيئاً، يهون الأمر أمام الرغبة في
تحقيق هدف منشود ومستقبل أفضل، وإن كان مجهول التحقيق،
مع ما يكتنفه من ضبابية الرؤيا والامكانيات الشحيحة، كل ما في

هذه المدينة الجميلة غريب، ويشير الدهشة والفضول بأجوائها وأناسها، هنا رذاذ مطر مخلوط بحبات الثلج، ونساء مؤخراتها محشوة بسرراويل ملونة، وسيل من السيارات القديمة والحديثة تتهاذى في شوارع مبلطة ببلاط حجري متقن التركيب، إنها مدينة يمتزج فيها الشرق والغرب بتناغم فريد، ويتقارب الغنى والفقر فلا تشعر بالفروقات أو التمييز العنصري.

استضافني صديقي شاكِر ليلة واحدة، وفي اليوم الثاني أقمت عند سيدة رومانية فاضلة في السبعين من عمرها، في بناية على الشارع الرئيسي لمنطقة تدعى الترلاباشي القريبة من ساحة التقسيم، التي يتوسطها تمثال رائع للقائد أتاتورك مع أصحابه. كانت غرفتي واسعة لها شباكان على شارع جانبي، وأمرتني السيدة أن تبقى مغلقة بستائر سوداء غير نفاذه، قلت في نفسي لعلها تطل على غرفتها، لا يهم ذلك الآن، فالواجهة الأمامية فيها أربعة شبابيك، اثنتان بالوسط بارزتان تطل على الأمام والجانبين، وتحتضن الغرفة أريكة للجلوس، وتطلّ على الشارع الأمامي الذي يتعامد معه، ومقابلها مباشرة شارع عريض يؤدي إلى شارع الاستقلال (البوغلو)، ومعناها ابن البيك، وهو شارع لا ينام أبداً، تلمع فيه أضواء دعائية بكلّ الألوان، وفي الليل يعجّ بالمحلات الراقية التي تحتوي آخر صرعات الموضة، والكثير من المطاعم والمقاهي والنوادي الليلية، وبعض شقق الرقصات، وبنات الليل المنتشرة على الشوارع الجانبية، هكذا كنت أقيم في قلب المدينة النابض، أعيش الأحداث والحركة والنشاط، وأحياناً المشاجرات بين

رواد الحانات، أشاهد كل ذلك من خلال شبابيك غرفتي المطلة على تلك الأجواء، وفي كل الاتجاهات ومن ارتفاع بسيط، فغرفتي في الطابق الأول فوق المحلات التجارية.

كانت أجرة غرفتي مئتي ليرة تركية، أي ما يعادل ستة دنائير أردنية، تشتمل على غسيل الملابس، واستعمال المطبخ الصغير، كانت السيدة محترمة، وما أضحكني بأسف في أول ليلة قد وضعت لي إبريق ماء زجاجي وكأس كريستال على طاولة وسط الغرفة، أظنها حسبتني من أولاد الذوات، وبعد أيام كأنها أحسّت بأني كحيان، فبدلتها بإبريق وكوب بلاستيك، (أنا مش فارقة معي أصلاً.. المهم في مياه للشرب)، علماً بأنني بعد أن دفعت أجرة الغرفة للعجوز بقي معي اثنا عشر ديناراً.

قضيت يومين بعدها مع شاكر، ركبنا الباص إلى معهد اللغات الملحق بالجامعات كي نسجل فيه لتعلم اللغة التركية، للحصول على هوية طالب، مما يجعل كل شيء تابع للدولة رخيصاً، فالمواصلات بنصف قرش مهما كانت المسافة داخل اسطنبول، ووجبات الطعام بخمسة إلى سبعة قروش، والمعهد القريب من كلية الطب، في منطقة بايزيد، وقريباً منها تقع رابطة الطلبة العرب، التي يجتمع فيها طلاب الدول العربية من العراق وسوريا والأردن وفلسطين ولبنان، وكان مكاننا المفضل للتعارف وسماع اللغة العربية والترويح عن النفس، وتناول فيه الحمص والفول والفلافل والشاي، يقوم بتحضيرها وبيعها لنا أحد الطلبة

وبسعر زهيد، وهذا الطالب لم يسعفه الحظ في الدراسة الجامعية، وأرشدني صديقي على طريق الوصول للمكان، ورقم (الباص) الذي استقله، فأصبح هذا برنامجي اليومي، وكنت أقضي معظم أوقاتي في رابطة الطلبة العرب أكثر من المعهد، الذي كان مملاً، وقليل الفائدة؛ بسبب شغب الطلاب من جنسيات متعددة، عرب وإيرانيين وقبارصة والبعض من أوروبا الشرقية.

مضى على سفر أبي للبرازيل حوالي عشرة سنين، وكانت وسيلة التواصل بيننا هي الرسائل الخطية فقط، والتي تحتاج إلى ما لا يقل عن شهر لإرسالها واستلام الجواب. بعثت له أول رسالة، وقد أخبرته أنني وصلت اسطنبول - كي ألتحق في الجامعة، وطلبت منه مساعدتي مادياً إن كان ذلك متاحاً، وإن تعذر ذلك فربنا ييسر الأمور.

جاءني ردّ أبي بالقول: لماذا تركيا بالذات؟ ونحن هنا نعلم أن هذا بلد متخلف، وإذا شتمنا البرازيليون يقولون لنا - توركو- فلماذا لم تذهب إلى بريطانيا أو فرنسا أو حتى إيطاليا؟ يبدو أن أبي لم يتشجع لإرسال النقود أو أنه لم يجد الطريقة الممكنة لإخراج الدولار من البرازيل، ولم يعدني بشيء، وكأنه ينتظر ردّ فعلي.

في بداية الشهر الثاني وبعد أن دفعت الأجرة للسيدة أوفيميا لم يبق معي إلا القليل من النقود، وهي لا تكفي للحركة والطعام، ولا يعرف بمراسلاتي سوى صديقي شاكر، التي أصبحت أوضاعه أكثر سوءاً من أوضاعي، إذ أن أخاه الذي يعمل في السعودية تأخر

عليه بتحويل الخمسين دولاراً، وهو المبلغ المتفق عليه شهرياً، لم يقدم لي سوى كسرة من الخبز وقليل من الجبن للغداء، وفي الليل شعرت بجوع شديد، ولم أستطع النوم، لُذْتُ بمطبخ العجوز فلم أجد سوى البصل الناشف، أكلت واحداً منه، فهبت في معدتي حرقة شديدة، وزاد الطين بلة، فكرت بنزول لأقرب محل خضار لسرقة حبة بندورة أو خيار، لكن لم أستطع، وليس أمامي سوى صنع كأس من الشاي، فشربتها بلا سكر، ولا يعلم كيف نمت تلك الليلة سوى الله.

أصبحت متشائماً، تملكني الحيرة وقلة الحيلة، ذهبت إلى مضيق البسفور على الأقدام، مشيت اتجاه الشمال، مررت بمنطقة الباشكطاش، وأكملت مسيري حتى وصلت قرية جميلة، مبانيها من الخشب، وهي على المضيق مباشرة، تجاوزتها قليلاً، وكنت متعباً بائساً، أندب حظي العاثر، وأبكي أحياناً، وأدعو الله أن يجعل لي مخرجاً، لا أعلم كم مضى من الوقت وأنا على هذا الحال حتى الظهر، وصلت إلى رصيف (كورنيش) على جانب الشارع، تم انشاؤه فوق مياه المضيق، كان عليه مقاعد خشبية، وصيادو السمك؛ لأن المياه عميقة. في ذاك المكان جلست على أحد المقاعد لأستريح وأتفرج على الصيادين، كان بالقرب مني صنارة صيد، قد تُركت على الأرض، قلت في نفسي: لعل صاحبها يرتاح تحت الأشجار في الجهة المقابلة للشارع، وسيعود ليأخذها، وهي من النوع الجيد، جلست طويلاً، لم يأت صاحبها، حاول طفل أن يعبث بها، فنهرته، وقمت من مكاني وأخذتها، ومشيت

بعيداً في محاذاة البحر، فالشارع ملاصق له، وقفت بين صيادي السمك، التقطت كيساً بلاستيكاً مُلقًى على جانب الشارع، ملأته بمياه البحر، وبدأت محاولتي باصطياد السمك بطُعم يخرجونه من المحار الأسود المنتشر على الصخور المجاورة، فشلت في البداية، لاحظ أحد كبار السن من الصيادين الذي كان قريباً مني، تناول الصنارة وعلمني كيف أضع الطُعم في رأسها، وكيف أشد الحبل عند الشعور بأي شيء يعلق بها، وفعلاً صدت بعض الأسماك التي لا يزيد طولها عن عشرة سنتيمترات، كانت بلون فضي لامع، نسيت معاناتي وجوعي، وعاد تفاؤلي في الحياة.

جمعت في الكيس عدداً من الأسماك، لعلها لم تبلغ النصف كيلوغرام، مرّت إحدى العجائز التركيات، طلبت شراء سمكاتي، ولم أكن أعرف اللغة التركية كي أتفاهم معها، أو مأت لها برأسي موافقاً، أدركت أنني لا أعرف التركية، أخرجت من جيبها أو حقيبتها لا اذكر تماماً مجموعة من القطع المعدنية النقدية، ووضعتها في كفّها، فأخذت منها ما قيمته ليرة وربع، أي أربعة قروش أردنية، لأشتري رغيف خبز سمون ربع ليرة، ويبقى ربع ليرة لركوب (الباص) عائداً إلى البيت، وربع ليرة لمشوار غد عائداً للمكان نفسه، وربع ليرة أبقيه في جيبِي، وهكذا تركت المعهد ورابطة الطلبة العرب إلى حين، ولم يسأل عني أحد.

هكذا بدأت سنتي الأولى في اسطنبول، لعلها كانت من أصعب سني حياتي، ومع ذلك كنت متفائلاً؛ لأنني أملك حريتي رغم

حالة الضياع، وعدم وضوح الرؤيا بما هو قادم، فمما يجب أن تكون هذه السنة لتعلم اللغة ودراسة كتب الثانوية العامة التركية، كي أتأهل لتقديم فحص قبول الجامعات، والحصول على مقعد دراسي في إحدها، وذلك حسب المعدل التنافسي الذي يحصل عليه الطالب نتيجة ذاك الامتحان، ويكون عادة في الشهر السابع من كل عام.

حلّ الشتاء ببرده القارص، وأنا وصديقي شاكر في وضع مُزِر جداً، لم تصلنا نقود من أحد، خفف جاكيت سوق الحميدية البرد قليلاً، فإذا لبسته أبدو كأني خارج من متحف الشمع، ويلبس شاكر (سويتِر) من الجلد الصناعي، حيث تشقق بفعل العوامل الجوية، ولا نملك غيرهما، كان شاكر يعرف أصدقاء كثيرين، ويمتلك جرأة تفوقني، فيقترض منهم القليل من النقود، التي تبقينا أحياء، حتى بدت علينا النحافة، وذوت صحتنا.

مرّ علينا عبد العزيز العريض وهو صديق من أبناء بلدنا قادمًا من يوغسلافيا، لم تعجبه تلك البلاد وقرر السفر إلى الباكستان، كنّا في شهر رمضان، ادّعينا بالصوم؛ لأننا لم نجد ما نقدّمه له، وبعد قليل أدرك الحقيقة، ونحن نتهامس بعصية، قدّم لنا معلبات كان يحملها والقليل من النقود، وقدم لي قطعة من ملابسه حاكتها أخته في سلفيت، لعلها تقيني من البرد.

كان يودّ الذهاب إلى السفارة الأردنية في أنقرة للاستفسار عن الدراسة في الباكستان، فقررت مرافقته، لعلني أستفيد شيئًا من

المعرفة، وأساعده بحكم تعلّمي بعضاً من اللغة التركية، دخلنا السفارة، وشعرنا بنوع من النشوة والدفع، شاهدنا صور الملك حسين والقدس والمدرج الروماني معلّقة على حائط في صالة الاستقبال، طلبنا مقابلة الملحق الثقافي الأردني، ويا ليتنا لم نقابله، فأسمعنا ما لا يسرنا، وقال: أنتم شكل طلاب؟ لا أتوقع أن يكون لكم مستقبل سوى الصياغة! خرجنا من عنده نجر ذيول الخيبة، وعلى أثرها قرر عبد العزيز الذهاب إلى الكويت، وعدتُ إلى اسطنبول.

وما أن مضى وقت قصير إذ يفاجئنا أحد أقارب شاكِر بزيارة، بعد أن أمضي سنة دراسية في يوغسلافيا، في طريق عودته إلى البلاد، وكان في وضع مُزِر، ضعيف البنية، وكدنا ألا نعرفه، حالته يرثى لها، فهذا ليس محمود الذي نعرفه بتهكمه، والذي لا يعجبه العجب، علمنا أنه لم يتلق نقوداً من أهله منذ زمن، وبعد معاناة طويلة جمع له الطلاب العرب أجرة طريق العودة، وها هو غادرنا عائداً للوطن في وضع يؤسف له.

لم يوفق صديقنا عبد العزيز بالسفر إلى الباكستان، وعاد إلينا من الكويت، ماراً في طريقه إلى يوغسلافيا، ولحسن حظنا حمل معه بعض النقود مساعدة لنا من أقاربنا في الكويت.

وصلني من أبي شيك مجيّر من شخص برازيلي، ولم أستطع صرفه إلا في السوق السوداء، وبوساطة رجل يعمل في سوق اسطنبول، وبعد رجاء وعمولة جيدة، بعدها استقرت أحوالي

المعيشية، وعادت الحياة إلى طبيعتها، وسعيت لتعلم اللغة التركية، واشترت ما أحاجه من كتب لتقديم فحص قبول في الجامعة، وتعرفت على أصدقاء جدد، نتسلى سويًا بلعب الورق في أوقات الفراغ.

أصبحت العجوز (أوفيميا) التي أقيم عندها تحبني جداً؛ لأنني أدعوها ماما، وهي وحيدة لا أحد لها، صارت تحنّ عليّ، وتصطحبني في جولات حول اسطنبول، نشرب القهوة، ونأكل الذرة الصفراء في منطقة (صاري ير) على مضيق البسفور، ولا تكف عن نصحي والحرص عليّ.

زيارة أقاربي في حلب



لعدم يقيني وحيرتي من حصولي على مقعد جامعي في اسطنبول قررت زيارة أقاربي في حلب، وقد أحصل على مقعد جامعي في إحدى الكليات هناك، يقطن أقاربي في مخيم النيرب للاجئين الفلسطينيين، ركبت القطار وهو أرخص وسيلة نقل إلى حلب، وصلت مركز المدينة مساءً، سألت عن طريقة الوصول إلى مخيم النيرب، أوصلني (الباص) إلى حافلات المخيم، سألت الركاب

عن بيت عمتي الحاجة جميلة مبارك، انبرى نحوي شاب وأخبرني بحماس بأنه يعرفها ويعرف بيتها، واصطحبني إلى بيتها، كانت مفاجأة غريبة للحاجة جميلة ولأمها وشقيقتها، كانوا يقيمون في غرفتين وحوش، كنت خجلاً مرتبكاً، حدثتهم عن رحلتي الطويلة إلى اسطنبول، وذكرت سبب مجيئي لحلب، كان لحديثي نبرة حزن، شعرت بالشفقة والتكريم في آن واحد، وفي اليوم الثاني داهمت المخابرات السورية البيت وسألوا عني، ولحسن حظي لم أكن في البيت، فكنت في بيت ابن عمها أبو ذياب، حاولت الحجة جميلة أن تقنع المجموعة بأني زائرهم من الأردن، وأني طالب، واستطاعت أن تصرفهم بطريقة أدبية، أوأظن أن الشاب الذي أوصلني أحد عناصر المخابرات أو أنه مُخبر.

كان ثلاثة من أقاربي تسكن المخيم، بيت الحجة جميلة التي كانت تعمل في التجارة بين البيوت، فهي معروفة بين الناس بفطنتها وطبيعتها، وقد تزوجت في فلسطين، ولم تنجب الأولاد، وحيدة مع أمها العجوز وشقيقتها الأولى المُعلمة وبنت عمها اليتيمة، والبيت الثاني يقيم فيه أبو ذياب وزوجته شقيقة الحاجة جميلة، والبيت الثالث تقيم فيه شقيقتها الثانية المتزوجة من أحد أقاربنا، وهي بيوت مستقلة عن بعضها.

أقمت عندهم واستأنست بهم وشعرت أنني أحد أفراد أسرهم، في النهار كنت أقرأ في الكتب التركية التي جلبتها معي، وفي الليل كنا نُحيي سهرات عائلية دافئة، نتناول العشاء ونلعب البرجيس وهي

لعبة سورية، وتحدث عن الجذور والماضي والحاضر، ومنتصف الليل تُطفأ الكهرباء، فأنام في بيت العم (أبو ذياب).

الشقيقة الصغرى للحاجة جميلة مُعلّمة وشاعرة، وهي جامعية عالية الثقافة، تكبرني بأربع سنوات، تتمتع بذكاء وجدية في العمل، وكنت انتقي الكلمات أثناء الحديث معها، لم أطمح أبداً أن توليني اهتماماً خاصاً، رغم أنني بأمس الحاجة للحنان والمحبة والاهتمام، تلك الفتاة كانت من الذكاء والنضج، حيث تستطيع إخفاء مشاعرها عن الآخرين، قالت لي ذات يوم: أنت بعثك القدر، ولم أدرك حينها ما قالت، كنت آنذاك ادعوها بعمتي، أخذت تصحبني إلى مدينة حلب، نشرب العصائر ونأكل السندويشات والحلوى، واشترت لي هدية متواضعة. تكررت جولاتنا وفي كلّ جولة جديدة يزداد وجهها نضارة وإشراقاً، وأصبحت تهتم بهندامها وتسريحة شعرها ومسحة خفيفة من المكياج تزين مسمها، اصطحبتني إلى جامعة حلب، وبذلت قصارى جهدها عن طريق معارفها كي أحصل على مقعد دراسي، ولم يكن أمامي سوى مقعد في كلية الزراعة، وإن كان قبولي قد تأخر كثيراً، وهذا لا يلبي طموحي أبداً. زرنا المطاعم والمشارب المنتشرة في شوارع حلب، وذهبنا إلى الحدائق العامة الراقية، وأكلنا البوظة تحت ظلال الأشجار بالقرب من نوافير المياه، واشترت ساعة هدية لي، وهي أول ساعة أضعها في معصمي، ولم تسمح لي أن أدفع قرشاً واحداً في كلّ جولاتنا.

قررت العائلات الثلاث القيام برحلة إلى منطقة شلالات
عفرين، وأعدت الحجة جميلة وأم ذياب كل ما يلزم الرحلة،
وانطلقنا بـ (باص) صغير إلى منطقة خضراء كثيفة الأشجار،
وبعضها مثقلة بالثمار، يتخللها جداول مياه صافية، تتهادى من
شلالات ذات جمال فاتن.

أتبع والفتاة جداول المياه، ونتابع مسارها وقد حَفَّها النعناع
والحويرنة في امتداد الأشجار الوارفة، حينها شعرت بأن الفتاة
شاردة الذهن، وشعرها يتطاير مع نسيمات الصباح، تدسّ يديها
في جيب معطفها الأحمر، وترفع رأسها في نظرة تتأمل البعيد، وفي
داخلها كلام مكتوم، تجرأت فجأة ودست يدي في جيبيها ألتمس
دفع يدها ونعومتها، تبسّمت واحمرّ وجهها خجلاً، وانفجرت
شفتاها البنفسجية للكلام، ثم توقفت، وأخيراً لم تمنعها عزّة نفسها
من البوح، أفصحت عن ثورة من المشاعر لم أكن أتوقعها، وكنت
في أشدّ الحاجة لتلك المشاعر النبيلة، وأن أصبح ابناً لتلك العائلة
الرائعة، أو صهرهم، قالت إن هدفها شريف وسامي، وإنها مستعدة
أن تنتظرنني مهما طال الزمن، سحبت يدي من جيبيها، ورغم سعادتي
الغامرة بسماع حديثها العذب إلا أنه قد أصابني صمت غريب،
وارتسمت على وجهي ابتسامة صفراء تنم عن صراع داخلي يتردد
في جنباتي، شعرت بالمسؤولية الصعبة إن صدر جواب مني، فلا
أزل مجهول المستقبل، ولا أعرف ما تخبئه الأيام، وعلي أن
أعود إلى اسطنبول لإكمال مشوار قدرتي. شعرت بتردي، ولم
تكن تتوقع ردة فعلي، حاولت أن أشرح لها ظروفي برغم محبتي

لها، أخذتها صدمة عنيفة، وتملكها نكد شديد، وابتعدت عني، وأصبحت إنسانة أخرى، لا تسمعني ولا تنظر في وجهي، اشفقت عليها، وحزنت كثيراً، كنت أشعر بالميل لها، بل والتعلق بها، وكادت دقات قلبي وفورة رغبتني أن تفضح سرّي، لكن عقلي أفقدني تلك النشوة، فطارت سعادتي بتلك الرحلة الممتعة، التي كنت أتمناها وأتوق إليها وانتظرها منذ زمن، عدنا في المساء وكأنا غرباء، قررت حينها السفر إلى اسطنبول، وبأسرع وقت ممكن.

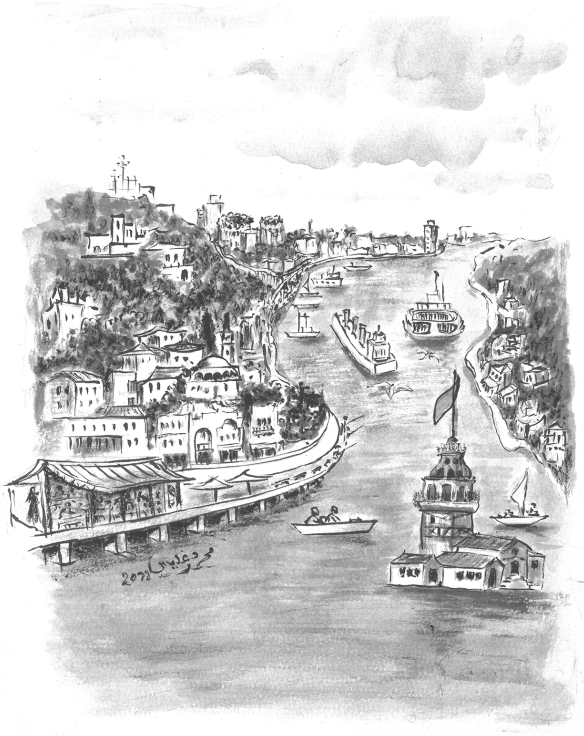
أبلغت الحجة جميلة رغبتني السفر إلى اسطنبول، أعدت في اليوم الثاني غداء دسماً من الكرشات والكراعين، وحضرت بعض الزعر وعلب مربى الورد والمخللات والزيتون لأحملها في سفري، وأثناء ترتيب حقويتي، جلست الحجة جميلة وعلى ما يبدو تعلم ما جرى بيني وبين شقيقتها، وتحدثت بأمرنا وهي تحاول أن تأخذ وعداً بقبولي، وهي تعلم أنني لا أخلف وعداً، حاولت التنصل من أي التزام صريح، مبرراً لها بأنني لا أعلم ما تخبئه الأيام، وأن هناك سنوات خمس من الدراسة، إذا سارت أموري على خير، ولا أستطيع الزواج خلالها بأي حال من الأحوال، ولا أعلم بمصيري ومستقري، واستمرت الحجة بالضغط علي، وأوقعتني في حرج، وهي تعلم مقدار حبي واحترامي لها، قلت لها: إن بقيت مشاعري الحالية اتجاه الأستاذة ومشاعرها اتجاهي سوف أكون سعيداً بهذا لارتباط، وكانت تعلم أن جوابي هذا خلاص من الوعد وغير مقنع، ولا يُسمن ولا يُغني من جوع. قالت الحجة بشكل صارم:

أنت لا زلت ولدًا، ولم تبلغ مبلغ الرجال، وأنا سادس السم لها إن
أصرت عليك.

في اليوم الثاني ركبت القطار عائداً إلى اسطنبول، تتجاذبني
مشاعر مختلطة من الحنين العميق وألم الفراق، أحمل عبء وهم
جديد، لم أقدر نتيجته، وتشتعل في أعماقي محبة تلك العائلة،
وذكرى جميلة وأليمة في الوقت نفسه، تملكني الحزن والبكاء،
أحاول نسيان ما كان دون جدوى.

أعيتني الحيلة، ولم أجد من أثبت له شكواي، وفي لحظة غباء
بعثت لأبي رسالة، أشرح فيها ما حدث، ردّ برسالة فيها مدح
لأقاربنا وكرمهم الكبير، وقرّعني على أفعالي بشدة، وكتب رسالة
إلى العم (أبو ذياب) يعلمه فيها رفضه القاطع لما حدث.

خيلة الأمل ومعضلة الاختيار



انتصف صيف اسطنبول الرطب، وأصبحنا على موعد مع امتحان القبول في كليات الطب والعلوم، ثم يتبعه امتحان قبول كليات الهندسية والتكنولوجيا، وقبل دخول الامتحان يجب تعبئة نموذجاً، أجب فيه عن مجموعة أسئلة تتعلق بالسيرة الذاتية، اسمي الكامل وتاريخ ميلادي وجنسي، وإن كنت من أصول تركية ام لا، ثم اسم الجامعات والمدن التي أرغب الدراسة فيها،

وترتيب الكليات حسب الأولوية، والتخصصات المفضلة حسب التنافس المعتمد.

كانت رغبتى الأولى وهدفى الأسمى دراسة الطب البشري، وقمت بتعبئة النموذج حسب الأصول، وأجبت بلا عن أصولي التركية، ولم أكن أعلم مدى تأثير هذا الجواب في التنافس، ولم يخطر ببالي أهميته، ولم ينبهني أحد، فقد كنت صادقاً، وغير مدرك لعواقبه.

دخلت الامتحان عصرًا، وتقدمت للفحص الذي يجري في جميع أنحاء تركيا، ولخريجي الثانوية العامة من الأتراك والأجانب، بغض النظر إن كان الطالب من الفرع العلمي أو الأدبي، والامتحان ثلاث ساعات، يبدأ في الثالثة وينتهي في السادسة مساءً، وهو عبارة عن أربعين سؤالاً في الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء، والإجابة باختيار الصحيح من أربعة احتمالات، ووضع إشارة في مربع الإجابة الصحيحة، وبعدها يتم تغذية الحاسوب بأوراق الامتحان، في اليوم الثاني تكون النتائج معلقة على لوحة الإعلانات، اسم المتقدم ومجموع علاماته، والكلية والجامعة والمدينة التي تؤهله لدخولها.

عادة ما يتم قبول ما لا يزيد عن نسبة ١٠٪ من المتقدمين في أي كلية من الجنسيات الأجنبية، وتنافس القبول بين هؤلاء منفصلاً عن تنافس قبول الطلبة الأتراك، فإذا كان قبول مئة طالب لكلية الطب في مدينة ما، فإن عشرة طلاب من هؤلاء هم من جنسيات

أجنبية وأغلبهم من الدول العربية، فيتم اختيارهم من المتفوقين.
في صبيحة ذاك اليوم فتحت الجامعة أبوابها، كنت أول الطلبة
الذين يقفون أمام لوحات الإعلانات، أستعرض الأسماء، وجدت
اسمي وعلاماتي وقبولي في كلية طب الأسنان في جامعة اسطنبول،
وهو اختياري الثاني من بين الخيارات، وأسماء زملائي العرب في
كلية الطب البشري، يا للغرابة!! قد كنت أشرح لهم الدروس،
وعلاماتي أعلى من علاماتهم، وكان بعضهم في تخصص الفرع
الأدبي، إنها مفاجئة صاعقة! ولم تمر في حياتي أصعب من تلك
اللحظة، علمت فيما بعد أن السبب، فلم أذكر في نموذج الطلب
أنني من أصول تركية، وكلهم يعلمون هذه الحقيقة إلا أنا، كلمه
واحدة غيرت مصير حياتي، حلمت به كثيراً وتمنيت تحقيقه،
وكنت قاب قوسين أو أدنى. ابتعدت عن زملائي لأخفي انكساري
وندمي وشعوري بخيبة الأمل، لحظات لا يمكن وصفها أكثر من
ذلك، أثرت أن أخلو بنفسي وأجتر أحزاني وحيداً.

مشيت حتى وصلت مضيق البسفور، كأني انتقم من نفسي،
وكعادي أسير طويلاً إلى جانب مياه المضيق، ولأول مرة اشتريت
علبة سجائر، رغم أنني لم أكن مدخناً، أخذت امشي وأدخن
بشراهة وأبكي طيلة النهار، إلى أن وصلت الى آخر المضيق، على
مشارف التقائه بالبحر الأسود، وفي وقت متأخر من الليل، أعتقد
أنني قطعت ما لا يقل عن خمسة وعشرين كيلومتراً، حتى انهارت
قواي، ركبت (الباص) وعدت إلى البيت ذليلاً مكسور الخاطر،
أسود الوجه، كنت في حال يرثى له.

كانت السيدة العجوز الرومية اوفيميا تنتظرنى بقلق بالغ، لم تنم خوفاً عليّ، استقبلتني بجديتها المعهودة وسألتنى:

- مالك شو صار معك.

أجبتها والدموع تملأ عينيّ بما حدث. ربت على كتفي قائلة:

- وايش يعني مهو طب الأسنان ممتاز، والصيدلة جيدة، كان يقيم عندي طالب أردني اسمه جمال، ولم يُقبل بشيء، وعاد لبلده، فالأمر عادي جداً.

سكتُ، ولم أجد ما أقوله لها.

- هذا نصيبك، وقد يكون الله اختار لك الأفضل، تعال نجلس ونشرب الشاي.

لأول مرة ناولتني كأساً من الليكور بدل الشاي، لشعورها بأن حالتي تحتاج ذلك أكثر من غيره، ولا أعرف كيف نمت تلك الليلة المشؤومة؟! أخجل من مقابلة أصدقائي، قررت أخيراً أن أسجل في كلية طب الأسنان، على أمل أن أعيد امتحان القبول في السنة القادمة، وأكتب في الطلب أنني من أصول تركية، كي أحظى بمقعد في كلية الطب البشري، لم أكن راغباً في دراسة طب الأسنان، كتبت رسالة لصديقي عبد الرزاق أخبره بما حدث، وطلبت منه ورقة من مختار يشهد أنني من أصول تركية، ولم يتوان صديقي في الردّ، وتلقيت ورقة مصدقة من عدد من المختابر، تثبت أن أبواي تركيين، ولا زلت أحتفظ بها حتى الآن.

بعد مضي أيام معدودات ظهرت نتائج طلبات كليات الهندسة والتكنولوجيا، وكنت قد حددت في طلبي كلية العمارة في جامعة اسطنبول، دون أي خيار آخر، رغم أن زملائي العرب لم يوافقوني على اختياري هذا، فكانوا يفضلون دراسة الهندسة المدنية أو الكهربائية أو الميكانيكية، هم لا يعرفون سبب اختياري كلية العمارة، هذا هو ميولي الفني، وقد انغرس في أعماقي منذ الطفولة.

منذ أن أنهيت مرحلة الدراسة الثانوية فكرت بدراسة الفنون الجميلة، وأفصحت عن رغبتني تلك أمام أحد الأشخاص المتنورين، وردّ قائلاً: يا زلمة أنا بسمع أن هؤلاء الفنانين قد أصبحوا أغنياء بعد موتهم، وفي حياتهم يعيشون حياة التشرد والتعاسة، فقلت في نفسي أريد أن أكون غنياً وأنا على قيد الحياة. أقلعت عن الفكرة آنذاك بشكل وكأني في حلم. كان سبب اختياري كلية العمارة، عندما كنت طفلاً رسمت قبة الصخرة المشرفة بقلم الحبر الجاف، والتظليل اللازم لبيان كروية القبة وأضلاع المبنى، لصقتها على الجدار عندما رآها أحد المعمارين الأوائل الذي كان يزور بلدية سلفيت مرة كل أسبوعين، أعتقد أنه جاء إلى بيتنا عندما عزمنا على إضافة بيت درج للبيت، نظر للوحة متسائلاً من رسمها، قال:

- مين رسم هذه؟!

- ابني محمد، أجابت أمي.

- ناداني قائلاً: لما تكبر يا بني ادرس هندسة معمارية.

سكنت هذه التوصية أعماقي، وأدركت بعدها أن العمارة هي أقرب ما تكون إلى فنون الرسم، وهكذا التقت إرادة الله مع هوايتي المفضلة، وما زالت تلازمي حتى الآن.

تم قبولي في كلية العمارة، وكان خيارى الأول، وقبول صديقي شاكر عفانة في كلية الكهرباء في جامعة اسطنبول الفنية، آنذاك كنت أمام خيارين، طب الأسنان أو هندسة العمارة، وانتابتنى الحيرة أيهما اختار، فسألت كثيراً، وبحث طويلاً، وفكرت ملياً، فأصدقائي أوقعوني في حيرة كبيرة، زارنا في سكن الطلبة شاب جامعي يدرس الجيولوجيا، يلبس قميصاً أبيض وربطة عنق حمراء وجاكيتاً أسود، سألته عن رأيه، فحرك رأسه شمالاً ويميناً كعادته، التفت إليّ وهو يمسك بورق (الشدة) بين يديه، وقد انشغل مع شركائه في اللعبة، وقال:

- ولك روح ادرس اشي شغل زلام (رجال) الهندسة أو اترك طب الاسنان والعبث بأفواه الناس، هذه شغلة تليق بالبنات ولا تليق بك.

قررت الدراسة في كلية العمارة، محدثاً نفسي لأجرب سنة، ففي السنة القادمة قد أقدم فحص قبول من جديد، لعلني أدخل كلية الطب البشري، كما أحب وأرغب، بعد أن تسلحت بمضبطة مختاير تشهد أنني من أبوين تركيين.

السنة الجامعية الأولى



هكذا بدأت سنتي الجامعية الأولى في كلية العمارة، في خريف عام ثمانية وستين، أمامي مدرجات وقاعات وأدوات رسم، كنا خمسة وستين طالباً وطالبة، خمس عشرة طالبة وخمسون طالباً، ثلاثة طلاب من جنسيات أجنبية، وأنا وطالب آخر من سورية وثلاثة طلاب من إيران. أظهرت من البداية تميزي وقدرتي على الرسم الحر، وكنت خجولاً جداً لضعف لغتي التركية، أتجنب

الحديث مع الطالبات، فلم اعتد الحديث معهن، وهذه المرة الأولى التي ألتقي بهن في صف واحد، ويفقني انفتاحاً وجرأة. دخل أستاذ الرسم الحرّ قاعة الدرس، وهي أول محاضراتي، قاعة واسعة بجدران زجاجية، تفقد الحضور والغياب، طلب أن نرسم أي شيء يدور في عقولنا، خلال ساعة واحدة، باستعمال قلم الرصاص فقط، كان يودّ التعرّف على قدرات هؤلاء الطلبة المستجدين، توزعنا كل منا على طاولة خاصة به، رسمت حارة من حارات قريتي كما تخيلتها، فبدت رسمة غريبة مميزة، كانت تجلس أمامي ثلاث طالبات، انتهت إحداهن إلى رسمتي، أعجبت بها، فأشارت إلى زميلاتها قائلة:

- شوفوا هذا شو عامل، اشي حلو كثير.

رأيت في عيونهن انبهاراً وإعجاباً، فلم يعرفن أنني طالب أجنبي، ابتسمتُ لهن، واحمرّ وجهي خجلاً، في الوقت نفسه كنت فخوراً بما رسمت، وأثناء تسليم ورقتي مررت بإحداهن ورأيت ما رسمته، حاولت أن أثني على رسمتها بلغة تركية مكسرة، قلت لها: أنت جميلة رسمتك! فاحمرّ وجهها خجلاً، وحسبني أغزل بها، فقد خانني التعبير ولغتي التركية لم تسعفني، أدركت الفتاة أنني غريب، وأخذت تتقرب مني، لا أعرف هل هو من باب الرغبة بالمساعدة أم من باب الإعجاب؟! فقدمت لي دفترها لأنقل ما سجلته من ملاحظات أثناء المحاضرات، تتأخر عن زميلاتها لنركب سوياً في (الباص)، أنزل قبلها، ولم أجرؤ يوماً الجلوس

بجانِبها أو الحديث معها، كانت تحيات خجولة، وبسمات غبية ساذجة، فتاة مثابرة مؤدبة سمراء البشرة كبنات العرب، لطيفة بها نغاشة ممزوجة بجدية محببة، أما أنا فقد كنت مهزوز الشخصية لضعف لغتي وقلة خبرتي.

لم تدم صداقتي مع تلك الحسناء القمحية طويلاً لأسباب تتعلق بي شخصياً، فقد كنت شاباً شرقياً متخلفاً، كانت ذكية جداً ومتميزة عنا جميعاً في نشاطاتها العملية والعلمية، وقدراتها فائقة على أداء الواجبات، كان الطلبة يتقربون منها، رغم أنني الوحيد الذي أولته اهتماماً خاصاً، وأخبرتني ذات يوم أن اسمها نواش هكذا يدعونها في البيت، أما اسمها في الوثائق بينار.

القشة التي قصمت ظهر البعير والتي أدت إلى قطيعة بيني وبينها، إنني رأيتها يوماً تبسم مع أحد الزملاء أثناء تنظيف الأدوات والفُرَش الخاصة بالألوان المائية في مغاسل قاعة الرسم، تحركت الحمية الجاهلية في نفسي، وبكل صرامة رمقتها بامتعاض ودون تحية، ذاك اليوم لم تنتظري كعادتها، وتركتني لتفاهاتي وتخلفي ثلاث سنوات من عمرنا الدراسي، وقررت عدم الالتقاء بها وبغيرها من الزميلات، رفضت صداقة أحد الزملاء الذي حاول التقرب منها، وعلمت من زملائي الذين زاروا بيتها في إحدى المناسبات أنها تقيم على بحر مرمرة، وإن والدها طيار، وأنها تعيش حياة مترفة، فطاولة الرسم في بيتها كما وصفوها فخمة، لا أستطيع شراءها بعد تخرجي حتى لو عملت بمهنتي سنوات،

عندها أدركت أنني غبي. تذكّرت طفولتي الشقية، وعقدت مقارنة بيني وبينها فوجدت الفارق كبير، ففي الوقت الذي كانت تقرأ فيه كتب الأطفال كنت آنذاك أصغي لغرافات العجائز الفلاحات عن نص نصيص وأبو طبر وأبو رجل مسلوخة وحديدون، وعندما كانت تسافر مع أبيها الى بلاد الله الواسعة كنت مشغولاً برعي غنميتين وحمار وصيد العصافير مع أصدقائي البسطاء، وهم أكثر مني فشلاً. تألمت كثيراً، وفشلت في إصلاح العلاقة بيننا، رغم ملاطفتها والتقرب منها، لكن دون جدوى، فقد سبق السيف العذل.

بعد مرور شهر على الفصل الدراسي الأول أصبح لي أصدقاء أتراك، صديق يدعى (ظفر أونال)، وهو من منطقة أزمير من أصول بلقانية، وصديق آخر يدعى (علي رضا توران) من منطقة اسبارطة في أواسط الأناضول، كانا صديقين رائعين، وقدّما لي المساعدة في حلّ الواجبات الدراسية، وفي كتابة التقارير المطلوبة لدروسنا، ثلاثتنا فقير، لا نمتلك المال، كان (ظفر) يتيمًا طيبًا جداً، يسكن في بيت مستأجر مع أمّه وأخيه في اسطنبول، ويدعوني لبيته لتناول الطعام، كانت أمّه سيدة حنونة، وقد حاكت لي كنزة من الصوف، وهم من المهاجرين المسلمين من يوغسلافيا إلى تركيا، أما (علي رضا) فكان معدماً مالياً، ينام في بيت الطلبة، ويعمل ليلاً في النوادي الليلية، ويعزف على العود لتأمين مصاريف دراسته، لكنه عزيز النفس، ذكي فطن، مرهف الحس.

كان زملائي الآخرون متحابين متعاونين، فلم أشعر يوماً بالفارق الطبقي، رغم أنني الأجنبي بينهم، يمازحونني ويطلبون أن أكتب كلمات على اللوح بحجة أنهم يمتحنون خطي، واكتشفت أنها كلمات ذات معان معيبة، فيضحكون وتخجل الطالبات، فيعنفني صديقي (ظفر). كنت أرسم لهم بعض الورود أو الكاريكاتيرات على اللوح، فيعجبون بها، رغم هذا وذاك فقد أحببت الدراسة في كلية العمارة، كانت بعض المسابقات تستلزم الرسم للأبنية القائمة القديمة والعريقة في الشوارع والحارات، وهو ما يداعب مشاعري، ويمنحني متعة ممارسة هوايتي المفضلة أيضاً، شعرت أن أساتذة التصميم يحاولون مساعدتي ويهتمون بي ويشنون عليّ، مما عزز ثقتي بنفسني وحفزني على الإبداع واثبات وجودي.

كان هاجسي الأول في السنة الدراسية الأولى الاجتهاد والجهد، فأتابع دروسي باهتمام بالغ، ولم يكن هذا حالي فيما سبق من حياتي، كأن انقلاباً حدث في تفكيري بعد مرحلة انتقالية لم تكن سهلة عليّ، محاولاً تجاوز ضعف قدراتي اللغوية وضحالة مخزوني العلمي، بالمقارنة بزملائي الأتراك، كان هناك نخبة من الطلاب الأتراك، الذين قدموا من كل أنحاء الدولة مترامية الأطراف، أما نحن المغتربين، فمعظمنا من الطلاب الذين لم يجدوا لهم مقعداً في الجامعات العربية بسبب ضعف تحصيلهم العلمي، وجدت الطلاب الأتراك متقدمين علينا في مناهج الرياضيات الحديثة والنظريات العلمية والفيزيائية التي توصل لها العلم الحديث، مما اضطرني إلى الاستعانة بأصدقائي الأتراك لأداء واجباتي في هذه

المواد داخل الجامعة، نبقى سوياً بعد انتهاء محاضرات الجامعة
نعمل ونرسم ونصمم ما هو مطلوب منا حتى ساعة متأخرة من
الليل، ثم أعود إلى البيت، وهذا يكلفني أجرة (تاكسي) يساوي
مصري في يوم واحد، لذلك كنت أنزل إلى قاعة الموسيقى
في الأدوار السفلية، حيث القاعة الواسعة المفروشة بالسجاد،
وجدرانها مغطاة بستائر مخملية سميكه من السقف حتى الأرض،
تلافياً للتشويش المنعكس منها أثناء عزف البيانو القابع في أحد
زواياها، مما يضفي عليها طابع الهيبة والجمال، أجلس على
كرسي خلف الستارة، وأنام حتى الصباح، ثم أنسل إلى المغاسل
وأهني نفسي، ثم أصعد إلى المحاضرات في قاعات الدرس.

تعتمد جامعة اسطنبول الفنية نظاماً صارماً في التدريس، حيث
يبدأ الدوام في التاسعة صباحاً، ويستمر حتى السادسة مساءً،
يتخللها ساعة غداء داخل الجامعة، تُقدّم لنا وجبتي طعام ظهراً
ومساءً بسعر رمزي، كل وجبة مكونة من أربعة أطباق، وتكلفة
وجبة الغداء ما يعادل سبعة قروش، والعشاء خمسة قروش أردنية،
احتفلت الجامعة بالعيد المائتين لتأسيسها، وفي تلك السنة لم
تتقاض منا قرشاً واحداً، فهي جامعة حكومية، والدراسة فيها
مجانياً، ونظام الدراسة فيها سنوياً، والسنة الدراسية فصلان
دراسيان، ولكل تخصص منهاج محدد، وتظل المجموعة من
الطلاب على طوال فصول الدراسة، يترفع من ينجح من صف إلى
آخر، كنّا كعائلة واحدة، نتواصل ونلتقي حتى بعد نصف قرن من
تخرجنا.

تُجرى في كل عام من شهر حزيران الامتحانات السنوية، في الدورة الأولى لم يحالفني النجاح سوى بمادتين من أصل اثنتي عشرة مادة، كانت علامتي في الرياضيات عشر من عشرين، وفي الرسم الحر ثمانية عشرة من عشرين، وعليّ أن أنهى العشر مواد في الدورة الثانية، في أيلول القادم، فكانت العطلة الصيف هي فرصتي لتعويض ما فات، نجحت في أيلول بتسع مواد وبقيت مادة واحدة، ويحقّ لي تقديمها في السنة الثانية، وتقديمها في شهر شباط.

صعب عليّ فهم مادة علم الاجتماع (سوسيولوجي)، اضطررت لحفظ ما جاء في كراسة الدكتور المؤلفة من سبعين صفحة، وفي امتحان المقابلة الشفوية حصلت على أربع علامات من خمس، وفي الامتحان التحريري حصلت على خمس عشرة علامة كاملة، واجتزت عقدة الامتحان.

نجحت وتجاوزت السنة الأولى، ولم أقدم فحص القبول من جديد، متجاوزاً رغبتني في كلية الطب، فوجدت نفسي في العمارة، وأصبح لي أصدقاء جدد، وتفوقي في مادة الرياضيات في الدورة الأولى قد رفع مكانتي بين زملائي الأتراك والعرب، فهي أصعب العقبات.

عندما يصبح الكابوس أكثر إيلاماً



دراستي في السنة الأولى وإطلاعي على تفاصيل متطلبات كلية العمارة قد وطدت قناعاتي في تخصصي هذا، وإنني من الممكن أن أكون مبدعاً مميزاً في مجاله، وكأن الله تعالى أراد لي ما خلقتني من أجله، وما منحني إياه من مواهب ورغبات، وملكة التخيل وإمكانية التعبير عن ذلك بالرسم الدقيق، مما أدى إلى التعرف على أصدقاء جدد طيبين وأساتذة كبار، ورضيت بما قسمه الله لي.

ابتدأت السنة الجديدة، نفس الزملاء وعين الأصدقاء ألفت مدرجات الجامعة ومرافقها ومطعمها وقربها من مكان سكني، أصبحت المواد الدراسية تأخذ المنحنى المهني، تصاميم المشاريع ورسم مخرجاتها وتفصيلها، لم يكن يرعيني كما لدى غيري، بل كان هو محور شغفي، وأصبح الكرتون الأبيض والملون وأقلام الرصاص والممحيات وأقلام التحبير ومسطرة الـ T والألوان المائية هي شغلي الشاغل، تملأ عليّ وقتي كله، حتى عندما أعود للبيت كنت أشرح للعجوز أوفيميا أحداث يومي، عن زملائي ومدرستي، سواء كانوا رجالاً أم نساءً، تسعدُ ولا تفتأ توصيني بالمحافظة على نفسي، و تحذرنني من البنات والنساء، وضرورة عدم مجاراتهن أو التعلق بهنّ؛ لأنهن سوف يعقن تقدمي ويرهقن جيوبي، زاد اهتمامها بي، وتوفّر وسائل راحتي وتلبية حاجاتي، وتُميّزني عن شاب تركي كان يستأجر الغرفة الثانية عندها، مثلي تماماً.

النشاط المشفوع بالأمل والاجتهاد والمتعة والرغبة رافقني منذ بداية السنة الجامعية الثانية، رغم توسّع وكثرة المهمات الدراسية والوظائف، وأصبح التحضير البيتي يُرهق كاهلي، واستقرت أموري المالية تماماً بعد أن انتظم الوالد في إرسال النقود اللازمة لتلبية احتياجاتي، وبعد أن تأكد بأنني منتظم في الدراسة وتحصيلي جيداً، حيث كنت أبعث له أخباري أول بأول، وأضعه بصورة معيشتي وأحوالي بشكل متواصل، لهذا مضى الفصل الأول سلساً سريعاً بلا مشاكل.

كان للإجازة بين الفصلين وقعها عليّ، فطلبت الراحة والاستجمام وكسر الروتين، فذهبت وصديقي شاكر في رحلة إلى جزر الأميرات في بحر مرمرية قرب اسطنبول من بوابة القرن الذهبي عند جانب الجسر الأول (السيركجي)، ركبنا إحدى البواخر التي تجوب البحر متنقلة بين الجزر الثلاث بأجر زهيد، الرحلة في تلك البواخر ممتعة جداً، وجميع الركاب هم في سياحة أو رحلات جماعية، يبدأون المرح والغناء بمجرد صعود الباخرة، ولحظة مغادرتهم الباخرة ونزولهم على رصيف الجزيرة الكبرى، ينطلقون باتجاه الغابات، على قمم الجزيرة المحاطة بالبحر الهادئ الجميل، على طول الطريق الذي يسلكونه مشياً على الأقدام، حيث لا مواصلات على الجزيرة سوى عربات الخيل، تسمع الأهازيج والمعزوفات تنطلق من حناجر الشباب والصبايا أثناء مسيرة جماعية تمرّ من بين مباني (فلل)، وذلك بمتهى الجمال في حدائقها وأشجارها السامقة، حتى إذا وصلوا مواقع التّزّه المجهزة بما يلزم من أماكن الشواء والمقاعد والمرافق الصحية تبدأ الدبكات والمرح والرقص على الأنغام، يشارك بها من يرغب، حتى لو لم يكن من ضمن المجموعة المترافقة، وبعدها تبدأ رائحة الشواء التي تتركز الأنوف.

سعدنا جداً بتلك الرحلة، وشاركنا الناس في مرحهم ورقصهم، وتناولنا السندويشات في رحلة العودة مساءً، وأثناء الرحلة شعرت بألم مزعج في عيني اليمنى المصابة، فتحاملت على نفسي، وعاد كلّ إلى بيته، والتقيت أوفيميا وقصصت عليها تفاصيل الرحلة

وسعادي بها، سُرّت (الختيارة) بأخباري، واطمأنت أنه لم يكن في الرحلة نساء.

في الأيام التالية ازداد شعوري بعدم الراحة من عيني، وأصبح يتغيّر لوناً وحجماً، وظهرت بقع سوداء وزرقاء في بياض العين، مما زاد في همومي المستقبلية، وعمّق خجلي، فلا أحَدَق بوجه مُحدثي مداراة للعب الذي يحرّجني ويشير فضول من يقابلني، وهذا ما دفعني لزيارة طبيب العيون، القريب من سكني، وقد لاحظت اسم عيادته أثناء مروري في شارع الاستقلال، وجدته طبيباً متقدماً في العمر، كان هو وزوجته، وكأن العيادة بيته الذي يعيش فيه، أما اسمه فلم يكن تركياً، فأظنّ أنه أرمني أو يهودي، كان لطيفاً جداً، تألمت كثيراً أثناء فحص عيني، وعلم أنني طالب أجنبي يدرس في كلية الهندسة المعمارية، دعا زوجته لإلقاء نظرة على حالتي، ولا أعرف أهى طبيبة أم مساعدة له؟ كان قراره قطعياً، لا بدّ من خضوعي لعملية مستعجلة، قبل فوات الأوان، ووصفها بأنها بسيطة تحت البنج الموضعي، لإزالة الجزء التالف من الطبقة الخارجية لقزحية العين، والتعويض عنها بشيء آخر، ذلك تلافياً للضرر الذي سيحدث للعين السليمة، مؤكداً أن إهمال ذلك سيكون له عواقب وخيمة، حيث أن لغتي كانت ضعيفة، وفهمي لما يقول محدود، وخجلي يدخلني في شروء أفقد معه بعض التركيز، كانت الصورة التي حضرت في ذهني أن عيني ستصبح بمظهر أحسن، حتى لو لم أبصر بها، فلن يتغير شيء، إذ

لم أكن أعتد عليها فيما سبق، فمنذ سنوات طويلة قد تخلت عنها، وفهمت من حديثه أنه من الممكن أن يثبت قزحية خارجية بعد إزالة ما هو تالف، أعتقد أن الله تعالى أراد ذلك؛ حتى لا أتردد بالموافقة الفورية، خصوصاً وأني عانيت من رعب فقدان البصر.

حدد لي الطبيب تكاليف العملية والمستشفى والإقامة فيه، أربعة آلاف ليرة تركية، أي ما يعادل مئة وعشرين ديناراً أردنياً، وكى تتحقق إرادة الله، فقد كان المبلغ متوفراً لدي؛ كان أبى يرسل النقود كل أربعة أشهر، ووصلت حوالة منه للتو، فوافقت دون تردد، وكان من الممكن عمل ما يلزم عن طريق الجامعة دون تكاليف، لكن حرصى المزمع على تحمل مسؤولية نفسى، وعدم مشاركة أحد معارفى وإطلاعهم على مأساتى الخاصة التى تعيش معى منذ طفولتى، وأيضاً لا أرغب بأن تكون سبباً فى إثارة شفقة أحد عليّ، فكان دافعى الدائم أن يبقى هذا الموضوع سرّاً لا يعلمه إلا الله.

ذهبت فى الموعد المحدد إلى عيادة الطبيب، اصطحبني إلى المستشفى، كان المستشفى مبنى قديم، وكأنه جزء من كنيسة فى قلب المدينة القديمة، بعد وصولي اجتمع فى عيادة واحدة طبيبي وطبيب آخر فى الخمسين من عمره، يبدو أكثر خبرة من طبيبي، فحصى الطبيب الجديد بدقة متناهية، حتى تأكد أن عيني لا تستجيب للضوء، وأن بها تلفاً عميقاً، سريعاً وعلى سرير الشفاء بدأت عملية حقن المخدر (البنج) تخترق محيط عيني، وأيضاً فى داخلها، تحمّلت الألم على أمل الوصول إلى نتيجة مفرحة.

غطوني بـ (شرشف) أبيض، فيه فتحة واحدة مباشرة فوق عيني، بدأت معاول مقصاتهم تعمل في عيني بعد فتحها بمشابك، كنت أشعر أن تلك الأدوات المعدنية تعمل في أعماق دماغي، كان الألم مبرحاً، وأحياناً كنت أصرخ، والطبيب يهدئ من روعي: اصبر قربنا نخلص.. أسمع زميله الآخر يحذره: انتبه انتبه.. أجهدني العرق الشديد وضيق التنفس من الألم ومن (الشرشف) الذي يغطي وجهي. مضى الوقت وأنا أعاني آلاماً لا يمكن وصفها، وأتحامل على نفسي بالصبر، وأردد: وجع ساعة ولا كل ساعة، وسأبدو بمظهر جيد بين الناس، فلا أخجل من النظر في عيونهم.

نقلوني بعد انتهاء العملية إلى صالة فيها أربعة مرضى، بعضهم معصوب العين مثلي، شاب وثلاثة عجائز، جاء طيبي واطمأن عليّ، وناولني دواء، وحقنني بإبرة، أعتقد أنها مهدئة للنوم، ثم دخلت في نوم عميق. مكثت في المستشفى ثلاثة أيام، وشعرت خلالها أن الألم قد خفّ كثيراً، يمرّ الطبيب كل يوم لتبديل الضمادة، ويقطر في عيني، وناولني مضاد حيوي.

أثناء إقامتي في المستشفى لم يزرنني أحد، تعاطف معي من كان في الغرفة، وأخذوا يقدمون لي بعض الفواكه، وشعرت أن رائحتي أصبحت سيئة من الأدوية والعرق، لذا قررت في اليوم الثالث أن أذهب للحمام، لعليّ أمسح جسمي ببعض الكلونيا، وعندما وقفت أمام المرأة رأيت عيني المعصوبة ووجهي الأصفر، وخطر في ذهني أن أرفع طرف الضمادة عن عيني كي أطمئن

عليها، وهالني ما رأيته، وكدت أن أسقط على الأرض، فلم أر سوى كتلة من اللحم الأحمر، يحيط بها إطار أخضر، عندها انهرت كلياً، ولم أعد أشعر بمن حولي، أعدت الضمادة إلى مكانها، وعدت إلى سريري، اختبأت تحت الغطاء، وبكيت بمرارة ما بعدها مرارة، حتى كادت أعصابي تتفتت، وآمالي تحطم، وفكرت جدياً في الانتحار، وبطريقة الموت، خطر في ذهني أن أذهب إلى مكان فيه انبوب غاز أقطعه وأضعه في فمي، وأغلق أنفي، لكنني لم أقدر على ذلك، وبقيت تحت الغطاء، لاحظت من كان معي في الغرفة أنني غير طبيعي، وكشفوا الغطاء عن وجهي فهاهم وجهي، استدعوا الممرضة سريعاً، واتصلت بالطبيب الذي حضر على وجه السرعة.

أمسكت يده وقلت له والدمع يخنقني: ماذا فعلت بي يا دكتور، ردّ قائلاً: ألم أخبرك بذلك، ثم أخذني إلى مكتبه بعيداً عن الناس يهدئ من روعي، ويقسم: والله يا بُني أننا بذلنا قصارى جهدنا في انقاذك من الأسوء، والحمد لله أنك جئتني في الوقت المناسب، قبل أن يمتد الضرر إلى عينك الأخرى، وهذا ما كان سيحدث لا محالة، لولا أن رحمة ربك أدركتك، لحدث ما لا تُحمد عقباه، فلا تخف، ولسوف نعمل أحسن ما يمكن، وما توفره الوسائل الطبية الحديثة، لتكون عينك مثل أختها، وستكون راضياً بالنتيجة، ولن يتغيّر عليك شيء، وسيبقى بصرك كما هو، بل قد يكون أفضل من ذي قبل.

قدّم لي أدوية ومهدئات، وأعادني إلى السرير، وأوصى من كان في الغرفة الاهتمام بي، كرهتُ السرير والمستشفى ورائحة الأدوية حتى رائحة الكولونيا التي تشبه رائحة ورق الليمون، كرهتها ولا زلت أكرهها حتى اليوم، لم أطق البقاء في الغرفة ليلة واحدة، وعيون من حولي ترثي لحالي، وتشعّ منها الشفقة عليّ، حيث أنني غريب، ولم يزرنني أحد! غادرت المشفى أجرّ ثياب الخيبة، وعلى عيني ضمادة بيضاء تلتصق بوجهي.

لم استطع العودة إلى البيت، عند اوفيميا؛ لأنني لم أخبرها، ولا أريد أن أُلحّ تعابير وجهها عندما تراني بهذا الحال المزري، ذهبت إلى بيت صديقي شاكر، الذي فتح فمه وقطّب جبينه، كان عنده أحد الطلاب القادمين من سلفيت، ماجد الصرفندي، أخبرتهما بما حدث، وطلبت من شاكر أن يذهب إلى اوفيميا ويخبرها بما حدث معي، كي تكون على استعداد نفسي حينما تراني، بقيت عند شاكر يوم وليلة، حاول صديقي أن يخفف الأمر عليّ، وأن أشاركه الطعام الذي صعب علي بلعه.

عدتُ إلى اوفيميا في اليوم التالي، واستقبلتني بتأثر بالغ، ولوم وعتاب؛ لأنني لم أخبرها بأمرِي، وحاولت أن تواسني كأُمّ، فالألم والخوف لا يخفى على أحد، قدّمت لي صحن شوربة لأول مرة، وقالت: أنت ابني، ليس لي غيرك، شد حيلك وتوكل على الله، هو ألطف بك من نفسك. كانت تلك المرأة مسيحية من الموحدين بالله.

وبعد أيام راجعت عيادة الطبيب لإتمام مهمته في إزالة الضمادة، وتعقيم عيني وفحصها وعمل ما يلزم، أبقاني عنده يراقب تحركات عيني، وإغلاقها وفتحها، ثم كتب لي شراء نظارة طبية بعدسات مظلمة، طمئنني هو وزوجته، وطلب أن أقوم بمراجعته بين حين وآخر، كي يطمئن عليّ، ويقدم توجيهاته الطبية، وودّعني بالدعاء، لكنني لم أعد إليه، ولم أراه منذ ذاك اليوم.

عدتُ إلى سريري في غرفتي، لم أكن راضياً، وشعرت أنني إنسان غير الذي سبق، وبقيت مستلقياً شاخصاً بعيني، وفكرت في مستقبلي، وكيف أقابل الآخرين؟! كنت أحدث نفسي بأسئلة تثير الشك، لماذا لا أبقى في الغربة ولا أعود لأُمِّي وبلدي؟! لا أريد أن يعطف عليّ أحد أو يشمت بي، أبقى غريباً، لا يعرف مأساتي أحد، خير من أن أسمع تعليقات تسمم بدني.

فقدان المرأة (الأم) التي هونت عليّ غربتي



انتهت إجازة نصف السنة التي لم تكن إجازة بالنسبة لي،
أضع نظارة طبية داكنة العدسات نسيبًا، لعلّي كنت أظنها تستر
عيبًا أردت إخفاءه. عدت إلى جامعتي، وبذلت جهدي أن أبدو
طبيعيًا، بل أحاول أن أتصنّع المرح وممازحة الأصدقاء وملاطفة
الزملاء، ويمكن إخفاء ما في داخلي من مشاعر الإحباط، لم يكن
لدى زملائي أي ردة فعل، ولم يسألوني عن النظارة الجديدة، التي

ما فتئت تلازمي بلا انقطاع، كأني احتمي خلف ستارة تقيني وهج أسئلة عيون متطفلة ناقدة، وزيادة في دفع البلاء أصبحت عظيم المجاملة لمن يستحق ومن لا يستحق، دائم الابتسامة والبشاشة، أتجنب الاحتكاك المفرط أو الاصطدام بأيّ كان، حتى وإن لم أطقه.

تحولت في المقابل إلى جلد الذات، من خلال السهر والمطالعة وتحضير دروسي وواجباتي بلا هوادة، كأني أرغب أن أثبت لنفسي قبل غيري بقدرتي على تحقيق التميز عن أقراني، بل أستطيع منافستهم والتفوق عليهم، والتزمت الدراسة بجدية، والقيام بالوظائف والمتطلبات الجامعية بمواظبة صارمة، ونذرت معظم وقتي لتحضير دروسي وزيارة المكتبة والبحث في كلّ ما يمتّ للعمارة والإبداع بصلة، ما لم أهتم به في حياتي المدرسية وما بعدها، مما دفع بالغيرة من بعضهم.

خلال هذا العام ونتيجة اجتهادي والتزامي من البيت إلى الجامعة ومن الجامعة إلى البيت توطدت علاقة الأمومة مع اوفيميا، السيدة التي غمرتني برعايتها وحنانها، وأصبحت أشعر بعاطفة الأمومة تشعّ من عيونها، وهي تخاطبني وتصطحبني إلى بعض المقاهي الواقعة على شاطئ مضيق البسفور، حتى غدت أناديها بـ «ماما»، وبإصرار لم أتوقعه حدّثني ذات يوم أنها ستذهب إلى محام تستشير به بما يلزم لتنجز معاملة تبني، فقلت لها: أنا ابن لك دون أية أوراق، فأجابتنني إنه لا يوجد لها قريب ولا وريث،

وأنا أحقّ من الدولة بأن أُرث من أشياءها لتبقى ذكراها خالدة،
لعلّها كانت تشعر بتردّي وضعها الصحي، فلاحظتُ ذلك ليلة
كنت أجلس في غرفتها حول مدفأة الفحم الحجري، وهي مستغرقة
في التفكير بلا حديث، بادرتها بالسؤال:

- مالك شو في يا أمي.

- لا بس خطر في بالي أني لست وفية.

- ليش يا ترى خير إن شاء الله.

- توفي زوجي منذ ثلاثين عاماً ولم ألحق به.

- يا مدام شو هالحكي لكل منّا أجل هو بالغه.

تنهدت وهي تنظر إلى خزانة زجاجية أنيقة مليئة بالفضّيات،
تقع في صدر غرفتها، ثم قامت لتريني الأدوات التي كان يستعملها
زوجها في صالون الحلاقة الذي كان يملكه، مقصات رفيعة رشيقة
جميلة متنوعه، ماكينات قص يدوية، أمواس حلّاقة لامعة كلّها
حديثة الشراء ولم تستعمل، بعض علب البودرة والكالونيا والقطن
وحبيبات الشبّ وصحون وطاسات فضّية، إضافة إلى بعض الهدايا
الخاصة والدروع وشهادات الشكر والتقدير. أدركت حينها أن
السيدة تشعر بدنو أجلها، تذكرت أنها في الأيام الأخيرة، كانت
تذهب إلى الكنيسة أكثر من سابق عهدها، لعلّها كانت تراجع
الطبيب أو المستشفى ولم تخبرني، كي لا تُثقل عليّ أو ربما كانت
تجري الترتيبات اللازمة للعناية بها من قبل الجمعيات أو دور

المسنين، في حال أقعدها المرض أو أدركها الموت، كلّ هذا وذاك بدافع الشعور أنها مغادرة الدنيا دون وريث أو قريب.

وقبل نهاية الفصل الثاني بشهر واحد من سنتي الثانية في الجامعة، وفي أمسية من أمسيات الصيف، وبينما كنت في غرفتي جالساً إلى طاولتي أقوم بعمل تصميم عمارة سكنية لمشروع نهاية الفصل، سمعت صوتها منهكاً، وهي تناديني من غرفتها الملاصقة لغرفتي، أسرعت إليها فوجدتها مستندة إلى ظهر أريكتها كانت تجلس عليها دائماً، ولأول مرة أرى الشال الذي تضعه عادة على ساقها قد وقع على الأرض، حتى بان لحم يديها ورجليها المترهلتين، ذهلتُ لأول وهلة:

- مالك يما شو في.

- مدت لي يديها وأعطتني ورقة عليها رقم هاتف.

وبصوت مخنوق طلبت مني الاتصال بسيارة إسعاف تابعة للكنيسة.

أسرعت إلى (السوبر ماركت) وطلبت الاتصال برقم الهاتف، وما هي إلا دقائق حتى حضر رجال الإسعاف وسيارتهم، التي حملتها على حمالة، فأمسكت الباب بيدٍ، ومدت يدها الثانية إليّ، وضعت في يدي مفتاح غرفتها قائلة بصعوبة:

- يا بُني يمكن ما أرجع، اغلق الغرفة وانتبه للدار.

- جلست بجانبها في سيارة الإسعاف.

وصلنا المشفى التابع للكنيسة كما أظن، سريعاً أجروا لها
تخطيطاً لنشاط القلب، كنت واقفاً بجانبها، لاحظت أن المؤشر
الذي كان يسرع أحياناً ثم يتباطئ ويتوقف قليلاً ويعلو وينخفض
بلا انتظام، جلست معها قليلاً، ثم ودعتها، وعدت لبيتي لإتمام
مشروعي.

لم أنم طيلة الليل إلا قليلاً، بقيت مشغول البال، خاوي القلب،
أعمل على طاولة الرسم الهندسي، وصورة وجه أوفيميا لا
تفارقني، وأثناء ذلك تغرورق عيني بدموع تشوش الخطوط أمامي.
في صباح تلك الليلة المتعبة سمعت طرقة على الباب، كان
شخص لا أعرفه، قال لي، وكأنه ينقل خبراً عادياً: لقد توفيت أمك
هذه الليلة، وهي الآن في قبو الكنيسة المبرد، ذهبت معه مسرعاً،
كانت مسجاة على طاولة في صحن القاعة، وعليها (شرشف)
أبيض، كشفت عن وجهها، وقبّلت جبينها، كان بارداً كالثلج، تهىء
لي انفراج سريرتها، والله اعلم.

خرجت أسأل، وماذا بعد؟! أخبروني أنه سيتم إبلاغي بموعد
جنازتها، عدت إلى غرفتي منكسر القلب، والألم يعتصرني،
والبكاء يخنقني، ورغم ذلك كنت مضطراً للذهاب إلى جامعتي
لمتابعة دروسي، وكنت في حالة من الدهول، غائباً عن الوجود،
كلّ ما حولي فراغ، التقيت (شاكر) في مطعم الجامعة، أخبرته بوفاة
أوفيميا، فلم يتركني وحدي، وبات عندي تلك الليلة، يواسيني
ويخفف من حزني.

مررت بأيام صعبة في حياتي، افتقد أمي كل لحظة، أعود للبيت في وقت متأخر من الليل، كان ذاك الشاب التركي الذي يسكن بجوار غرفتي المجاورة خير مواس لهمومي، جاء أحدهم من الكنيسة يخبرني أن ضحى الغد هو موعد جنازة (المدام) أمك، لعلها أخبرتهم أنني ابنها قبل أن تموت، ذهبت في الموعد المحدد، رافقتها في سيارة الموتى حتى موقع الدفن، وبعد انتهاء مراسم الدفن عدت وحيداً مشياً على الأقدام مسافة طويلة، باكياً متألماً، تعبت من المشي، فركبت الباص عائداً إلى البيت، كانت تلك السيدة الشمعة التي أضاءت لي أول الطريق، لم أنسها يوماً، وأزور قبرها كلما ذهبت إلى اسطنبول، وأقرأ الفاتحة على روحها.

رحلت الإنسانية التي عرفتها منذ وطئت قدمي اسطنبول، أقمت في بيتها أكثر من ثلاثين شهراً، حرصت عليّ الحرص كله، ورعتني كأم خائفة، الآن أشعر باليتم ومرارة الفراق والضياع، لم أشعر به أثناء وجودها.

أقمت في غرفتي إلى جانبي غرفة الشاب التركي، وقليلًا ما نلتقي، وذات يوم جاءني سيدتان وطلبتا مفتاح البيت، وتدعيان أن السيدة اوفيميا أوصتهن بفتح غرفتها، تجولنا في الغرفة، وفتحت إحداهن أحد أدراج الخزانة، ووجدت فيه مئتي ليرة تركية، كنت قد دفعتها للسيدة قبل وفاتها، أخذتها مع بعض الحاجيات البسيطة وبعض الأشياء المتعلقة بالعقيدة المسيحية كالصليب وغيره، أغلقت الغرفة بإحكام، ولم استطع دخولها بعد ذلك، رغم علمي بما تحتويه من تحف وفضيات، سمعت صوت الشاب التركي

يتسلل ليلاً إلى غرفتها، ويعبث بأغراضها، لم اعترض على ذلك، إذ بإمكانه أن يأخذ ما يشاء نهاراً وأنا في الجامعة، كنت أظن أنه أحق من غيره بالأشياء، ولم أكن أهتم لمن ستؤول تلك الأشياء، كما لم أكن أعلم كيف يفتح باب غرفتها، ومع ذلك لم أسأله، ولم أكن مهتماً للأمر.

مضت ثلاثة أشهر على إقامتي والتركي في البيت بعد رحيل السيدة، ولم يسألنا أحد عن الأجرة أو غيرها، حتى جاء ذات يوم مفوض من المحكمة أو البلدية وأخطرنا بمغادرة البيت خلال أسبوع؛ لأنه سيتم شمهه بالشمع الأحمر، غادرت البيت الذي لا زال قائماً حتى الآن، وأزوره كلما ذهبت إلى اسطنبول، وبعد خمسين عاماً من تلك الأحداث، أستعيد ذكرياتي فيه، وفي زيارتي الأخيرة رافقتني زوجتي وبناتي، وقد تحوّل البيت إلى مشغل خياطة، اعتقد أنه عائد للدولة.

بعد شهر من وفاة اوفيميا كنت أقضي النهار وقسماً من الليل في الجامعة، أتابع دراستي وأنجز مشروعي، وقدمت الامتحانات وسلّمت مشروع التصميم ومجسمه، وما هي إلا أيام وأعلنت النتائج على اللوحة، كانت المفاجأة السعيدة، كتب باللون الأخضر بجانب اسمي واسم صديقي علي رضا يُرفّع، ونحن الوحيدان من بين زملائنا، أما البقية فقد كتب بجانب أسمائهم باللون الأحمر لا يمرّ، كنت في قمة السعادة بهذه النتيجة، رغم أن أغلب علاماتي كانت على الحافة، فنجاحي في اثنتي عشرة مادة دراسية في الدورة

الأولى ظاهرة غير مسبقة، خاصة أنني طالب أجنبي من بين زملائي الأتراك، فقد أدهشهم نجاحي، فأحياناً يقصدون تأخير بعض المواد للدورة الثانية ليحققوا علامات مرتفعة تؤهلهم للدراسات العليا، لكنني لم أكن مهتماً بالعلامات قدر اهتمامي بالنجاح.

بعد ظهور النتائج وقيل مغادرة بيت اوفيميا بدافع الفضول والفرغ والوحدة قررت فتح الشبابيك المطلّة على الشارع الجانبي، وكثيراً ما حذرتني السيدة من فتحها، وجدت شبابيك تكشف شبابيك غرفتها، ولا يفصلهما سوى أمتار عن شبابيك شقق في الجهة المقابلة تقيم فيها راقصات وبنات الليل، وبعض المتحولين جنسياً، فبعد منتصف كل ليلة يحدث هناك ما هو مخجل ومثير، وأحياناً مقرف، مساج بنات يقوم به رجال وهن عاريات، وهناك أفعال لا تخطر على البال، ممارسات حميمة، صوت وصورة، وصدقاً استهوتني الفُرجة، بل دعوت أصدقاء المقربين ليشاركوني العرض الحي للمشهد، ننزوي في الظلام، نشاهد تلك اللوحات الحمراء، ولا ننام إلا في ساعة متأخرة من الليل، أو بعد أن تُطفئ الشبابيك أنوارها.

لك الرحمة يا اوفيميا، كم كنت حريصة عليّ، كان شرطها الأساسي لإقامتي أن تبقى تلك الشبابيك مغلقة بستائر سوداء، مثبتة في الإطار الخشبي للشباك، ولا تفتح أبداً، ففتحها خط أحمر، قد يعرّضني للطرد.

رفقة طيبة وزيارة دافئة



عندما لا يكون على الطالب دراسة مواد يكملها تصبح الإجازة الصيفية ثلاثة أشهر، وهي إجازة طويلة جداً لمن هو مثلي، لا أهل يعود إليهم، وأصدقاء يسافرون إلى بلادهم، فأبقى وحيداً، وبعد وفاة السيدة الطيبة كانت الإجازة مملة، كانت تخفف من وجع وحدتي وغربتي.

بعد إعلان نتائج الامتحانات عاد زملاؤنا إلى أهلهم إلا علي رضا فقد تأخر سفره لالتزامه مع فرقة موسيقية، زارني في البيت، واقترح أن أرافقه إلى بلده وأهله، ولم أتردد بقبول الدعوة، فهذه فرصتي للخروج مما أنا فيه.

علي رضا صديق مخلص، لا يجامل ولا يجادل، يعتمد على نفسه في كل شيء وفي دراسته، ذكي بالفطرة، حاضر البديهة، شاب شهم، فقير الحال، غني النفس، يساري الفكر، لا يدعي التدين، ولا يخوض في الحديث، يعزف الساز (العود التركي) بحرفية عالية، شاب حنطي البشرة، طويل القامة، بهي الطلّة، جمعتنا صداقة قلّ مثيلها، بيننا محبة وتعاون، وإيثار نابع من القلب، عقدنا العزم على السفر إلى بلدة (سنيركنت)، إحدى بلدات مدينة اسبارطة وسط تركيا.

لا أعلم لماذا تنطلق جميع الحافلات مساءً إلى الأناضول من اسطنبول؟! لعل السبب هو بُعد المسافات، والوصول في نهار اليوم الثاني قد يكون مريحاً، ركبت الحافلة وعليّ، نتسامر طوال الليل على وَقْع عجالات الحافلة وصفير الريح، أعلمه الحروف العربية وبعض الكلمات البسيطة، تنفس الصبح وتوقفت الحافلة للراحة وتناول الإفطار، ثم تتابع مسيرها، إلى أن وصلنا مدينة اسبارطة ظهراً، ومن هنالك ركبنا حافلة آخر إلى بلدتهم، سالكين طريقاً ترايباً ساعتين أو ثلاث، في رحلة متعبة، إلى أن وصلنا بلدته عند الغروب.

استقبلتنا والدته صديقي بحنان الأم، وكانت أخته الصغيرة «زينات» عصفورة البيت، تطير في أرجاء البيت فرحة، حضر والده بعد حين، ورحب بنا بكلمات قليلة، ثم انزوى في غرفته، رجل في منتصف العمر، ضخم الجثة، عليه سحنة موظف الأرشف بنظارته السميكة وبدلته الزرقاء باهتة اللون، أسرة صغيرة تعيش في بيت قديم، مؤلف من طابق سفلي معتم، وأمامه حوش ترابي، وفي الطابق السفلي يتم تخزين مؤنة البيت، وتشعلق عليه سلال العنب الطازج، يؤكل بشهية، وما يتبقى منه يُعصر في حوض، وعلى يمين مصرف يسيل فيه عصير العنب إلى بئر التخمير، ويُحفظ نبيذاً، وفي الطابق العلوي صالة وغرف نوم، وأمامه سطح مكشوف، نقضي ليلي السهر في فضائه، هناك عرفت أن صديقي من الطائفة العلوية، وجميع أهل القرية من تلك الطائفة، يجلس والده ليلاً يشرب النبيذ، ويمسي رجلاً لطيفاً مجاملاً كريماً، يسأل ويستفسر باهتمام وطيبة نفس.

في هذه الزيارة تعرفت على شباب أتراك من جيلنا، طيبين مثقفين، جلهم ذو أفكار يسارية متطرفة، يشربون النبيذ الذي يعصرونه من عنبهم، يعزفون آلة الساز بطريقة ساحرة، كنا مجموعة شباب في رحلة إلى أحد الروابي المطلة على بحيرة قريبة من القرية، وأهم تحضيراتهم للرحلة (جالون) سعتة عشرة لترات من النبيذ، واثنين من أعواد العزف التركية، وقليلاً من الشواء، وكان المشروب والعزف والغناء الشعبي الأصيل أهم من الطعام.

الغريب أن الناس في تلك القرية لا يصلّون، وقد شاهدت مسجد القرية فارغاً، علمت أن والد علي رضا كان رئيس فرقة دينية يسمونه (حيدر)، يجتمع الرجال في حلقة، كلّ منهم يحضر زجاجة نبيذ معه، يجلسون وينشدون أناشيد تمجّد سيدنا علي بن أبي طالب - كرّم الله وجهه - وأهل بيته، يشربون النبيذ بشراهة، ولديهم القناعة أن ما يفعلونه صحيحاً وليس محرّماً، ويبررون فعلهم بأن النبيذ لا يذهب بعقولهم، ولا يشترونه، بل يصنعونه من كرومهم، وأنهم حين يشربون النبيذ يصبحون بعيدى التفكير في دنياهم، وإلى الله أقرب.

اصطحبتنا والدّة علي رضا إلى إحدى القرى التي كانت تعمل فيها مدرّسة أو داعية، استقبلنا الناس باحترام وحفاوة لافتة، مجرد أن يعرف الرجال أنني فلسطيني لا يتوانون عن طرح أسئلة تتعلق بالقدس، وكيف أن حفنة من اليهود هزموا الدول العربية مجتمعة، يقول كبار السن: هم العرب استرجلوا على العثمانيين في الحرب العالمية الأولى على الرغم أنهم مسلمون مثلهم، وقد لمست من حديث بعضهم الحقد على العرب، حاولت أن أبرر لهم الأحداث، لكن اللغة لم تسعفني، فيتدخل رضا ويغيّر الموضوع.

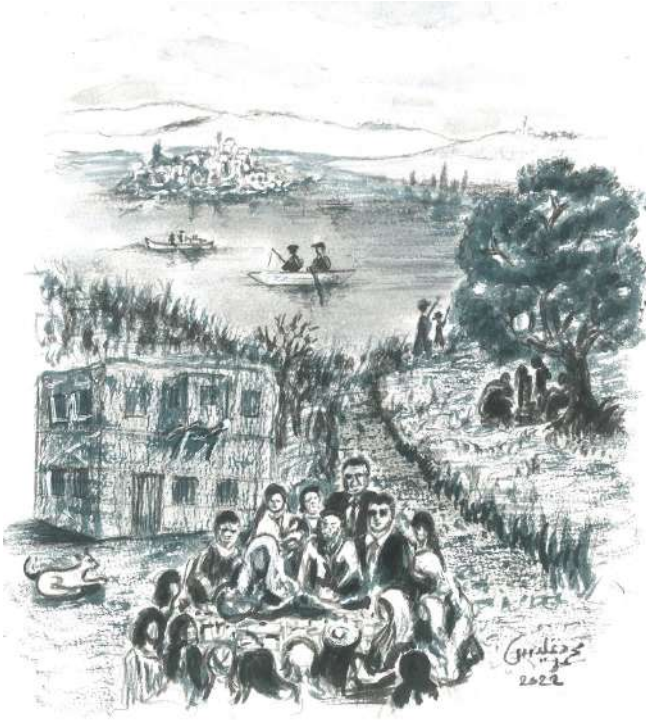
ترتدي نساء القرية لباساً تركياً تقليدياً، سراويل واسعة مزركشة، مناديل بيضاء ملفوفة على الرؤوس، بيوتهم من الطين، وفي وسطها مكان لإشعال النار، بما يشبه المدفأة والمدخنة، يستعملون الحطب، وأحياناً الجلّة (روث البقر المجفف)، للتدفئة والطبخ.

كان احتفاء بي، وتكريم يليق بالضيف العزيز، اجتمعت بعض النساء والصبايا لصنع وليمة من البوريك المُحليّ، وهو الطعام الأكثر شهرة عندهم، ويقدم لأعز الضيوف، وإلى علىة القوم، في مجموعة صواني من البوريك بالجبن واللحم المفروم وغيرها، وكلّ ما أذكره أنها لذيذة وشهية.

كانت أمسية لا تُنسى، قضيناها في أحد بيوت تلك القرية، حيث يجتمع الرجال والشباب في بيت واسع نسيماً، يجلسون على فرش وبسط أرضية، ويتبادلون الأحاديث الطريفة والنكات المضحكة، تدخل إحدى الصبايا وهي تحمل صينية عليها الطعام، من الجبن والزيتون والمخللات وقطع اللحم المجفف (البسطرمة)، تلحق بها فتاة صغيرة تحمل وعاء النيذ، وهو مشروبهم المفضّل، حينها يحلو السهر، وتتناول ما تيسّر من الطعام والشراب بتمهل دون عجل من أمرنا، ويتخلل ذلك قصص وروايات، ومن ثم يُنزلون الساز المعلق بصدر البيت، يأخذه أحد العازفين، يقبله ويضعه على جبينه، ثم يبدأ بالعزف، تقاسيم ومقامات وأشعار بمتهى الروعة، وأثناء سماعي لتلك الموسيقى لم استطع التفكير في أي شيء، كنت مأخوذاً بكل أحاسيسي ومشاعري لذلك الإبداع الذي يصعب وصفه، يبدأ العازف بالغناء، ومن ثم يشاركه المتجمعون الغناء أو الرد عليه، أغاني الفلكلور التركي، التي تغنى في كل المناسبات، في الرخاء والمحن، في المرح والترح، في الغنى والفقر، في الفخر وعشق الوطن. عشقت ذاك العود، وقررت جازماً أن أشتري واحداً، وأتعلم العزف.

قضيت بصحبة صديقي (علي) أسبوعاً مميزاً بين أناس طيبين،
عشت بينهم تجربة فريدة، رغم غربتي وضعف لغتي، شعرت أنني
واحد منهم، عدت وعلي كما جئنا إلى اسطنبول، عاد إلى عمله،
وعدت إلى غرفتي ووحدي.

البحث عن الجذور المغتربة



حدّثتني أمّي ذات يوم عن أحد أعمامها، الذي كان جندياً في الجيش التركي منذ الحرب العالمية الأولى إلى أن استقر به المقام في تركيا، لم يعد إلى بلدنا منذ ذلك الحين، كان يتواصل مع إخوته في سلفيت حتى أربعينيات القرن العشرين، وبعد ذلك انقطعت أخباره، بعد أن أصبحت أقيم في تركيا، طلبت من أمّي أن تدلني على طرف خيط يوصلني لعمّها المفقود، وصلني مغلف رسالة

يبدو عنوانه مكتوب بحروف عربية، مما يدل أن تلك الرسالة كُتبت قبل قيام جمهورية تركيا الحديثة، وتغيير حروف اللغة التركية من العربية إلى اللاتينية، احتفظت بتلك الرسالة لعلّي أرجع إليها ذات يوم.

بعد عودتي من زيارة اسبارطة مع صديقي علي رضا عدت إلى فراغ قاتل في إجازة صيفية طويلة، سافر أصدقاء الدراسة إلى عائلاتهم، ولم يكن لديّ رغبة في زيارة أقاربي في حلب أو الأردن، ولا عائلتي في فلسطين، فضيق ذات اليد وتصريح الاحتلال للدخول وشيء من الاحباط جعلني في غنى عن أية مغامرة حمقاء، قررت البقاء في اسطنبول حيث البحر والتسكع في الحوارى وشارع الاستقلال، وليلاً أعود للبيت، يُداهمني النعاس بعد ملل مشاهدة ما يجري في العمارة المقابلة.

دفعني الفضول في البحث عن القريب المفقود، كان العنوان يشير إلى فندق القناعة (قناعات اوتيلي) في مدينة بورصة، والوصول إلى بورصة إمّا بركوب الباخرة إلى الطرف الثاني من بحر مرمرة، ومن هناك في الحافلة إلى بورصة، وإمّا إليها مباشرة بالحافلة، فاخترت الطريق الطويل في الحافلة، والذي يستغرق ساعات طويلاً، واعتقدت أنه أقل تكلفة، ورغبة في مشاهدة المناظر الطبيعية بطواف حول خليج ازميت.

وصلت مدينة بورصة عصرًا، لم أكن أعرف وجهتي، دخلت أول فندق رأيته أمامي، سألت الموظف عن اسم «فندق القناعة»،

نظر في دفتر الهواتف الذي أمامه، وقال: هناك فندقان بهذا الاسم، وأدرك أنني غريب الدار، اتصل بأولهما، وسأل عن قريبي، جاء الرد بالنفي، ثم اتصل بالفندق الثاني، وأخبرهم أن عريباً يسأل عن أحد أقاربه، كان صوت موظف الفندق مسموعاً:

- هل هو عندكم؟

- نعم هو أمامي.

- أرجوك لا تتركه يذهب، سأحضر في الحال.

وما هي إلا دقائق حتى نزل رجل من سيارة أجرة يستقلها، دخل مسرعاً، لمحت في عينيه لهفة غريبة، كأنه يبحث عن تاريخ ضائع، صافحني بيد ترتجف، لمحت وجهاً عريباً، فيه ملامح عائلة أمي، سألني:

- هل أنت من فلسطين؟

- نعم.

- هل سمعت عن شخص يُدعى الحاج عبد الله؟

- نعم هو من أعمام أمي، لكن لا أعرف عن مصيره شيئاً.

شكر صاحب الفندق، وأمسك بيدي، وقادني خارج الفندق، ركبنا سيارة متجهة إلى مركز المدينة القديم، وعلى مسافة لا تزيد على كيلومترين وصلنا إلى ما يشبه المقهى الشعبي في الطابق الأول من إحدى المباني التجارية القديمة، التقيت برجل بشوش الوجه، جميل المحضر، يرتدي بزة أنيقة، وربطة عنق، يبدو

كرجال أعمال، عرفت أنه شقيق من صبحني من الفندق، سألني عن الأهل والبلد، وعن عمّه شقيق أبيه، كنت فرحاً بلقائه، لا ينطق بكلمة عربية، كان شديد اللفتة للقائي، ودار بيننا حديث عمّا أعرفه عن الأتراك، كان بصحبة أصدقائه، وجميعهم التفوا حولي والفضول يشعّ من نظراتهم وأسئلتهم، شعرت كأنني في دائرة الضوء، أردّ عليهم مبتسماً، وإن بدا عليّ الارهاق، فالسفر طويل، وعيني قد أصابها ألم التهاب شديد؛ بسبب تغيّر الطقس، وإهمالي من التداوي بقطرة العين، كنت حريصاً على أن لا يظهر منها ما يوقعني في الحرج، وأتسلّح بنظارتي السوداء.

اصطحبني وقت الغروب الابن الأكبر للحاج عبد الله واسمه محمد (ابو جميل) إلى بيته، وهو رجل أعمال وسيم، وبيته قريب من مركز المدينة، اشترى زجاجة عرق أبيض، يقع بيته في إحدى الحارات الضيقة في البلدة القديمة، بيت قديم لكنه واسع، مدخله على الحارة مباشرة، وله حديقة خلفية جميلة، تناولنا العشاء، ثم انزوى أبو جميل إلى جلسته الخاصة يشرب العرق مع بعض المازات، ثم أخذ أفراد العائلة يتحلقون حولي، شباب وصبايا وأمّهات وخالات، عيونهم وألستهم تفيض بالفضول واللفتة والاستغراب، لعلهم كانوا شديدي الرغبة في التعرّف عليّ، وقد وجدوا في أصولهم التي ينتمون إليها، كنت سعيداً بهذا الاهتمام، أداري حرجي وخجلي، فلغتي ضعيفة غير قادر على التعبير عن مشاعري وأحاسيسي، وأخذ التعب منّي كلّ مأخذ، كانت تجربة جديدة في حياتي، وأصبحت محطّ اهتمامهم وأحاديثهم، فالأعين

تترقبني، والآذان صاغية، وتختلط مشاعري بمجاملتهم، فأعبر عن سعادتي بلغة ركيكة، دون أن أحدق في وجوههم، وإذا وجه أحدهم سؤالاً مباشراً كنت ألمح في وجوههم شبهاً واضحاً من بعض أقربائهم في بلدي، تمنيت لو أنني أستطيع نزع نظاراتي السوداء، وأراهم بعيني بما أمتلكه من حرية وثقة.

حان موعد النوم، وتفرّق الجمع من حولي، وذهب كلّ إلى بيته، واقتادني إحدى بنات محمد إلى غرفة مرتبة أنيقة، وفتحت غطاء السرير، وطوت اللحاف، وأومأت بتسامة على استحياء، وقالت: ستنام هنا هذه الليلة، ثم غادرت الغرفة، وأغلقت الباب خلفها، تحرّسني بنظراتها البعيدة.

في صبيحة اليوم الثاني، وبعد تناول الإفطار مبكراً، صحبني جميل الابن الأكبر لمحمد إلى القرية، التي هي بلدتهم الأصلية، وفيها العائلة كلّها والأقارب، وعلى رأسهم الحاج عبدالله عودة، الذي أصبح اسم عائلته بعد الجمهورية (آكلار)، وقد مررنا بقرية تدعى (اكجلار)، وفيها أنسابهم، ووصلنا إلى قرية (فضلي)، وهي القرية المقصودة (فضلي كوي)، وهي قرية زراعية وادعة، تقع على أرض مستوية خصبة، وعلى شاطئها بحيرة من المياه العذبة، تجاورها من الجنوب جبال مكسوة بالغابات، وبحيرة واسعة مليئة بالأسمك والجمبري بأحجام مختلفة، تتوسط البحيرة بعض القرى الواقعة على التلال، وتحيط بها المياه من كل جانب، ليس فيها أرض زراعية، وإنما بيوت فقط، ويبدو بناؤها غارق في القدم

والعراق، وبعض جدرانها من الحجر، يتواصل سكانها مع القرى الواقعة على البر بواسطة قوارب صيد صغيرة، يتقايضون الأسماك بالمواد الغذائية والخضروات الفواكه، تبدو تلك القرى القابعة في وسط الماء قديمة، ليست مستوطنات قريّة العهد، وروى أحد كبار السن أن تلك البحيرة ظهرت قديماً، أثناء خلاف بين الأمراء البيزنطيين، إذ أن أحد الملوك أراد زواج ابنه الأمير من بنت ملك آخر، لكن الملك رفض طلبه، فقام الملك الذي يسكن الأراضي المرتفعة بتحويل مسار الأنهار إلى أرض خصمه المنخفضة، فأغرق جميع الأراضي الشاسعة، لهذا بقيت بعض القرى قابعة على التلال الصخرية العالية نسبياً، ولاحظت أن صيادي الأسماك يدخلون البحيرة لمسافات بعيدة مشياً على الأقدام، ويصطادون الأسماك من بين الأعشاب والشجيرات الصغيرة، وإن أهل القرى المحاطة بالماء يستعملون أدوات نحاسية قديمة ونادراً ما تجدها في القرى المجاورة.

وصلنا القرية ساعة الضحى، ومررنا بنساء القرية، وقد أدهشني تشابه ملابسهن بملابس أهل قريتي في فلسطين، خاصة تلك الأمهات اللواتي يلبسن العباءة السوداء، كانت أمّي تلبسها في صباها، وتحت العباءة تلبس ثياباً طويلة ملونة، وعلى رؤوسهن مناديل بيضاء طويلة، يمشين في الطرقات بهدوء وتؤدة، مُطَرَقَات الرؤوس، وفي حوش البيوت يلقين العباءات جانباً، يُوقَدَنَّ النار تحت قدور الطعام، أو غلي الماء في دلاء معدنية سوداء، ينشرن الغسيل على حبال في أفنية بيوت من الطين المشوي، المدعم

بعوارض خشبية، المغطاة بالقرميد الأحمر، بعضها من طابق واحد، وبعضها الآخر من طابقين، وبأرضيات من الخشب، لا تحيطها أسوار، وساحاتها ترابية محاطة بالحطب والأشجار.

استقبلتنا النساء أمام البيوت مشمّرات الأثواب، يضعن أطراف أثوابهن تحت الأحزمة، وتظهر من تحت أطرافها سراويلهنّ استعداداً للأعمال البيتية، الرجال كما يبدو في أعمالهم الزراعية في الحقول، لا أنسى لقاء العمّة أمينة، البنت الكبرى للحاج عبدالله، امرأة في الخمسينات، طويلة القامة، بيضاء البشرة، طليقة المحيا، احتضنتني والفرح يشعّ من عينيها، وتزيد حفاوة في استقبالنا، يأسرنا حديثها، وتسرع في حركتها، أشبه ما يكون بالركض، لصنع الشاي، الذي يثّ الحياة والسرور في قلبي.

لم نجد الحاج عبدالله في البيت وقت الضحى، وأخبرتنا زوجة ابنه أحمد أنه سار إلى البحيرة بعد صلاة الفجر، يذكر الله ويصيد الأسماك، بينما كنت أقف إلى جانب جميل، وهو يتهمّك على النساء ويمازهن، إذ بالحاج عبدالله مقبلاً، يركب حماره، وعلى الحمار خُرج مبلول، فيه الأسماك الطازجة، تصنّع جميل الأدب، وأسرع يقبل يد جدّه، سلّمت عليه، وخيّل لي أنني أقف أمام جدي لأُمّي، فهو يشبهه تماماً، لكنه قصير القامة، ورجل مسن قد تجاوز الثمانين من العمر، أبيض اللحية، مستدير الوجه، يرتدي سروالاً كاكي اللون، وصدرية سوداء، وعلى رأسه طاقية المسنين الأتراك، رأي وعلم من أكون، فأمسك بيدي، وسألني بعربية مكسرة عن

نسبي، فأخبرته باسم أمِّي وجدي، قال: أنت ابن بنت ابن عمي، فقلت: نعم. حيَّاني بكلمات، وكأنه يعتذر قائلاً:

- أنا كان عندي واحد مره ومات (أي كانت لديه زوجة وماتت).

أدركت حينها أن لغته الأم قد ذوت، وعفا عليها الزمن، أنزلت النساء ما جلبه الحاج من أسماك وجمبري، لا زالت فيها بقية من الحياة، التقطها (جميل) كقط جائع، فأزاح الجمر من تحت القدور، وبسط الجمبري الحي فوقه، وما هي إلا دقائق حتى نضجت بلون ذهبي، فأخذ يقشّره ويأكل بنهم وتلذذ، وأكلت منه بعد تردد، كان طيب المذاق شهياً، مضى النهار بصحبة جميل حول البحيرة وبين أشجار الفاكهة المحيطة بالقرية، كان موسم الخوخ والمشمش والدراق والكرز، ومع تعليقات جميل ونفاته لم يبقَ شيئاً لم نأكله، كنْتُ أشتهي هذه الثمار التي فقدتها بعد مغادرتي سلفيت، وانقطاعي عن زيارات بيوت أقاربي.

في المساء يلتقي أبناء القرية في المقهى بعد رجوعهم من أعمالهم، فهو لقاء أشبه ما يكون بمنتدى أو ديوان، يشربون الشاي والقهوة، ويتحاورون ويتسامرون، ولا أحد منه يسهر في بيته، فالبيوت للنساء فقط.

جلست بين جميل وعمه أحمد وزوج عمته شوكت على دكة اسمنتية، ترتفع عن الشارع درجتين أمام المقهى، وكلّ قادم جديد يراني يسلم عليّ، وينادي عليّ عامل المقهى، ويقول: شوف الضيف شو يشرب. شربت مراراً الشاي والقهوة، ثم شكوت

الأمر لجميل، وقلت: لا أستطيع شرب المزيد. قال: هذا كرم أهل القرية، ولا يمكنك رفض كرمهم، وعليك أن تقول لصبي المقهى، قهوته أو شايه مشروب مع الشكر، وهو يسجل ثمن كل طلب، سواء كان شايًا أم قهوة، وسواء شربت أم لم تشرب.

عُدنا إلى بيت العمّة أمينة بعد أن أمضينا سهرة طويلة في المقهى، وأصرّت أن أنام عندهم، غادرنا جميل إلى أخواله بعد عشاء خفيف، أخذتني العمّة إلى الغرفة التي سأنام فيها، كانت في الطابق العلوي، هي بيت الزوجية لابنها مؤمن الذي تزوج منذ أسبوع، لمحت الحناء على يدي العمّة، ورأيت معالم الزينة الملونة المعلقة في الغرفة وأطراف السرير، أصرّت العمّة أن أنام في سرير العروسين، وينام العروسان في فراش على الأرض، وفي الغرفة نفسها، لم أغف إلا قليلاً، فقد كانت همسات العروسان وقبلهم تتناهى إلى سمعي في سكون الليل، مما طيّر النوم من عيني.

صحوّت متأخراً؛ لأن النوم العميق هاجمني في آخر الليل، فوجدت نفسي وحيداً في الغرفة، شعرت بحاجتي ملحة إلى الحمام، لا أكاد أن أضبط نفسي، ولم أكن أعرف أين يقع الحمام، نزلت من العلّة قاصداً البساتين لقضاء حاجتي، ولحسن حظي لمحت حماماً في طرف الحوش الخارجي.

عدت إلى البيت الأرضي، فوجدت العمّة قد أعدت الفطور، مثله فطور العروسين: سمن وعسل وسجق وفواكه مجففة وخبز أسمر مستدير معجون بقطع بالجوز البلدي، وفي اليوم

الثاني ودّعت الحاج عبد الله وقبّلتُ يده كعادة الأتراك، عائداً إلى «بورصة»، عرض عليّ نقوداً، فشكرته بامتنان، وقلت: معي يا سيدو ما يكفيني والحمد لله، وهذا العرض عادة يقوم بها الأتراك لطلبة العلم وللذين يذهبون للعسكرية، وهو نوع من النقوط.

عدت إلى بورصة، وتوطدت صداقتي بجميل، الذي كان يكبرني بسنة أو سنتين، رغم أن أول مرّة رأيته لم استحسن الحديث معه أو صحبته، وبالعشرة تبيّن أنه شخص مرح، وحرّ أصيل، ودّعته وأهله بالحفاوة نفسها كما استقبلوني، عدت إلى اسطنبول أحمل ذكريات مفعنة بالحياة، كأنني التقيت الأهل في وطني.

تجارب سكنية غريبة وفرصة ضائعة



قبل مغادرتي شقة المرحومة اوفيميا، تلك السيدة التي لم أعرف غيرها منذ أن وطئت قدمي اسطنبول، جاء محام يسأل عني وعنّها، ولم يعلم أنها توفيت، جاء لاستكمال ما بدأته المرحومة من أوراق التبرني، كما أخبرني فيما سبق، وبدون تفاصيل، وقد أخبرت المحامي بوفاتها، فعاد وعدت بخفي حين.

بعد أن أخبرني مندوب الدولة بضرورة مغادرة الشقة خلال أسبوع، كان عليّ أن أبحث عن بيت جديد، ولحسن حظي أن الإجازة الصيفية لم تنته بعد، وتوجهت إلى البلدات الواقعة على ضفة مضيق البسفور الغربية، تلك الأماكن التي أحببتها، فكم مشيت على شاطئه، وكم رافقت أوفيميا إلى المقاهي المنتشرة على طولها، وكم اصطدت السمك من بين صخوره، والإقامة في إحدى هذه البلدات يحتاج لمواصلة واحدة كي أصل الجامعة، فالباص متوفر بشكل دائم، حيث يقلّني من باب البيت إلى باب الجامعة، دون الدخول في زحمة المواصلات، وبعيداً عن الطلاب العرب، وضياع الوقت في لعب الورق، فأمامي دراستي ومشاريعي.

وقع اختياري الأول على منطقة (ارناؤوط كوي) أي قرية الارناؤوط، لجمال البيوت الخشبية، التي تغوص أقدامها في مياه المضيق، دخلت مكتباً عقارياً للتأجير، وهو دكان بسيط، يجلس خلف مكتبه رجل كبير السن، شرحت له طلبي، أدرك أنني غريب، وأن لغتي مكسرة، سألني عن موطني الأصلي، سردتُ عليه حكايتي وطموحي الذي أنشده، كان يصغي باهتمام شديد، حتى كادت أن تفرّ الدموع من عينيّ، ولم أسأله عن سبب تأثره، وقد أخبرني أنه من صول عربية، من مدينة حمص السورية، ولا يتقن العربية، أطرق برهة من الوقت، ثم رفع رأسه قائلاً:

- ستقيم عند عجوز، وإذا كنت نبيهاً ستكسب الكثير.

- المهم أن يكون المكان هادئاً ومناسباً لدراستي.

- وجدان هانم. (اختارَ عجوزاً تركية وحيدة، وغنية جداً، وهي زوجة أحد القادة الأتراك الراحلين).

سرنا إلى بيت العجوز، بيت يتوسط سلسلة من البيوت المتلاصقة، يفتح على شارع بلاطه حجري، لم تهتم العجوز بما سأدفعه من أجره الإقامة، عرضت عليها ما كنت أدفعه لأوفيميا، مئتي ليرة تركية أي ما يعادل ستة دنانير أردنية شهرياً، فوافقت. كانت العجوز طاعنة بالسن، قصيرة القامة، سمينة جداً، مما أتعبها على المشي، ويبتها مؤلف من ثلاثة طوابق، مفتوحة على درج داخلي، والساحة الأرضية هي المدخل، وهناك صالة جلوس ومطبخ، في الطابق الأول، وغرفة أنام فيها، ولها شبابيك واسعة، تطل على الشارع مباشرة، وأمام الشبابيك ما يشبه الأريكة للجلوس، ويمكن النوم عليها، وهناك ساحة علوية في الطابق الثاني، تقيم فيها العجوز، واكتشفت فيما بعد أن للبيت تسوية تحت الأرض (بدروم). انزلتني إليه العجوز، وهو معتم ومليء بأغراض يكسوها الغبار، صناديق وخزائن قديمة، لكنها جميلة، مما لفت انتباهي، وهناك زاوية مليئة بقوارير النبيذ المعتق ومشروبات روحية متنوعة.

وجدان هانم امرأة غامضة، لا مبالية، لا أعرف إن كانت طيبة القلب أم غير ذلك، كانت تدعوني للإفطار معها صباحاً بصيغة أمرة، فلا تترك لي فرصة للاعتراض أو الرفض، تناولني قطعة قماش مبلولة أمسح فيها فمي بعد الفطور، وهي القطعة التي تمسح

بها الطاولة من بقايا الطعام، كانت إقامتي مريحة، لا يزورها أحد، ولا يزورني أحد، مما وفر لي الأجواء اللازمة لمتابعة دراستي بجدّ واجتهاد، وممارسة هوايتي بالرسم الحرّ في أوقات الفراغ، أقضيّ نهار أيام الإجازات الأسبوعية على شاطئ مضيق البسفور، القريب من البيت، أسبح وأصيد السمك، وأجلس في المقاهي الممتدة على أرصفة الشارع العريضة على طول الساحل (الكورنيش)، ترتفع عن مياه البحر بأعمدة إسمنتية، ويتسنى للقوارب الوقوف مباشرة بجانب المقاهي والمطاعم.

لا زال الصيف لطيفاً، كانت السيدة وجدان تصطحبني معها إلى السينما الصيفية المكشوفة، القريبة من البيت، ونشاهد الأفلام التركية والهندية المدبلجة، لكن ما لفت انتباهي أن بعض البنات أو السيدات اللواتي يعرفونها تماماً، يسلمون عليها بحرارة، وعندما يعلمون أنني الشاب الذي يسكن في بيتها تتلاقى عيونهن بعينيّ في تساؤلات غريبة وابتسامات ماكرة، لم أدرك مرماها.

بعد زمن قصير لمحت من العجوز إحياءات تنم عن احتياجاتها الرومانسية، وظهرت تلك الحركات بصورة جلية، فقد كنت متمدداً على الاركة الملاصقة للشبابيك، جاءت السيدة وجدان لتتحدث إلى جارتها من الشباك فانبطحت بكامل جسدها الثقيل فوقي، وجرت بينهما محادثة طويلة، أثناء ذلك كانت تضحك بصوت عالٍ، وتبدو عليها سعادة لم ألمسها من قبل، ولم أدرك لماذا كان عقلي يرفض التفكير فيها، مستبعداً أن تكون عندها

رغبات جسدية، وهي بهذا العمر، ولعلي كنت أخشى أن أتسرع في فهمي، وأكون مخطئاً، فتغضب عليّ، خصوصاً أن العلاقة الإنسانية بيني وبينها حديثة العهد، ولم تنضج بعد، ولا أعرف شخصيتها وميولها، ولعلي كنت غيباً جباناً؛ لأنها سألتني يوماً بعد أن عُدنا من السينما سوياً:

- أنت بماذا تتسلى في الليل وحدك.

- أدرس وأقرأ وأرسم.

- (بامتعاض) ظلك، الله لا يقيمك.

وصعدتُ إلى غرفتها، قاصدة أن تسمعني صوت ضراطها، وهي تصعد الدرج.

تحمّلتني تلك العجوز باقي أشهر الصيف وبداية الشتاء، حتى أدركت أنني لم أكن على قدر طموحاتها، فقطعت الأمل المرجو، دون إبداء أي سبب أو إشعار أو مقدمات. عدت من الجامعة مساء فوجدتها قد وضعت حقيتي عند باب البيت، وقالت: ارحل أيها الولد الأعمى، فأنا لست بحاجة للقرشين اللذين تدفعهما. لم تعطني فرصة للنقاش أو الاعتراض، ولم يكن أمامي سوى حمل حقيتي والرجوع إلى صاحب المكتب العقاري، أشكو له حدث بيني وبين العجوز، هزّ رأسه وابتسم بامتعاض، وعلت وجهه علامات الأسف والندم، ونظر إليّ قائلاً: ليس لك في الخير نصيب.

اصطحبني الرجل إلى بيت آخر في البلدة نفسها، بيت من الخشب، في طابقين صغيرين، استقبلتنا امرأة وزوجها المشلول،

امرأة في منتصف العمر، ومن النظرة الأولى تبدو أنها لئيمة متعجرفة طامعة بالنقود فقط، وكان شرطها أن لا اصطحب للبيت صديقاً أو صديقة، وأن لا استعمل المطبخ، ولا أشعل التدفئة في الشقة، وكانت سليطة اللسان، ولا أعرف إن هي مسلمة أم مسيحية أم يهودية، إذ تلبس لباساً مكشوفاً، لا تلبسه النساء التركيات عادة، وكنت مضطراً أن أقبل بمكان يأويني، أقمتُ عندها في الطابق العلوي، في غرفة واسعة، لها شبابيك واسعة، تطلُّ على تقاطع شوارع أمامية، فيها سرير حديدي حقير، وضعتُ عليه مجموعة وسائل ملفوفة بشراشف، وغطاء عبارة عن بطانية لا يقني من البرد، كنت ساعة النوم استدرج قطعاً سميناً يعيش معهما، يستدفئ تحت البطانية واستدفئ به، وطلبت من السيدة أن تسمح لي بإحضار مدفأة كاز أو أي شيء يبعث على الدفء، فرفضت بعنجهية، قائلة: إذا أردت الدفء تعال اسهر معنا، فلدينا مدفأة، فعلاً كنت أجلس عندهم في البرد القارص، فأصطلي بحرارة مدفأة الفحم الحجري، وإذا شعرت بحرّ المدفأة أخفف من ملابسي، وإذا صعدت الى غرفة النوم أشعر ببرد شديد، وقد أصبت بنزلة برد شديدة، عانيت منها طويلاً، كانت إقامتي في بيت المرأة اللئيمة تجربة قاسية جداً لا تُحتمل.

في إحدى ليالي الشتاء القاسي، والثلج يغمر البيوت والشوارع، أجلس بالقرب من الشباك المطلّ على الشارع، رأيت الناس يتراكضون من أمام بيتي، وسمعتُ أصواتاً وفوضى ليست بعيدة، نزلت لأستطلع الأمر، فرأيت ناراً مشتعلة وألستها تخرج

من شبائيك إحدى البنايات الخشبية، كان يقيم في الطابق الأول مجموعة من الطلبة الأتراك، حاول الناس دخول المبنى دون جدوى، ولم يحضر الدفاع المدني، رأيت بعيني أحد الشباب يُخرج يديه ورجليه من شُبْك الحماية، وجسمه في الداخل يحترق، علمت فيما بعد أن شابين آخرين احترقا في الداخل، وأن والديهما كان في زيارة لهما وماتا اختناقًا، وهما يختبئان في الحمام، حينها كرهت البيت والحي والمرأة التي أقيم عندها، وباتت لدي رغبة في ترك تلك البلدة كلّها مهما كانت النتائج، وكأنها القشة التي قصمت ظهر البعير، وفي اليوم الثاني عُدت من الجامعة مكتئبًا، صعدت إلى غرفتي، لحقت بي تلك المرأة المزعجة، وهي تصرخ:

- لماذا تركت الغرفة غير نظيفة، وفراشك غير مرتب؟

- وأنتِ ماذا تفعلين طيلة النهار؟

- أنا لست خدامة عند أهلك.

- بل أنت أقل من ذلك بكثير، أنتِ ماسحة أحذية.

- كُلُّ خِراءِ أيّها الغريب التافه.

ظَلَّتْ تشتمني بالفاظ لا أعرف معناها، فهددتها بالشرطة، نزلت وهي تُتمتم بكلام لا أفهمه، وفي الصباح حملت حقيبتني وخرجت من البيت، وذهبت إلى المكتب العقاري، وأخبرت الرجل الطيب بما حدث، وقد قررت العودة إلى اسطنبول والإقامة فيها. قال متأسفًا يائسًا:

- هذا نصيبك. أتعرف أن وجدان هانم قد توفيت؟
- لا حول ولا قوة إلا بالله. لا أعرف أبداً.
- ليس هذا المهم، أقسم أنهم عثروا في بيتها على صناديق من الذهب (ليرات عصملية).
- لم أكن أعلم ذلك، ولو علمت ماذا كنت سأستفيد منها؟!
- روح أسكن في اسطنبول مع أصحابك أحسن لك.
- حملت حقيتي ولعابي قد جفّ، ذهبت إلى الجامعة مشوش الرأس، وفي قمة الإحباط، ولاحظ (ظفر اونال) و(علي رضا) ما أنا عليه، حاولا مؤانستي وتخفيف توترتي.
- خرجت مساء هائماً على وجهي، تذكّرت زميلي طلال قصر اوي الذي يسكن في مكان قريب مع أصدقائه، ذهبت إليهم، ونمتُ تلك الليلة عندهم، وفي مساء اليوم الثاني وبعد عودتنا من الجامعة اصطحبني طلال للسكن في بيت امرأة مع مجموعة من الطلاب العرب، في إحدى حارات الترلاباشي، وعرفت بعضهم. كانت السيدة ودودة، دائمة البسمة، خضراء العينين، تخدم الطلاب وتؤويهم وتعتاش مما يدفعونه، وهي معروفة لدى الطلاب الفلسطينيين، وينادونها بالخالة عائشة، تقيم هي وابنتها نورية في البيت نفسه.

رحبّ بي الشباب والخالة عائشة كثيراً، وجميعهم من طولكرم وقراها، من علال وكفر زياد وعتيل، وصديقي داوود الحسن

من كفر زياد، استطعت الدراسة وأداء واجباتي بهدوء، وغالباً ما كانوا يلعبون الورق، ويعقدون جلسات نقاشية سياسية وفلسفية، وأصبح لنا مغامرات نسائية قذرة في البيوت العامة المرخصة، ونقوم برحلات مشتركة إلى جزر الأميرات، ويرافقنا شاكر عفانة.

أصبحت المنظمات الفلسطينية في أوج نشاطها، وانضم لها بعض الزملاء، لكنني لم أنخرط في أي واحدة منها، ولا في أية أحزاب، كنت حريصاً على دراستي كل الحرص، ومن طباعي أنني لا أميل للسياسة، ولا للأحزاب.

بيت في حي شعبي مضطرب بالأصدقاء والجيران



كنا ثلاثة أصدقاء، وكل واحد يعاني من عدم الاستقرار في إقامته، أنا و طلال القصر اوي من كلية الهندسة الكهربائية وداود الحسن من كلية الطب، اتفقنا على إيجاد حل جذري لموضوع إقامتنا ويتوافق مع قدراتنا المالية المتواضعة، وامتلاك حريتنا الكاملة، وعيشنا بما يتناسب مع دراستنا، اتفق ثلاثتنا على استئجار شقة في أحد الأحياء الفقيرة، نفترشها بما يلزمها، ونأكل ونشرب بأقل

التكاليف، ونتقاسم أجرتها، ونسهر وننام كما يحلو لنا، وكل واحد يمتلك مفتاحها، وأقمنا فيها حتى تخرجنا في الجامعة.

تتألف الشقة من غرفتين ومطبخ وحمام، وتقع في الطابق الأول، فوق الطابق الأرضي الذي يسكنه صاحب البيت وزوجته، ولم ينجبا أبناء. تقع الشقة في شارع يخلو من السيارات، وهي في إحدى حارات التربلاش القريبة من ساحة التقسيم، انفرد طالب الطب داوود في الغرفة الصغيرة الداخلية، وأنا وطلال طلاب الهندسة في الغرفة الأكبر المطلّة على الشارع الأمامي، اشترينا سريراً سفيرياً مع فراش ولحاف، وصوبة كاز للتدفئة والطبخ وصنع الشاي في آن واحد، وما هو ضروري لمطبخنا، بذلك استقرت أوضاعنا، وانتظمت حياتنا.

كانت المواصلات إلى الجامعة ميسّرة وسهلة، رغم ذلك كنت أفضل الذهاب إلى الجامعة مشياً على الأقدام، في الصباح الباكر، كنوع من أنواع الرياضة، وتبعد الجامعة عن مكان إقامتنا ما لا يزيد عن كيلومترين، أسلك الطريق من بين البيوت، تتخللها الأدراج، وحين وصولي ساحة التقسيم أسير من خلال الحداثق المتدرجة، ماراً ببعض المشردين اللذين ينامون في الحداثق صباحاً، وبالعشاق الذين يتعانقون أو أنهم ينغمسون في العسل مساء.

كان جيراني من الفلاحين البسطاء المهاجرون إلى اسطنبول، أو من النساء المتقاعدات من بيوت اللهو والهوى، ولا تزال بعضهن

على رأس عملها، كانوا جميعاً مسالمين طيبين بسطاء نحترمهم و يحترمونا.

فوق شقتنا غرفة واحدة مع حمام، وتُقيم فيها امرأة مسنة، وجهها مجعد، مهاجرة من مدينة أضنة في الأناضول إلى اسطنبول، لا أعرف ما السبب، ولم أسألها كي لا أخرجها، تعيش وحيدة، ولمجاورتها لنا تعارفنا، وتسهر عندنا أحيانا، ولأنني من أكثر الزملاء إلتراماً بالبيت كنت ألاحظها وأدعوها بالخالة عايشة، ومع مرور الوقت أحببني، كأني حفيدها، وتسأل عني باستمرار، وتتفقدني يومياً، وفي الصباح الباكر تدقّ عليّ من غرفتها وتناديني: اصحّ يا (تمبل) أي كسلان، وتدعوني لأتناول الفطور معها، كان الفطور بسيطاً، لا يخلو من الفلفل الحار كعادة أهل أضنا، كانت امرأة طيبة، ولها بنت تعمل في المانيا، وهي من ترسل لها النقود، من أجل معيشتها، وقد توطدت محبتي لها واحترامي، متدينة تصلي، وتصوم الاثنين والخميس، وطوال دراستي في اسطنبول هي أقرب الناس لي، وكانت ترافقني إذا احتجتُ إلى طبيب أسنان أو شراء احتياجاتي، وترافقنا في رحلاتنا القريبة، وإن كان جميعنا شباباً، رغم أنها متدينة تحبّ الموسيقى والمرح، لم أخذلها في يوم من الأيام، وتعلّقت بي أيّما تعلق، تؤثرني على نفسها، حتى الساعات الأخيرة من دراستي في الجامعة، كانت على رأس المودّعين في محطة القطار.

كانت تسكن عائلة تركية في الجهة المقابلة للبيت، على بعد عشرين متراً، وهي عائلة من أغرب العائلات، تعارفنا بعد شهور

قليلة من إقامتنا في الشقة، وأول من عرفهم صديقي داوود، إذ استطاع بناء علاقة حميمة مع السيدة الكبيرة، حتى أصبحت الأم التي لا تستغني عن صاحبنا، أصابتنني عدوى التعارف، فأصبحت الأقرب لأفراد العائلة، هذه العائلة من أب و أم وبنت وابن وزوجته، ويخدم الابن في العسكرية، وقليل ما يلتقي بعائلته، وهي عائلة فقيرة ويتعاطون الحشيش، فيدخلونه مع السجائر، ويعيشون حياة بوهيمية، لا تشعرُ بالروابط بينهم، حيث يعيشون تحت سقف واحد، ومع تكرار زياراتي الليلية لهم تعلّقت بهم، واستمليت الحديث معهم ومجالستهم. لم يعجب العجوز عايشة تصرفي هذا، من باب الحرص عليّ؛ لأنها تعرف دواخلهم تمام المعرفة، لم يكن تعلّقي بهم نابغاً من فراغ، بل له دواعي حسّية متعددة، رغم أنني لم أدخن السجائر، ولا تعاطي الحشيش، إلا أن أجواء بيتهم الذي يعبق بدخان الحشيش، وأتلفه بكثافة، كان له أثر التدخين المباشر عليّ من حيث أدري ولا أدري، لدرجة أنني أصبحت أرى عندهم كل شيء جميلاً طيباً ممتعاً، وابنتهم السمراء تهتم بي اهتماماً خاصاً، وقد بلغت من العمر الخامسة عشرة عاماً، تفور شباباً وجمالاً، ساحرة الضحكة، ممشوقة القوام، تكشف تنورتها القصيرة جداً عن سيقان متناسقة، وتبدو ببرونزيتها كنحت فنان مبدع، شعرها مسترسل كشلال من عصير الخروب، متناثر على كتفها، حاولت التقرب منها، فرسمت لها صورة (بورترية) تعكس أحاسيسي والمشاعري وإعجابي بها، عرضت الرسم على والدها الذي كان عمله وضع الدوزان لأوتار البيانو الجديد، أي أنه فنان،

خاصة عند تعاطيه ما يكفي من الحشيش، ألقى نظرة على الرسم، وعلّق ممكن يطلع منك شيء مفيد مستقبلاً، بعد أن غادرت بيتهم بساعات، جاء والدها إلى بيتي معذراً، قائلاً:

- منذ أن غادرت بيتنا، وأنا أتأمل اللوحة، فوجدت فيها أشياء لا يمكن أن تظهرها الكاميرا، بل وجدت إبداعاً خفياً، لعلك تحبّ ابنتي.

- شكراً لك، نعم أحبّها؛ لأنها ابنتك.

- فعلاً إنك فنان ملهم، وحبّيب شاطر.

ضحكنا، وغادرني، لكن تلك الفتاة فاجأتني ذات يوم بمرافقتها كأخ كبير، وأثناء مقابلة صديقها الذي وعدته باللقاء، أدركت أنني مثل أخيها كما تشعر، وليس أكثر من ذلك، فاقترصت علاقتي على ذلك.

عندما ترى الأم والبنت وزوجة الابن في الشارع تحسبهم من بنات الذوات، بملابس راقية، وشعر مصفف، ومكياج متقن، بعكس ما تراه داخل بيتهم من فوضى وقذارة، وحشرات وبرايث، تشير الهرش كلما رجعت إلى شقتي.

زوجة الابن العسكري فتاة شقراء، ومن أصول يوغسلافية، في عنفوان شبابها، دائمة الابتسامة، منشرحة الأسارير، تعيش معهم بعد أن هجرت أهلها، وهربت مع عشيقها، الذي تزوجها بعد أن أنجبت مولودها الأول، وحملت بالثاني، شعرتُ أن تلك الفتاة

تبادلني شعور المودة والإعجاب؛ بسبب أنني مختلف عنهم، ولا أدخن السجائر أو أتعاطى الحشيش أو المشروبات الروحية، فكانت هي السبب الذي جعلني أكثر من السهر عندهم والالتصاق بهم، واستثمار أية لحظة فراغ لأكون بينهم، رغم كل السلبات المحيطة بهم.

بقيت أستمع بتلك العلاقة والزيارات المتكررة لوقت طويل، زارتني الأم في ليلة من الليالي، وهي امرأة طويلة نحيلة جداً، ترتدي سروال جينز وقميصاً، تحسبها بشعرها القصير رجلاً للوهلة الأولى، استغربت من إعجاب صديقي بها، وجريه وراء نزواتها، التي لم تكن خافية على أفراد أسرتهما.

انشغلت في إنجاز مشروع معماري لطلبات الكلية، وأوصل العمل ليل نهار، وكان صديقي داوود مسافراً، وطلال قد انفصل عنا، واختار سكناً مستقلاً، وبقيت وحدي، بعد أن هدأ الناس، وخلدوا إلى نومهم، وإذ بتلك المرأة تنادي عليّ من تحت شباك غرفتي بصوت مهموس، فتحت لها الباب ودخلت بلا استئذان، أخبرتني أنها ترغب في النوم عندي، قلت لها: أهلاً وسهلاً، هذا سريري، وأنا سأعمل في مشروعي وإن طال السهر، فمن الواجب أن أسلمه غداً، خلعتُ سروالها الجينز، وطلبت أن أفك أزرار قميصها الخلفية، خلعتُه وأصبحت شبه عارية، واندست في الفراش.

يبدو أن جسد المرأة شبه العارية مثير جداً، مهما كان عمرها أو صورتها، كنت شاباً تواقاً لملامسة جسد أنثى، تذكّرت ما قالته

لداوود، وراهنْتُ على الإطاحة بي، تطيح بي، غشيني خوف أن يكون هذا قطعة بيني وبين صديقي المفتون بها، فقاومت ثورة جسدي، ورفضت إغراءاتها اللعينة.

بعد نصف ساعة وبعد أن يئست من تحقيق رغباتها، نهضت من الفراش، وارتدت ملابسها على عجل، وغادرت الغرفة بصمت، وبلا استئذان، والحقْد يستوطن قلبها، ومنذ تلك الليلة منعت أفراد أسرتها من طرح السلام عليّ أو الحديث معي، وهذا ما أدّى إلى قطعة بيننا، وإن زرتهم يوماً يكون في غيابها عن البيت، ولم تنقطع مصاحبتي لزوجتي ابنة اليوغسلافية الشقراء خارج البيت، نرتاد السينما، ونتجوّل في الحدائق العامة، ونلهو قليلاً، ونتبادل أحاديث الغزل، تلك الفتاة سكنت وجداني، وملأت قلبي، وكلما أتيت اسطنبول فيما بعد أو المرور بشارع الاستقلال إلا وتفحصت وجوه الشقراوات لعلني أعرّ عليها، لكن دون جدوى.

بغياب داوود وانقطاع زياراتي وجدت فراغاً قاتلاً من الوقت، زارني صديقي علي رضا، طلبت منه بإصرار أن نذهب معاً لشراء عود تركي (ساز)، وهو شبيه البزق، لأتعلّم العزف عليه، ولتسليّة نفسي في وحدتها، فقد عشقته منذ رحلتنا المشتركة إلى بلده، فنصحتني بشراء عود عربي، فلن أتقن تعلّم العزف التركي بسهولة، وقال: إن الأتراك يرضعون العزف عليه مع حليب الأمهات! وبإصرار مني ذهبنا واشترت العود التركي بمبلغ يعادل خمسة دنائير أردنية.

طلبت من علي رضا ان أتعلّم عزف العود على يديه، ردّ قائلاً:
سأقدّم الآن درساً واحداً فقط، فلا تشغلني فوق مشاغلي، وأخذتُ
درساً واحداً بعزف أغنية تركية بسيطة، تتطابق بالموسيقى العربية
(هزّي.. هزّي منديلك هزّي)، وانشغل عني في أمور تخصّه،
وأصبحت كلّ أوقات فراغي والترويح عن نفسي في التدريب على
العزف، واشترت كل ما وجدته من كتب تعليم العزف على هذه
الآلة، أمضي وقتاً طويلاً في قراءة النوتات الموسيقية وتطبيقها،
وسئم الأصدقاء والجيران غنائي الناشز، وعزفي الرديء.

بعد مرور سنة على التدريب، وفي زيارة أصدقائي علي رضا
وظفر اونال استطعت أن أثير مشاعرهم بعزفي الجميل، فرقصوا
رقصاتهم التركية الشعبية، ولا أجزم إن كان عزفي قد أثر فيهم أم أن
الخمرة قد لعبت في رؤوسهم، فأعجبهم عزفي.

في بداية العام الدراسي حدث انقلاب آخر في حياتي، إذ قامت
الحكومة التركية بترحيل معظم أصدقائي من البلاد، بما فيهم داوود
الحسن وشاكر عفانة وفهمي مرعي وجواد سليم وغيرهم إلى سوريا
والعراق والأردن، بحجّة أن لهم نشاطات سياسية، ويتمون إلى
منظمات فلسطينية، حيث كانت تلك المنظمات في أوج نشاطها،
ولها ممارسات أحدثت صدى عالمياً كبيراً، بعد مقتل رياضيين
إسرائيليين في دورة ألعاب ميونخ، وخطف الطائرات، وخطف
وقتل السفير الاسرائيلي بالقرب من بيته في اسطنبول، مما دفع
السلطات التركية إلى ترحيل كلّ من له اتجاهات سياسية علنية،

أو قام بتوزيع منشورات أو ملصقات تتصل بالنضال الفلسطيني، وبعضهم له مثل هذا النشاط، كداود الحسن، وبعضهم لم يكن له أي نشاط سوى فلتات لسان ومناقشات جنت عليه، مثل شاكر عفانة، ولحسن حظي أو لعله لم يصل إليهم أي تقرير استخباري يخصني، وقد أعمى عيونهم، وعندما ذهبت لتجديد إقامتي عرض عليّ الضابط المسؤول قائمة أسماء، وكانت أسماء أصدقائي، فأنكرت معرفتي بهذه الأسماء.

ها أنا وحيد في الشقة، وزارني زميل جديد من طولكرم، جاء للدراسة في تركيا، واسمه مازن عواد، فأقام معي، وأصبحت حياتي أقل رتابة والتزاماً، وعدت أرافق الخالة عايشة للسينما، وأذهب للعب الورق مع الأصدقاء، وأزور البيوت القذرة، وأعيش الحياة بحلوها ومُرّها.

المرحلة الجامعية هي الأكثر حيوية في حياة الفرد



دراستنا الجامعية لم تكن مكلفة في ذاك الزمان، فقط مئتا دينار سنوياً، أي ما تعادل ستمائة دولار، وهي تكفي لطالب ملتزم، لم يطلق العنان لنزواته، ولم يغلق بابيه ويحجر على نفسه، فالحياة بسيطة ميسرة، في مدينة مثل اسطنبول، وعدد سكانها في ذاك الحين عشرة ملايين نسمة، وفي جامعة من أعرق جامعات تركيا والعالم.

لم أشعر يوماً بأي فارق طبقي، ولم يمتلك طالب سيارة في الجامعة كلها، غير أن طالباً إيرانياً امتلك سيارة (فيات) قديمة، فلا يُحسد عليها، وكلّ منّا يركب الباص، ويتناول غدائه وعشاءه المدعوم من الدولة، بمبلغ زهيد، وإيجار البيوت رخيص جداً، فلم تكن هناك موضات وماركات منوّعة للملابس والأحذية، ما تثير الاهتمام، فما أمتلكه سراً (بنطلون) واحداً أو اثنين، وقميصين وسترة صوف، طوال العام أو ترافقني طول حياتنا الجامعية.

لا تتقاضى الجامعة أي رسوم، وفي مكتبتها يتوافر كلّ ما يلزم من مراجع وكتب ومجلات، وليس هناك كتاب مقرر نشتره، إلا إذا رغبت بذلك، أو قد نشترى (دوسية) أوراقاً مطبوعة بسعر زهيد جداً، نتبادل نحن الطلبة الأدوات والأقلام والأوراق ودفاتر الملاحظات وكلّ ما يلزم دراستنا.

أثناء الإجازة بين فصلي السنة الدراسية لم أغادر تركيا، حتى تخرجي في الجامعة؛ بسبب أنني من الضفة الغربية المحتلة في فلسطين، ولم أملك ما يسمّى (لَمَّ شِمْل) أو تصريح دخول، كنت أخشى إن سافرت للوطن ألا أعود لتركيا من سلطات الاحتلال، أو من أجهزة المخابرات الأخرى، فلا أمان مُحقق، وأيضاً لشح المال بين يدي.

كانت إجازة منتصف السنة الشتوية قصيرة نسبياً، نقضي معظم أيامنا في دور السينما لرخص التذكرة للطلاب، فهي لا تزيد عن خمسة قروش، ومقاعدنا فارحة مريحة، وأفلامها عالمية مميزة،

والأهم من هذا وذاك ما تنعم به من تدفئة بعكس بيوتنا الباردة جداً،
فإذا وجدنا عرضاً مستمراً نذهب للنوم على الكرسي الوثيرة، نعم
بالدفع، وليس مهماً إن كان الفيلم تافهاً أم لا، فهذا آخر اهتمامنا.

في الإجازة الصيفية من السنة الدراسية، ثلاثة أشهر كانت كافية
للراحة والاستمتاع، أمارس حريتي المنضبطة دون الرجوع إلى
أحد أو استئذن أحداً، أحمل حقيبتى بما تحويه من رغيف خبز
(السمون)، وقطعة من الجبن الأصفر، وحبّتين من البندورة، وحبّة
برتقال، فأركب الباص من ميدان التقسيم باتجاه مضيق البسفور،
من الباشكتاش إلى كيلوس على البحر الأسود، أقطع مسافة تمتدّ
عشرين كيلومتراً، أسبح في مياه المضيق، وأجلس على أطرافه،
أقرأ أحياناً في كتاب، وغالباً ما أحمل كراساً أرسم فيه مشاهداتي،
وفي يوم كدت أن أقع في مشكلة مع رجل مجنون، اعتقد أني أرسم
زوجته أو حبيبته لا أعلم، اسمعني شتائم عديدة، ولولا تدخل تلك
المرأة لحدث بيننا عراك واشتباك، كنت على استعداد أن أتحمّل
شتائمهم ولا أدخل في أي مشكلة قد تؤدي إلى عواقب لا يحمد
عقبها تنعكس على دراستي وإقامتي في اسطنبول، انسحبتُ من
المكان، قانعاً بالمثل القائل: (الهروب ثلثين المراحل).

هذا لا يعني أنه لم تكن هناك بعض المغامرات التي تنمّ عمّا
تبقى من تصرفاتي المراهقة، ففي أحد الأيام المشمسة الجميلة
وعلى شاطئ (صاري ير) خرجت من البحر بملابس السباحة،
كان جسمي قد اكتسب لوناً برونزياً لتعرضي للشمس طويلاً،

وكان شعري طويلاً، جلست على مقعد خشبي مثبت على رصيف قريب من وسط البلدة، وعلى البحر مباشرة، أخرجت كرّاسة الرسم، وبدأت برسم المنظر الذي يمتدّ في الأفق المقابل، كانت تمخر مياه المضيق باخرة روسية، انهمكت في رسمها، سمعت حركة خلفي، أدتُ رأسي فإذا صبيّة فاتنة الجمال، وجه أبيض محمّر، وعيون عسليّة، وشعر بين الأشقر والكستنائي، ترتدي ملابس كاملة محتشمة، تقف خلفي، وتنظر لوحتي بإعجاب، ابتسمتُ لها، وعدتُ أرسم، مشتُ إلى عائلتها التي تجلس على بُعد مئتي، تبدو زائرة معهم، أتت من مكان بعيد بملابسها الملونة، هذه الملابس لا ترتديها بنات اسطنبول، أظنّ أنها من الاناضول أو أرياف البحر الأسود.

ظلّت الفتاة ترقبني من بعيد، تبادلني نظرات أكاد اسمع لها صوتاً، يُناجي شغاف القلب، ويثّ السعادة في وجداني، وهذا لا يحدث مع بنات اسطنبول، فهنّ أكثر جُرأة في التعارف.

لم تلبث تلك العائلة طويلاً في المكان، فساروا اتجاه سوق البلدة، فلحقتُ بهم، أتبعهم أينما ذهبوا، كانت تلك الصبيّة تملك قوة جذبية لا تقاوم، وعندما شعرت أنني أتبعها ازدادت زهواً ودلالاً، كأنها تحلق في السماء طرباً وشموخاً محبباً، والسعادة ترسم على وجهها ألقاً خفيّاً، لم أكن أقل منها فرحاً وسعادة، ففي هذه المدينة العريقة المكتظة بمن هبّ ودبّ تصبح بناتها لا تعير النظرة اهتماماً، بل قد تستغربها، وتساءل صاحبها: ما بك، هل تريد شيئاً؟! بمعنى ابتعد عن طريقي.

نسيت كل شيء، الرسم والقراءة، حتى الجوع والعطش، فتلك الروح الريفية الطيبة البسيطة، وذلك القوام الجميل ملك عليّ أحاسيسي، سعدت العائلة الحافلة، وكانت آخرهم في الصعود، تتفقدني بنظرة باسمة، تحثني على صعود الحافلة، أسرع الخُطى خلفهم، ودون تردد سعدت الحافلة، وإن لم ألحق بها لانفطر قلبي، اتخذت كرسيّاً مقابلاً كي أراها، حالماً بأن أكون وإياها في مركب واحد، أرقب الفرح الذي يشع من عيونها وخديها وحركات أصابعها العاجية، وهي تمررها على شعرها المموج بلون أوراق شجر الخريف، ها قد وصلنا إلى منطقة في شمال مدينة اسطنبول، نزلت العائلة من الحافلة، وبكل غباء قررتُ النزول في الموقف الذي يليه، كي لا ألفت نظر العائلة، وأسبب في حرج لفاتنة قلبي، نزلت بعد حوالي مئتي متر تقريباً، عُدت مسرعاً إلى حيث توقفوا، فلم أجد أحداً، فتشّيتُ في الحارات وأزقة البيوت، أبحث عنها دون جدوى، قررت أن أعود في الأيام القادمة لهذا المكان، أتسكع في الحارات والأزقة، أبحث عن ضالتي، دون جدوى، وبقي رسمها محفوراً في قلبي لا يغادرني.

كانت في الإجازات الصيفية تزورنا عائلة قادمة من عمان، وهم في الطريق إلى «روما» براً، يزورون ابنهم الذي يدرس في روما، يقضون بصحبتنا يوماً أو يومين، محطة استراحتهم في الذهاب والإياب، يرافقهم ابنهم في الإياب أحياناً، تلك العائلة من العائلات الثرية في عمّان، يعملون بالمقاولات وتجّار مواد البناء، وفي كل عام يستقلون سيارة جديدة مميزة، هؤلاء عائلة الحاج

خليل محيي الدين كوسايه، يصطحب الوالدان معهم واحداً أو اثنين من أبنائهم أو أحفادهم في كل زيارة، أقومُ وداوود بمرافقتهم إلى البحر والأماكن السياحية والتاريخية، يمضون يومين في اسطنبول في الذهاب والإياب، نرافق الوالدين إلى الفندق حيث يقيمون، ثم نتطلق مع أحد رفقاتهم من الأبناء إلى العلب الليلية والكازينوهات حسب رغبته، ويتكفل بالمصاريف، فمن الصعب علينا نحن الطلاب زيارة هذه الأماكن، خاصة إذا كان هناك بنات الليل، لم نقبل - أنا وداوود - أي هدية مقابل خدمتنا لهم، كنا فقط نسعد بزيارتهم.

لكل مجتمع ما يميّزه من العادات والتقاليد، ويكون أكثر وضوحاً وتأثيراً في المناسبات الاجتماعية، وتشابه أحياناً، وتثير الفضول بغرابتها أحياناً أخرى، وسنحت لي فرص كثيرة لمشاهدة النشاطات المجتمعية، وقد تكون مثيرة خاصة إذا ارتبطت بالمجتمعات العريقة ذات التاريخ الطويل، في العلاقات والأعراف المشتركة للموروثات التي يعتزّ بها الأفراد والعائلات.

تكررت زيارتي الصيفية إلى الأقارب في بورصة وقريتهم (فضلي)، بدعوة منهم لحفلات الأعراس والطهور ومواسم قطف أوراق التبغ وصيد الأسماك من البحيرة وجداول الوديان.

كانت دعوتنا هذه المرّة لحضور حفل طهور جماعي لعدد من أطفال القرية، وصلنا عصراً إلى ساحة الاحتفال، أنا وجميل وحسين ابن عمّه، وعادة ما تُقام هذه المناسبات يوم الجمعة،

استقبلنا أحمد، وهو عم جميل، وعدد من أصدقائه، جلسنا نشرب الشاي في مقهى القرية، همس جميل في أذني:

- الليلة يوجد عشاء جماعي مميز.

- نحن لها ولا يهمك.

- ردّ عمّه أحمد مازحاً، لا تأكل كثير مثل (الفجعانيين)!

- ليش يا رجل؟

- لأننا محضّرين لكم سهرة شباب صباحية، من سهرات أيام زمان، عندما كنت أرعى الغنم مع فتیان القرية.

لكل قرية من قرى تركيا طقوس خاصة وممتعة في حفلاتهم، سواء كان عرساً أم موسماً أو طهوراً. أقيم سرادقاً في القرية، عبارة عن خيمة طويلة، مفتوحة من الأمام، من قماش ملوّن، ومعلّق عليها زينة من قماش الحرير زاهي الألوان، وفيها أسرة فردية، وعليها فرش بيضاء، و(شراشف) مشغولة بالسنارة، بأيدي بنات القرية، ينام عليها الأطفال بعد الطهور.

شاهدت الأطفال المجهزين للطهور يلبسون ثياباً بيضاء وطاقيّة مطرزة بإطار مُذهّب، وأعمارهم بين خمس وست سنوات، وقد جرت العادة أن يركب الطفل على الفرس قبل الطهور ويدور بها، ولا ينزل عنها إلا بعد أن يكتب له أبوه هدية قيمة، قد تكون قطعة أرض صغيرة، يتم زراعتها بأشجار الحور، وتقطع الأشجار، وتُباع خشباً عند زواجه، فهي مصاريف عروسه، علماً أن هذه

الأشجار تنمو بسرعة في تربة مشبعة بالمياه، وأخشابها باهضة الثمن، وتستعمل في الصناعات الخفيفة، كأعواد الكبريت والورق وغيرها.

ينزل الطفل عن الفرس، ويتقدم للظهور بكلّ شجاعة، وعلى وقع صدى زغاريد النسوة والفتيات تتم عملية الظهور قبل الغروب، يحضر هذا الحفل الجميل جميع أهلي القرية، رجالاً ونساءً وصغاراً، ويتمدد الأولاد على سُرر في خيمتهم المضاءة بزينة زاهية، وتُقدّم لهم النساء الهدايا أو النقود.

ينشغل الرجال في هذه الأثناء بإعداد مائدة طويلة من الطعام، يوضع على طاولات المقهى، مصفوفة بجانب بعضها بعضاً، طعام مميز من تراثهم القديم، فيه لحم وفير، وكثير من المقبلات والسلطات، ولا تخلو الطاولات من المشروبات الروحية، كالنبيذ والعرق لمن يرغب في الشراب، والغريب أن بعض المتدينين يأكلون ويشربون بعد صلاة العشاء، حيث لا حرج من تناول المشروب في مثل هذه المناسبات.

كنت أَرغب أن ألتهم أكبر ما يمكن التهامه من تلك الأطعمة الشهية، لكن الخال أحمد الذي يجلس بجانبى ذكرني بالسهرة الثانية، ففيها مفاجآت تُفرحني، قال: خفف شوي من الطعام كي تستوعب المرحلة الثانية.

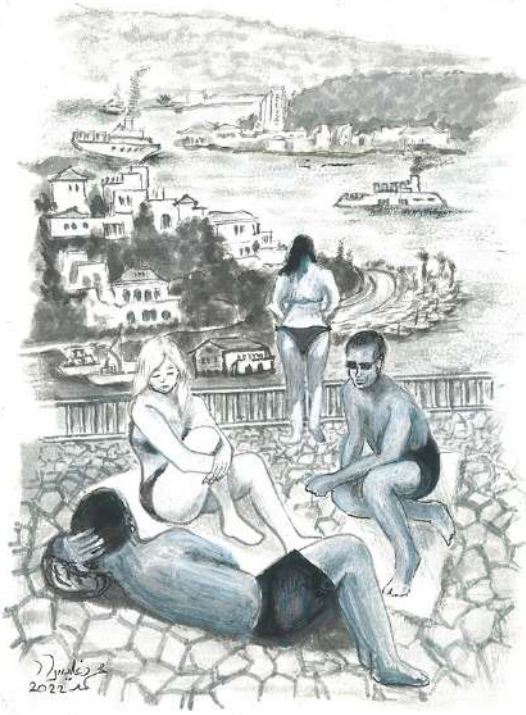
تجمعنا ستة أشخاص، أنا وجميل وحسين والخال احمد واثنان آخران، منهم رجل أسمر كبير السن، من أصول بعيدة في حمص

السورية، كان يحبني جداً؛ لأن الجذور تجمعنا، وكأنه يشتم رائحة الأجداد بحضوري. ركبنا سيارة قديمة، وسلكنا طريقاً تريباً إلى الحقول، وقد عرجوا على أحد رعاة الغنم في مزرعته، شربنا حليباً دافئاً طازجاً بعد حلب أحد أغنامه، شربنا من وعاء واحد، وقال أحدنا: هذا أفضل فراش لما سنأكله ونشربه لاحقاً، وطلبوا أن يذبح أصغر جدي عنده، ويسلخه، حملناه معنا، وتوجهنا إلى مكان ليس ببعيد، حيث استقر بنا المقام تحت شجرة كبيرة من التين الأبيض، قرب شاطئ البحيرة، المكان في غاية الجمال رغم عتمة الليل.

علّق أحدنا الجدي المذبوح بالشجرة، وأخذ يقطّعه، وانشغل اثنان بجمع الحطب المتوفر بكثرة، وأشعلوا النار، وذهب ثلاثة وأنا أحدهم إلى شاطئ البحيرة، على ضوء يدويّ ركبنا قارباً قديماً، وسرنا في المياه الضحلة إلى شباك الصيد داخل البحيرة، جمعنا بعض الأسماك وحملناها عائدين، عدنا بها إلى أصحابنا، أضاءت النار ما حولنا، وبدأنا حفلة الشواء، وانتشرت رائحة الشواء في المكان، أكلنا بلا خبز، وشربنا العرق الأبيض بلا هوادة، يتخلل سهرتنا النكات والأغاني والأشعار الشعبية، وأسمعتهم غناء عربياً، كانت سهرة ممتعة في أحضان الطبيعة، وفي ليل صيفيّ حنون، وتحت شجرة التين المعمرة يستند إلى جذعها الرجل المسن الحلبي، وبلغ به الوجد مداه حتى غلبه البكاء، وبقية الصبح في ضحك هستيري ونكات مرحة، لم أشرب الكحول، إلا أنني في

تلك الليلة انسجمتُ مع الأصدقاء، وشاركتهم الطعام والمرح، لا
أذكر كم امتدّ بنا السهر، وكلّ ما أذكره أنني صحت على صوت
نساء القرية وهنّ يفرشن القماش المقاوم للمطر فوقنا، كان المطر
الصيفيّ خفيف جميل، كانت ليلة غريبة، ومغامرة ممتعة لا تُنسى.

رُبَّ صدفة خير من ميعاد



مضت خمس سنوات دراسية في تركيا، ولم التقى الأهل والأصدقاء، وقد اعتدتُ حياة جديدة في غربتي، سأعود لوطني، وأحقق مكانة مرموقة، كما أحقق آمنيات أمي التي انتظرتني طويلاً. لم أكن متدينًا أو متزمتًا عقائديًا، عشتُ حياة متوازنة، واجتهدتُ في دروسي، ولم أحرم نفسي من متع الحياة المنضبطة،

كنتُ حراً طليقاً، أمارسُ هواياتي في الرسم والموسيقى، ألبى دعوة الأصدقاء، وألهو بلا ابتذال، وكنتُ أشعر أن الله معي دائماً، يشملني برعايته، ويمدّني بالعزيمة والصبر.

أذكرُ في صيف حار، وبعد أن سافر الزملاء إلى بلادهم، بقيت في البيت وحيداً، ومن طبعي أحب الوحدة، وأستطيع ملاً فراغي بما هو مُفرح ومفيد، وإذ طالت وحدتي فقد أشعر بالملل والإزعاج، اعتاد أهل الحارة على إقامتي بينهم، وكسبتُ احترامهم وثقتهم، إذ لم يصدر عني ما يُسيء لمشاعرهم، أدخل البيوت لمساعدة سيّدة في تركيب اسطوانة غاز أو تصليح ما يحتاج لإصلاح، أو شراء حاجياتها من السوق، لم تكن هذه الخدمات تزعجني، بل كانت تسلية محببة لنفسِي، والأجمل من هذا وذاك، زياراتي للعجوز عايشة الأضنية ومعها صبيّة ريفية زارتها مؤخراً لا تعرف مكر المدينة وهمومها، فأشجّع العجوز على فسحة تسعدها وتسعدني.

أثناء تلك الإجازة الجامعية، وفي يوم مرّ بطيّاً، إذ بجرس الباب الخارجي يُنبهني، نظرت من شُباك غرفتي القريب من الشارع العام، فإذا بشاب وسيم ومعه فتاة شقراء يقفان بالباب، وبادرني الشاب بالسؤال:

- مرحبا مش هذا بيت داوود الحسن.
- بالضبط داوود سافر للأردن، تفضلوا.
- أسرع وفتحت الباب لهما، مهلاً ومرحباً، كنت في حاجة لمن أتحدث معه بالعربية.

سلمت على الشاب كعادة العرب، فرحاً بمجيئه، وعانقته كأنني أعرفه منذ زمان بعيد، رغم لقائي به للمرة الأولى، لم أعطِ الاهتمام نفسه للفتاة، تحدثت معه بلغة أجنبية، وبنوع من عدم الرضى أخبرني دون أن أسأله: إن الفتاة تقول أنتم العرب متخلفون، تقبلون الرجال، ولا تسلموا على النساء، وهن أحق بالسلام، تبسّمتُ للصبيّة بسمة ساذجة، وصعدنا إلى الشقة. جلستُ على طرف السرير، وجلستُ والشاب على كرسيين حول الطاولة، علمتُ أثناء الحديث معهم أنَّ الشاب صديق لداوود الحسن، وهو من مدينة طولكرم بفلسطين، وأنَّ الفتاة زوجته من سرايفو بيوغسلافيا، وهو يدرس بإحدى جامعاتها، وقد جاء إلى اسطنبول في رحلة استجمام للترويح عن النفس والاستمتاع بشمس المدينة وشواطئها.

رحبت بهما بسعادة غامرة، وقلت: إن هذه غرفة داوود لتقيما بها، وافقا بلا تردد، وهكذا أصبح لديّ رفقة رائعة، نذهب يومياً إلى الشواطئ الرملية الفاتنة في جزر الأميرات ومضيق البسفور وكيليوس على البحر الأسود، وتقوم السيدة بدهن جسمها الذهبي بالكريمات، وتحمّص تحت أشعة الشمس الساطعة، وأنا وزوجها الشاب الوسيم الدمث نتحدث ونسبح ونعلّق وننعم بمشاهدة الصبايا البكيني الأخاذ، نأكل ثلاثتنا السندويشات وما تيسّر مع الباعة على الرصيف.

كانت السيدة في غاية الجمال، تلفت الأنظار بشعرها الذهبي، وقوامها الممشوق المتناسق بطبيعتها الأوروبية، تلبس ملابس

تكشف عن مفاتها، وكنت أغار عليها من العيون المتطفلة، خاصة عند ركوبنا الحافلة، وهي تضع رجل على رجل، فأشاهد العيون تلتهم جسدها، أخبرت زوجها الذي أمسى صديقي الذي أحبه بمشاعري: ضحك وقال: إياك أن تقول لزوجتي، فقد تغضب، لكنّه أخبرها بطريقته المرحّة بما تحدّثت، ضحكّت وأمسكت بيدي قائلة: يسلم الرجل الشهم العبيط، هذه هي المرأة الأوروبية المتحررة الفائقة الجمال، أما زوجها محمد هو لا يقلّ عنها وسامة بين الرجال، قمحي اللون، واسع العينين، طويل ممشوق القامة، طيّب القلب، لطيف المعشر، بسيط بلا تعقيد، لا يغضب أبداً، أخذ بعادات الأوروبيين، ولعل (عذرا) وهو اسمها، لا تسمح له التصرف كرجل شرقي، وهو قد قبل بهذا الدور.

استمتعتُ بصحبتهما أسبوعاً، كان زوجان مثل زهرتين يانعتين، سيدة بلون برونزي نحاسي لامع، وشاب بجسد أسمر محروق، فتعرضهما للشمس قد غيّر لونهما الأبيضين. قررا العودة إلى يوغسلافيا، فهاجهما الشوق إلى وحيدهما، الذي تركاه عند جدّته لأّمّه، رافقتهما إلى الأسواق لشراء الهدايا، من تحف وألبسة وعطور ونشريات، وودعتهما بكلّ محبة، وقبلتهما بحرارة، بعيداً عن الحرج والخجل، ثم عدتُ إلى بيتي أمارس هواياتي المفضلة في الرسم.

لم ألبث وحيداً مدة طويلة، فقد وصلتني دعوة من قرية (فضلي) لحضور زفاف أحد شبابها، وفور وصولي لم أتردد

في المشاركة بفعاليات الفرح، بكلّ طقوسهم، من غناء ورقص وسماع الموسيقى الشعبية، تلك الموسيقى التي تعتمد المزمار والطبل، رقصت ورقص رجال القرية، وعزفت الفرقة ألحاناً عربية إكراماً لي، شاركتهم جميع فقرات اختفاليهم، فأحاطوني بمحبتهم واهتمامهم.

حضر ضيوف مدعوون من البلدات المجاورة، استمر الاحتفال يومين، نام معظم الحضور في القرية، في بيت واسع، دارت أحاديث السهر والتعارف بيننا، وبوصفي غريباً وطالباً جامعياً، ويتحدث ويجمال ويشارك الجميع، فقد كنت نجم تلك الليلة، حضر رجل تبدو عليه الهيبة ومعه ابنه اليافع من بلدة قرية، كان الرجل يصغي إليّ باهتمام، رغم ضعف لغتي التركية، زاد اهتمامه عندما علم أنّي قادم من فلسطين، وأدرس في أعرق الجامعات في اسطنبول، أدرس الهندسة المعمارية، فمن المثير للدهشة أنّ الذين عرفتهم سواء من أهل القرية أو مدينة بورصة لم يكن من بينهم من هو متعلّم تعليم جامعي، أو هو على مقاعد الدراسة، بل يتكون التعليم في سنّ مبكر، وينخرطون بالعمل في الزراعة أو يعملون في المصانع أو يلتحقون في العسكرية، وأظن سبب ذلك أنّهم شعب مستقر في أرضه، لهم حريتهم وأرضهم، وفرص العمل متوفرة لكل منهم، لا يصيبهم الخوف من المستقبل، رغم ذلك حياتهم المادية ضعيفة، إلا القليل، مما أضعف قدرتهم على تحدي الصعاب، وتشغيل عقولهم! نحن شعب مشرد من أرضه، ويعتمد كلّ منا على نفسه في تحديد مستقبله وتحقيق ذاته.

تحدث معي الرجل بجديّة واحترام، وعلم أنّي أتحدث اللغة الإنجليزية، وليس لهذه اللغة مكانة في مدارسهم، شعرت بشغفه أن أكون أخاً أكبر لابنه، فطلب مرافقته إلى بلدتهم بعد انتهاء الحفل، وأتعرّف على أسرته وبلدته، وكانت جولة سياحية جديدة في حياتي.

بعد انتهاء الاحتفال بالعروسين ذهب كلّ في شأنه، ورافقتُ الرجل ملبياً دعوته، وصلنا بيته مساءً، ودعاني للعشاء، ودار حديث بيننا، وأخبرني بلطف يشبه الرجاء أن أصبح أخاً كبيراً لولده الوحيد، ونمضي الوقت سوياً في جولاتنا ورحلاتنا في قريته وفي القرى والبلدات المجاورة، فله فيها معارف وأقرباء، كي أرغب ابنه في الدراسة الجامعية، خاصة من شاب جامعي مثلي يمتلك المعرفة والمعلومات ولغتين غير لغته الأم، يعرف لغتين غير لغته الأم، يتطلّع الرجل أن يصبح ابنه طبيباً مشهوراً، ولم يكن لدي أي سبب يمنع من صحبة ابنه.

كان ابنه سليمان قد أنهى الثالث الإعدادي، وقد بلغ من العمر خمسة عشر عاماً، كان شاباً ذكياً جداً، يبدو عليه أنّه أكبر من عمره الحقيقي، أبيض البشرة، يضع نظارات طبية سميكة على عينيه، ولديه رغبة في مرافقتي، ليس طمعاً بالتعلّم فقط، وإنما في التحرر من قيود أبيه الصارمة، التي كان يفرضها عليه.

يعمل أبو سليمان في التجارة، وهو رجل ثريّ، لم يكن له إلا ولد وبنت، وابنته مهذّبة جداً، تعلو وجهها مسحة من الحزن، طبية

القلب، نشيطة جداً في خدمة أبيها وأخيها، لم تكن جميلة، لكنها سمحة لا تتكلم إلا ما يملي عليها القول، لا أعرف سبباً لغياب الأم، ولم أسأل عنها.

نمتُ تلك الليلة، وفي الصباح الباكر تناولنا طعام الفطور، وكان غنياً بأصناف البيض قدّم أبو سليمان مصروفاً لنا، قائلاً: انطلقا برعاية الله إلى حيث تشاؤون، وعليكما العودة إلى البيت مبكراً، تغتسلا وتبدلا ملابسكما وتناما استعداداً لجولة أخرى.

اقترح عليّ سليمان أن تكون جولتنا الأولى إلى متجّع على شاطئ البحر، وافقْتُ، فلم تكن لديّ أي خطة أو معرفة بالمكان، ركبنا سيارة لمدة نصف ساعة، ثم نزلنا في منطقة جبلية خضراء، كانت خالية من الناس، ومشينا على الأقدام مسافة ليست بالقصيرة، تحيط بنا أشجار كثيفة عالية، تكاد تحجب الشمس عنا، أفضت بنا تلك الطريق بشكل مفاجئ إلى شاطئ رملي عريض واسع، تحيط به من الجانبين جبال مكسوة بالغابات، مما يصعب دخولها، والوصول إلى الشاطئ من الوادي الذي سلكناه، يلي الشاطئ الرملي خليج من البحر الهادئ، مياهه مرآة ناصعة، وحبّات رماله كأنها حبّات من الذهب والفضة، تتناثر حوله بيوتات وأكشاك ومعرشات مهجورة تماماً، حيث أن الطقس بارد ماطر، وأن الوقت شارف على الخريف، ولحسن حظنا أن هذا اليوم سطعت فيه الشمس، ومياهه دافئة، فقلت لسليمان:

- لماذا لم تخبرني بجمال الطقس هنا، فنحمل معنا ملابس السباحة.

- ليس مهماً ملابس السباحة (آبي)، أي أخوي الكبير.

- كيف يا سليمان؟ نريد أن نسبح.

- نخلع ملابسنا ونسبح، فلا يرانا أحد.

وقبل أن أجيبه، خلع سليمان ملابسه، وأصبح عاريًا، وقفز بمياه البحر، أحسستُ أنَّ الشاب الشجاع مستمتع في البحر، وقد استقبله بحفاوة وسرور، فما كان إلا أن خلعت ملابسني وقفزت، ولأول مرة في حياتي أسبح بكل حرية، دون أدنى حرج، مستمتعًا بالسباحة، عاريًا من كل شيء، من الملابس ومن الهموم ومن الواجبات. سبحنا حتى الإرتواء، شعرت بسعادة لم أعشها من قبل، المياه الدافئة، والبحر هادئ نظيف، ورماله ناعمة، ولما دنا المساء عدنا إلى البلدة، ولدي قناعة أنَّ سليمان رجل يعتمد به.

في طريق عودتنا للبلدة تعلّم سليمان بعض الجمل الإنكليزية، وصلنا بعد الغروب في سعادة غامرة، وحمرة في الوجه لوحتها الشمس، تغمرنا السعادة والمرح مما سرّ والد سليمان وشقيقته، وغمرت السعادة قلوبهم، فقال سليمان لأبيه بالإنكليزية: «كيف حالك يا آبي؟» كنّا في غاية الجوع، تناولنا ما أعدته شقيقته من الطعام، صينية (داوود باشا)، وهو نوع من كرات اللحم المفرومة مطبوخة بالبطاطا والبندورة، ثم جلسنا نشرب الشاي مع والده، ونتجاذب أطراف الحديث، ونقصّ ما جرى في رحلتنا ذلك اليوم، مما عمّق سعادته ورضاه، نصحو مبكرين، نتناول الفطور ونرتدي الملابس النظيفة، التي تم غسلها وكيها ليلاً، ونذهب في رحلة أخرى إلى مكان آخر، ووالد سليمان يمدّنا بنقود قليلة.

وصلنا في إحدى جولاتنا أوصلتنا إلى بلدة يقيم فيها أقرباء سليمان، بلدة جميلة، كان سليمان يتيه فخراً، ويباهي أبناء أقربائه بصديقه الأجنبي، الطالب الجامعي الذي يدرس الهندسة في جامعة اسطنبول، ويتكلم الإنكليزية والعربية والتركية، كنت آنذاك في عنفوان الشباب، شعر جميل طويل، وملابس أنيقة، وبنطال عريض الأرجل، وحذاء ذو كعب عالٍ نسبياً، تلك (الموضة) هي الشائعة في ذاك الزمان، وأرى الإعجاب الشديد في عيون أصدقاء سليمان وأقربائه.

اصطحبنا أصدقاء سليمان إلى السينما احتفاءً بنا، سينما متواضعة وفيلم تركي لم أفهم منه الكثير، لكن فرحي وسعادي كانتنا عارمتين، وأنا أراقب تفاعل الشباب مع أحداث الفيلم، وأسمع تعليقاتهم الساخرة وكلماتهم السوقية، التي تثير من يسمعونهم، فيسود الهرج والمرج وتعالى القهقهات.

في المساء دعانا أحد المقربين من سليمان لقضاء ليلة بديارهم، رغبة منه بمشاركة عرس أحد أبنائهم، لم يكن امامنا إلا الانصياع لطلبهم، وقد أخبر سليمان والده الذي وافق على طلبنا، ولم اعترض على شيء لكل بلدة أو قرية في تركيا عادات وطقوس تختلف عن الأخرى، ومن المثير للدهشة أن سهرة العرس من رقص وغناء تقوم عليه نساء القرية وفتياتها بلباسهن الزاهية المزركشة المحتشمة، ويحضر الشباب خاصة العزّاب منهم الفرجة والدبكات، ولا يشاركون النساء والفتيات، ويكتفون

بالفرجة والتشجيع، ويختار بعض الشباب شريكة حياته، بعد تبادل نظرات الإعجاب، بهذه المناسبة تظهر الفتيات بزيينة لافتة للإنتظار كي تنال إعجاب الشباب وتفوز بأحدهم، لم أكن بأقل سعادة منهم جميعاً، فهذه تجربة جديدة ورائعة، وبعد أن عزمنا الرحيل جاء أحد الشباب يرجوني أن أنتظر قليلاً لأتعرّف على شقيقاته، كان هذا الطلب مفاجئاً، ودفعني الفضول والشوق للانتظار، وصلن الفتيات متألقات، وقبل أن يشاركن في الرقص تعارفنا، كنّ أطيّب القلوب وأنضر الوجوه وأنعم الأيادي، غادرنا وقلبي معلق بالمكان وأهله.

قبل أن نصعد الحافلة قال سليمان: أريد (آبي) اليوم نروح على بورصة عاصمة الولاية، تلك المدينة الواقعة على آخر طريق التحرير القديم، أيام كانت تركيا العثمانية الحاضرة العظيمة، مدينة سياحية فيها جامع كبير وحمامات معدنية وأسواق زاخرة بالبضائع المتنوعة، وفيها جبل عظيم يُدعى (اللوداغ)، حيث يصل قمته بمركز المدينة عن طريق (التلفريك)، وفي الشتاء هو المكان الأنسب للتزلج على الثلوج، ويتحوّل في الصيف إلى أجمل مكان لرحلات الشواء والمرح بين جداول المياه الصافية والخضرة اللبانة واللحوم اللذيذة، التي توفرها الخراف التي تربت في المكان نفسه، حيث يمتدّ الربيع طوال أشهر الصيف.

تجولنا في الأسواق وزرنا أماكن تاريخية متعددة، ودخلنا الجامع الكبير الذي يحتوي على أجمل لوحات الخطوط العربية لكبار الخطاطين الأتراك، وقابلنا سواحاً أجانب، كان سليمان

حريصاً على التحدث معهم عن طريقي مستعملاً بعض الجمل التي علمته إياها، كان في قمة السعادة، عندما شعر أنهم قد فهموا حديثه، وفخوراً أنني أستطيع التحدث معهم بالإنجليزية؛ لأنه لا يعرف إن امكانياتي في هذه اللغة متواضعة جداً آنذاك.

فاجأني ذاك الشاب المراهق أنه وبرجاء وإلحاح شديدين يريد أن يذهب إلى المحل العام، حيث بائعات الهوى، وبالمناسبة فإن كل مدينة في تركيا يوجد بها سوق لتلك البضاعة، منذ عهد مؤسس الجمهورية التركية الحديثة (أتاتورك)، ولا يجد الرجال أو الشباب الراغبين بزيارة هذه الأماكن، ولا يرون في مبتغاهم عيباً، ماذا أفعل وهذا الشاب أمانة في عنقي، ووالده يطمح إلى تعليمه ما ينفع، وهو رجل متدين كما يبدو لي. رفضت في البداية، وظل الشاب يكرر رجاءه، ويحاول إقناعي بسرية محاولته، وفي النهاية رضخت لمطلبه، على أمل أن لا يسمحوا له بالدخول؛ لأن عمره أقل من ثمانية عشر عاماً.

لم يكن صعباً الوصول إلى تلك البؤرة، وهي عبارة عن حيّ في وسط المدينة، له بوابة خاصة مفتوحة دائماً، وعلى بابها حارس لا يسأل أحداً عن شيء، إلا إذا رأى طفلاً يرغب في الدخول فيمنعه، والعمر المسموح به هو ثمانية عشر عاماً فما فوق. كان سليمان جهم الجسم، أحمر الوجه، يلبس نظارات طبية سميكة، مما يبدو أنه أكبر من عمره الحقيقي. لم يسأله أحد عن هويته، ودخلنا دون أيّ عائق.

كانت مجموعة من البيوت على جوانب الحارة التي لا تدخلها السيارات، بيوت واجهاتها الأمامية زجاجية بالكامل، وفي الطابق الأرضي المطلة على الشارع تجلس النساء، ويعرضن مفاتهنّ على المارة بملابس داخلية، وأحياناً عاريات الصدر، ويختار الراغب بهن مَنْ تُعجبه، ويدخل إلى مخدعها في الطابق العلوي، كانت أعمارهن تتفاوت ما بين العشرين والخمسين عاماً.

دخل سليمان بعد أن اختار فتاة سمراء اللون، وصعد معها مزهواً إلى الطابق العلوي، وعاد بعد وقت قصير شامخ، وفي قمة سعادته، كأنه عريس دخل عشّ الزوجية منتصراً، وبعد أن غادرنا المكان سألته عن مغامرته، فأجابني متشياً: بنت الكلب عضتني، وكشف عن كتفه، فكانت آثار أسنانها مطبوعة على كتفه الأبيض كختم أحمر على لحم خروف بلدي.

فقلت: يا لطيف، تعال نستحم في الحمامات المعدنية الحارة، لعلها تختفي بعض تلك الآثار، هناك كانت المفاجأة الصادمة عندما خلع ملابسه، بدت الأختام الحمراء تتوزع على جسمه. قلت له: إياك أن تخلع قميصك أمام أختك أو أهلك، والله ممكن يطلق عليّ الرصاص. أخذت نظّارته، فاكتشفت أنه لا يستطيع أن يرائي، وطمأنته قائلاً: لا تخاف أنا معك في المسبح.

استمرت جولاتنا ما يقارب عشرة أيام، ومن ثم ودعتهم جميعاً عائداً إلى اسطنبول، وكما علمت فيما بعد أنه أصبح طبيباً مشهوراً جداً.

مشروع التخرج والرحلة الجامعية



أشرفت مرحلة دراسية على النهاية، وبقي منها إعداد مشروع التخرج، وتتم مناقشته من قبل لجنة، وهي التي تقرر استحقاق بلقب أو بصفة مهندس معماري، وهذا لا يتحقق إلا في حال بسط مشروعهم أمامهم، وتقديم ما أنجزته بدقة محتويات الهندسية، وقدرتي على الإجابة الصحيحة، والدفاع عن مشروعهم، وشرح

أفكاري، والتزامي بما هو مطلوب من رسومات، وتحويلها إلى واقع في حال الضرورة.

ابتدأت المهمة من الفصل الثاني لعام ألف وتسعمائة واثنين وسبعين، وزيارة الأرض المقترحة للمشروع، وكانت على رأس تلة منبسطة، قرب جامعة (بيلدز)، المطلة على مضيق البسفور، وهو أنسب المواقع لبناء جامعة للفنون الجميلة، وهي مكونة من سبعة كليات، وكلّ منها متخصص لفرع من الفروع التشكيلية والنحت والنسيج والخزف والتصميم والموسيقى والفنون الأدائية، وبعد استلام المعطيات والمساحات ومكونات المشروع ابتدأت بالأفكار التصميمية المبنية على فلسفة الفكرة المعمارية، ومن ثم المباشرة بالرسومات الأولية، وتتبعها الرسومات التفصيلية، وخلال أربعة أشهر يحضّر كل طالب مرحلة العمل ومناقشته مع الأستاذ المشرف عليه، ليقوم كلّ طالب بعمل ما يلزم من تعديلات وتطوير لمشروعه، بناءً على توجيهات أستاذه وتعليماته، ويشرف كلّ أستاذ على مجموعات تتألف من ستة طلاب، لكل منهم مشروعه المستقل، حيث تتم مناقشة كل طالب أمام زملائه لتعمّ الفائدة.

في ختام مرحلة الإعداد للمشروع ينتهي دور المشرف، ويمنح جميع الطلبة خمسة عشر يوماً لإنجاز الرسومات النهائية مع المجسم، ليتم عرضها على لجان التحكيم، ومناقشتها وكتابة تقرير قبول الطالب ونجاحه أو رفضه ورسوبه.

كان المطلوب أن تقدّم الرسومات على كرتون أبيض نظيف، دون أي تلوث يصيب اللوحات، بأبعاد ١٢٠X٨٠ سم (A0) لكل لوحة، ومن الممكن أن تكون الرسومات بقلم رصاص أو بالحبر الصيني الخاص، على أن تكون جميع اللوحات بالأبيض والأسود، وبدون إضافة أي ألوان، كي يتساوى الطلاب في الإخراج التكتيكي للمشاريع، ولم يكن لدي طاولة تتسع لمثل هذه اللوحات، ولم يكن بمقدوري شراؤها، لذا اشتريت لوحاً من الخشب المضغوط مقياس ١٢٠X٢٤٠ سم، ووضعتّه على عدد من الكراسي وباشرت الرسم النهائي بمقياس رسم ١:١٠٠ للمسطحات والواجهات والمقاطع، ومقياس رسم ١:٢٠٠ للموقع العام، ومقاييس أكبر للتفاصيل، واخترت أسلوب التحبير بالحبر الصيني؛ لأنه الأنظف وبسماكات الخطوط، ويمكن التحكّم بها بسهولة حسب سماكة رأس القلم.

انغمست في العمل ليلاً نهاراً، أنام ساعتين فقط، هذا إن استطعت النوم العميق، كان الأسبوعان أكثر أيام حياتي تعباً وإرهاقاً، وتمنيت حينها لو لم أدرس العمارة، فغدا وضعي مزيماً، لا نوم ولا استحمام ولا راحة، كان الجيران، المطلة شبابيك غرفهم على شباك غرفتي، ينامون ويصحون وأنا مشغول في عملي، حتى سئموا ما شاهدوه، ووصل بهم الأمر أن أغلقوا شبابيكهم بعد أسبوع، ولم يكن باستطاعتهم أن يساعدوني بشيء، سوى أن يمدّوني بطناجر الطبخ والخبز، ولربما أكون قد حظيت منهم بالدعاء الطيب.

أنهيت رسومات المشروع في الأسبوع الأول بالرصاص، وعليّ أن أقوم بتحبيره وتنظيفه، ومما زاد معاناتي أنه في ذلك الصيف جاءت إلى اسطنبول أسراب من النمل الطيار كبير الحجم وبعض الحشرات الطائرة، بحيث إذا انحشرت إحداها تحت الكرتون وانسحقت تحدث بقعة زيتية صفراء على الكرتون ولا يمكن إزالتها، مما يستدعي أن أعيد اللوحة من جديد، كدت أن أصاب بالجنون، كنت أحياناً أشعر وكأن شيئاً يمشي على ظهري أو أغفو على الكرتونة التي أمامي، أصبح مشوش الفكر والرؤيا، وفي إحدى الليالي فقدت إحدى لوحات المسطحات المعمارية، بذلت كل الجهد في البحث عنها ولم أجدها، أيقظت الشاب المستجّد الذي سكن مكان داوود كي يساعدي في البحث عنها، نظر فوجدها أمامي على طرف الطاولة الأبعد، انتبهت لحظتها أنني بحثت عنها في أطراف الغرفة وجيوب جاكيتي، وهي لوحة طولها أكثر من متر، لهذه الدرجة بلغ بي التشویش دون مبالغة، وفقدت القدرة على التركيز، مما اضطرني إلى استدعاء زميل معماري يُدعى صالح الشويكي ليساعدي في تحبير بعض اللوحات وعمل مجسم للمشروع في آخر ليلتين.

أنهيت رسم المشروع بطريقة مُرضية، لكن التفاصيل المعمارية لم تكن بالمستوى المقبول، اشتغلتها بسرعة ودون مقياس رسم، وكانت موضع نقد من قبل لجنة التحكيم.

ذهبت لتسليم المشروع في الساعة العاشرة صباحاً، وهي آخر ساعة محددة للتسليم، عندما قدّمته لمن هو مخول باستلام

المشاريع قال: يمكنك أن تتم أي شيء تريده على شغلك، معك حتى الساعة الثالثة عصراً، وذلك استجابة لرجاء مكرر من أولياء أمور الطلبة، اجبته: لا أريد عمل شيء تفضل باستلامه، أريد أن أعود للنوم فقط.

يوم مناقشة مشاريع التخرج دخلنا على لجان التقييم المؤلفة من أربعة أساتذة، وكل طالب يدخل لوحده، وتم تقسيم الطلبة إلى ثمان مجموعات، لاحظت أن زملائي الأتراك كانوا يتعاطون بعض الحبوب قبل الدخول إلى اللجان، وسألت عن ذلك الشيء، فأخبروني أن هذه حبوب لتقوية الأعصاب وإكساب الشخص الجرأة وعدم الارتباك، لم أعر الموضوع اهتماماً ليس لأنني أشجع منهم بل لقناعتي أن هذا أقصى ما يمكن أن أقدمه، كنت على يقين أنه لا يوجد في المشروع أخطاء هندسية قاتلة، بحيث تنم عن عدم فهم أو معرفة، ولأنني أعلم بكل خط خطته يدي، فإني قادر على الجواب المبرر والدفاع عن مشروعي، أما المستوى الإبداعي فهذا تقديره عائد إلى اللجنة، وغالباً لا يؤدي إلى الرسوب؛ لأن الإبداع فيه وجهات نظر متباينة.

جاء دوري، واستعنت بالله، وسمعت كلمات التشجيع من زملائي. دخلت وأنا في غاية الثقة بالنفس، سُئلت سؤال من كل عضو من أعضاء اللجنة، وكل حسب اختصاصه، وأنا أقف أمام لوحات المشروع المعلقة أمام اللجنة، وكان أهم الأسئلة يدور حول حلول الأدراج الواصلة بين الحجوم المختلفة والارتفاعات

والحركة الداخلية بين مكونات المشروع وإمكانية تنفيذه، والمواد المستعملة في البناء والحلول الانشائية، ومراعات العلاقات الإنسانية والتفاعلية بين مَنْ سيشغلون المباني المختلفة.

أجبت حسب قدراتي على الشرح باللغة التركية، وأكثر ما شجعني وأثلج صدري أن الأستاذ المشرف على مشروعني في كافة مراحلها كان حاضراً معي، وهو مَنْ ساعدني على الشرح والدفاع عن المشروع، واستدراك أي سؤال محرج قد ينتقص من قيمة المشروع، فقط التفاصيل المعمارية لم تعجب اللجنة، أبدت موافقتي على رأيهم مبتسماً، وضممت صوتي إلى صوتهم.

خرجتُ من المناقشة وأنا شبه متأكد من نجاحي، ولو على الحافة، وفعلاً بفضلها تعالى علمتُ في اليوم الثاني أنني قد تجاوزت هذه المرحلة بنجاح وبتقدير مقبول، ولم يبقَ سوى الرحلة الجامعية الاختيارية والتدريب العملي لمدة شهرين، وهذا إجباري قبل الحصول على وثيقة التخرج.

ومن إيجابيات النظام الجامعي في تركيا أن الطلبة يقضون مدة الدراسة كاملة تحت سقف واحد، ويتلقون مقررًا موحدًا، في برنامج تضعه الجامعة وعلى جميع الطلبة دراسته دون أن يكون لهم حرية الاختيار، وساعات الدروس مكثفة من التاسعة صباحًا إلى السادسة مساءً، ستة أيام في الأسبوع، دون فراغات عدا ساعة واحدة للغداء داخل الحرم الجامعي، ويتفقد أستاذ المادة حضور الطلبة وغياهم، بقراءة الأسماء عند بداية كل حصة تخص مادته،

كان نظام الجامعة نظاماً صارماً، حيث يعطي الحقّ لمجلس الجامعة بناءً على قرار من مجلس عمداء الكلية بفصل أيّ طالب يثبت إهماله أو رسوبه المتكرر بغض النظر عن الأسباب.

هذا ما جعلنا كزملاء دورة واحدة، وعددنا يقارب الستين، ونعرف بعضنا بعضاً عن قرب، وتجمعنا صداقات حميمة، وعلاقات متينة، وتعاون ملحوظ، المهم أدركتُ متأخراً أن زملائي الأتراك موزعين في جميع أنحاء تركيا من أديانها إلى أقصاها، وكل زميل من بلد وولاية مختلفة، مما جعلنا نعمل كمجموعة واحدة، دون أي تكتلات إقليمية، رغم وجود تنوع في الأفكار السياسية، وتباين ثقافي غير ملحوظ، ولم تنتهِ علاقاتنا حتى بعد تخرجنا من الجامعة، وانتشرنا في بقاع الأرض، وما زلنا نلتقي سنوياً في بلد أحد الزملاء، ضمن برنامج سياحي، لثلاثة أيام مع عائلاتنا، بعد مرور نصف قرن على تخرجنا.

تكريساً لاستراتيجية التعليم الجامعي التركي في تعميق الانتماء الوطني في نفوس الشباب الجامعي، يتم تسيير رحلة جامعية مدفوعة التكاليف من قبل الجامعة (الحكومة) لكل طلاب الدورة الخريجين، مدتها أسبوعان، وليست إجبارية، مراعاة مع ظروف الطلبة، ذلك لاطلاع الشباب وتعريفهم على بلادهم وصناعاتهم والأماكن التاريخية والسياحية والاستراتيجية والتي جرت فيها الأحداث الهامة على مدى التاريخ العثماني والدولة الحديثة.

تم الإعلان عن الرحلة في بداية الإجازة الصيفية، ولم أعلم بها إلا عن طريق زميل تركي، ولم يكن يتوقع أن أرافقهم كعادة الطلاب الأجانب (العرب)، لكنني كنت راغباً جداً في الرحلة، وأنا الأجنبي الوحيد بين الأتراك.

تجمّعنا صبيحة اليوم المحدد في ساحة الجامعة، ننتظر الحافلة، وصلت حافلة حديثة أنيقة، وصعد الشباب والصبايا بهدوء تام، كلٍّ يحمل حقيته، وكان آخر الواصلين إحدى الزميلات بمرافقة والدتها، التي صعدت معها وأوصتنا الاهتمام بها والحرص عليها؛ لأنها مريضة، وقد حاولت والدتها أن تمنعها من السفر لكنها أصرّت على المشاركة.

كنّا ما يقارب الأربعين طالباً وطالبة، عشر زميلات يرافقهنّ أستاذ مشرف. انطلقت الحافلة اتجاه العاصمة السياسية انقرة، وسط أهازيج وأغانٍ تركية، يرددوها الشباب والصبايا بفرح وابتهاج، ولحسن حظي كان الجميع يرحب بحضورهم معهم، وأشرك في أحاديثهم ونكاتهم وأحجياتهم.

كانت الحافلة لا تتوقف إلا في المناطق الصناعية والتاريخية، نتجول في المكان، ونلتقط الصور، ومن ثم نتابع سيرنا إلى المدينة المقصودة، وفي الليل ننام في المكان المخصص، وإذا بقي الوقت الكافي في المساء نذهب إلى المطاعم والمقاهي، وأحيانا النوادي الليلية، كنّا أسرة واحدة دون تمييز أو شللية، وبعض الزميلات يرافقها صديق من زملائنا، كنتُ كأني زميل منهم، وعلى مسافة

واحدة من الجميع، تلافياً لأي حساسيات، كما علمت من إحداهن وهي تشاركني الرقص.

وصلنا العاصمة في وقت متأخر من الليل، ولم يكُ أمامنا سوى النوم في المكان التي تحدده الرحلة، وفي الصباح الباكر زرنا ضريح مؤسس الجمهورية الحديثة (كمال أتاتورك) بكل ما يحيط به من ساحات ومهابة المبنى، وعلى قمة مرتفعة مطلّة على المدينة.

انطلقنا وقت الضحى إلى مدينة أضنة، تجولنا في أسواقها، وشاهدنا معالمها، وبتنا فيها، ثم تابعنا مسيرنا في اليوم التالي متوغلين في أصقاع الأناضول، نزور المواقع البيزنطية التاريخية في أواسط تركيا، قونيا تلك المدينة التركية العريقة التي كانت في يوم ما عاصمة السلاجقة، ومركز العلوم الدينية والفقهية والصوفية، وكانت على برنامج رحلتنا، وقبل أن نتوجه إليها نبهنا أحد الزملاء الذي هو من أهل البلدة أن نحرص على الأدب أمام أهلها، ومَن كان شعره طويلاً عليه أن يقصّه أو يغطيه بأي شيء، وصلنا قونيا المدينة الجميلة، وتجوّلنا في أسواقها التاريخية انتهاءً بمسجد وضريح مولانا جلال الدين الرومي، والضريح المعتقد أنه لمعلمه شمس الدين التبريزي، في ذلك المقام المهيّب الذي تعلوه قبة خضراء مستطيلة مضلعة، دخلنا المسجد الواسع الذي يغرق في جو روحاني عميق، هدوء كامل إلا من صوت ناي حزين، تسمعه ولا تراه، وكأنه يأتي من عوالم أخرى بعيدة، يبعث في النفس كثيراً من الحبور والتأمل.

تابعنا مسيرنا هبوطاً إلى انطاكيا (لواء الإسكندرونة)، ومن هناك إلى مدن سيلفكا ومرسين، وصولاً إلى انامور، وهي أكثر المدن التركية المتقدمة جنوباً في البحر المتوسط مقابل جزيرة قبرص، تابعنا رحلتنا بالشارع المحاذي للبحر مروراً بمزارع الموز، التي يراها بعض زملائنا لأول مرة، وكلّما مررنا بمنطقة أو مدينة، يتسلم أحد الزملاء أو إحدى الزميلات الميكروفون، وهو من أهل المنطقة أو المدينة، مرحباً بنا في مدينته، مُعرِّفاً بمعالمها، وبما تمتاز به عن غيرها من الصناعات والمزروعات والمعالم المعمارية والتاريخية والسياحية، حتى وصلنا مدينة انطاليا عصرًا، ويا لجمال بحرهما الصافي الهادئ، ومقاهيها الرائعة، وشوارعها التي تكتظ بالسياح والهدايا والتحف وعربات بيع الذرة المسلوقة والمشوية وأكشاك السندويشات المتنوعة، فكان الإجماع أن نُقيم بعض الوقت فيها، ونزور مكانًا يطلّ على أعماق البحر، بما يسمى مسبح روميو وجولييت، قرب مدينة آلانيا التاريخية، بقلعها الحارسة للبحر من عل، وبعد أن قضينا أوقاتًا ممتعة على الشواطئ الجميلة والمقاهي المصطفة على كامل الكورنيش، طاب لنا النوم في تلك المدينة الساحرة، وكلّ زميل يتحدث عن جمال بلده، من حدود أذربيجان إلى البحر الأسود إلى أعماق الأناضول وشواطئ بحر إيجه والبحر الأبيض المتوسط، وجاء دوري فتحدثتُ عن القدس بإسهاب، وعن عمّان والسلط والبتراء والعقبة والبحر الميت وطريق الحجيج.

في أعماق الأناضول مررنا ببيادر الفستق السوداني، وأكلناه نيئاً، مما جعل بعضنا يستفرغ داخل الحافلة، مررنا بمدينة أفيون التي يتوسطها تمثال مهيب جداً لآتاتورك، وفي الطريق نبّهنا أحد الزملاء إلى مزارع الحشيش حولها، وهي من المدن التي لا تُنسى، مدينة اكابودوكيا السياحية الضاربة في أعماق التاريخ، جبالها وكهوفها والبيوت المنحوتة داخل كتل صخرية معلّقة بارتفاعات متنوعة، وكل بيت على رأس إحدى تلك الكتل العجيبة، حقيقة كان منظرًا مذهلاً قد لا يكون له مثيل في العالم، حيث بتنا في تلك البلدة السياحية، وليلاً سهرنا في أحد نواديها الليلية المحترمة، غنيا ورقصنا شباباً وصبايا بمرح وسرور حتى كدنا أن ننسى أنفسنا، وكأننا انتقلنا إلى عالم آخر.

حادثة صغيرة عكّرت مزاجي لوقت قصيرة، هي أنني نزلت من الحافلة قبل تحركها بقليل من ساحة اكابودوكيا لشراء فيلم جديد للكاميرا التي أحملها، ولم أغب طويلاً، فعدت ولم أجد الحافلة، ذهبت لرجل من رجال الشرطة الموجودين في المكان وأخبرته بالمشكلة، فاتصل على الفور بمركز الشرطة الذين بدورهم اتصل بأقرب مكان ممكن أن تمرّ منه الحافلة، وركبت سيارة للحاق بهم، عندما وصلت وجدتهم ينتظرونني على جانب الطريق في قلق، كنت متضايقاً جداً، رغم فرحهم بعودتي، وسألوني بماذا شعرت عندما لم تجدنا؟! أجبت بأسى: شعرت بأنني الغريب الوحيد بينكم، وخشيت أن لا استمر في متابعة الرحلة معكم، كانت كلماتي

مؤثرة، وربما قاسية، فعذروني، وألقوا باللوم على أنفسهم، وعدت منسجماً معهم كسابق عهدي، أتابع الرحلة دون أثر لتلك الحادثة.

وصلنا إلى منطقة دنيزلي، وفيها موقعان عزّ نظيرهما، أحدهما مدينة محفورة في بطن الجبل، لها مدخل واحد ضيق يؤدي إلى جسم المدينة المؤلف من طوابق عديدة، كان الناس يعيشون في تعاون مشترك، ومختفون عن العيون، وللمدينة مخارج لمسافات بعيدة، وفي وسطها بئر عميقة لاستخراج المياه، ولها امتداد علوي على شكل مدخنة واسعة حتى قمة الجبل لأغراض التهوية، قالوا إنّ هذه المدينة كان يختبئ فيها أوائل المسيحيين الهاريين من قمع الحكام الرومان قبل اعتناقهم المسيحية. نزلنا طوابق معدودة مضاءة، ولم نستطع النزول أكثر لخطورة المكان.

كانت قلعة القطن (بامو كلو قلعة) الموقع الثاني لزيارتنا بعد مرورنا عبر مساحات واسعة من حقول عباد الشمس، والأشجار المثمرة والحرارية، وأسراب النحل، حيث تجد نفسك أمام جبل أبيض من الثلج أو القطن، متدرج بمسطحات مائية صافية، ذات لون أزرق مخضرّ، تحتضنها صخور ومتدليات شديدة البياض لدرجة أن تصويرها يحتاج إلى إعادة تغيير العدسات وبفن خاص حتى لا يحترق الفيلم، أمام هذا المنظر المذهل، فلا تكاد تصدق أنك على الأرض التي نعرفها، ومقابل هذه الصخور النامية أكشاك البيع المنتشرة في المكان.

ما حدث لزميلتنا التي أوصتنا أمُّها في بداية الرحلة كان أمراً غريباً، ابتدأت تظهر عليها علامات الشroud، ومن خلال تصرفاتها غير الطبيعية، وشعرها المتناثر، وهندامها غير المرتب، تُظهر عدائية اتجاه زميلاتها، وقد رفضن النوم في الغرفة نفسها، ولم يكن أماننا إلا أن نُعيدها إلى اسطنبول بالطائرة، والاتصال بأهلها لاستقبالها، أوصلها زميلان إلى المطار، ثم عادا والدموع في عيونهما، وأظن أنها مصابة بمرض نفسي، له انعكاسات عضوية عليها، إذ كانت تتغيب عن الجامعة أحياناً، والسفر المرهق قد أثار مرضها من جديد.

مررنا على مدينة اسبارطة وبودروم أثناء مرورنا بأزمير المدينة الأشهر على البحر الأبيض المتوسط، بتنا تلك فيها، وتوجهنا في الصباح إلى مضيق الدردنيل (جنا قلعة)، الممر البحري الفاصل بين بحر مرمرة والبحر الأبيض المتوسط، ووقفنا في دهشة أمام النصب التذكارية الذي أقيم في ذلك المكان، كصرح شامخ يخلد ذكرى الحروب التي خاضها الأتراك باقتدار أمام الدول المعتدية، ومنها اليونان، عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى بقيادة الجنرال أتاتورك، وانتصاراتهم بعد تضحيات جسيمة.

تابعنا رحلتنا حتى وصلنا مدينة بورصة قبل غروب الشمس، بعد أن تناولنا طعام العشاء، رأيت شباباً يتهايمسون بينهم بعيداً عن الفتيات، سألهم الأستاذ المشرف، الذي لم يتدخل بأي شيء مزعج طوال الرحلة: في أي مكان ترغبون قضاء السهر في آخر ليلة؟

فأشاروا له بالنقف على حناجرهم، إشارة كنت أعرف معناها، العطش أو الحاجة إلى مشروب، لكنها كانت تعني شيئاً آخر، لم يتعجب المشرف، لكنه سألهم:

- ماذا تفعلون وزميلاتكم مرافقات بالرحلة؟

- رتبنا الأمور، وسنقول لهنّ سنذهب إلى المقهى.

- في العادة يذهبنّ معكم للمقاهي.

- رتبنا الأمور بأن يصطحبنّ بعض الزملاء إلى المقهى، ونحن سنلتحق بهم.

- لم يعترض المشرف، وتمنّى لهم السعادة.

رافقتهم ولم أكن أعلم أين وجهتهم، حيث كانت المفاجأة مذهلة عند دخولهم حي بائعات الهواء، انتشروا في الحي، وذهب كلّ إلى مبتغاه، والغريب أن بعضهم كان يدّعي أنه يخوض التجربة لأول مرّة، كانوا يزفونه كأنه عريس ليلة عرسه، ويدخلونه إلى إحدى بائعات الهوى، بالتشجيع والمرح والأهازيج، ثم سرنا على الحمامات المعدنية للاستحمام والسباحة، وعدنا حيث الزميلات في الانتظار، ولا يخفى ما بدا على وجوهنا، وأدركت بعضهن ما فعلناه، فاحمرت وجوههن خجلاً، وعاتبنا الزملاء الذين فاتتهم الفرصة.

في اليوم التالي، وفي طريق عودتنا إلى اسطنبول ازدادت الأغاني صخباً، وكأن الشباب يودّعون رحلتهم بالمرح المفرط، رغم

الإرهاق الذي أُلِم بنا بعد رحلة طويلة، ونبت شعر لحاهم وطال.
وصلنا اسطنبول عند المساء، وتوقفت الحافلة بعد أن قطعت
مسافة خمسة آلاف كيلومتر.

عدتُ إلى بيتي، وأقارن بين رحلتنا التي استمرت أسبوعين بلا
مشاكل، وتلك الرحلة المشتركة الجماعية التي قامت بها رابطة
الطلاب العرب إلى منطقة تسمى يلوفا لليلة واحدة، وحدث
عراك بين الطلاب العرب، وكادت المشكلة أن توصلنا إلى مخفر
الشرطة، إنها مقارنة مؤلمة حقاً للأسف الشديد.

إلى اليونان مع صديق الطفولة



دون سابق إنذار زارني صديقان، أحدهما صديق الطفولة «فارس قدري»، والآخر لم أتعرف عليه، واسمه «علي»، وكان معهم باص صغير أبيض اللون، ويحمل لوحة أجنبية، فرحت ببقاء فارس فرحاً شديداً، فلم أره منذ زمن بعيد، ورحبت بمرافقه «علي»، أخبراني أنهما حضرا من اليونان، في طريقهم للأردن إذا تيسرت أمورهما.

افترقت عن صديقي «فارس» بعد انتهاء دراستنا الثانوية، رغم أننا لم نفترق أبداً من مرحلة الابتدائية إلى الثانوية، هو قصد مصر، حيث له أخ أكبر منه عمراً، وشقيقة قد سبقاه إليها قبل سنوات، وعلمت بعد ذلك أنه التحق بالمعهد العالي للموسيقى، وتخصص في عزف آلة الفلوت (آلة نفخ موسيقية)، ولا أعلم بعد ذلك هل أنهى دراسته أم لا؛ لأنه حاول الاتصال بي في اسطنبول أثناء مروره بها، حيث كان يعمل على متن إحدى السفن التجارية اليونانية التابعة للأسطول الذي يملكه المليونير اليوناني أوناسيس التي تجوب بحار العالم، وعندما رست باخرتهم في ميناء اسطنبول التقيته وقضينا يوماً نتذكر الأيام الخالية.

«علي» شاباً أسود البشرة، طويل القامة، سمح الوجه، طيب المعشر، علمت منه أنه كان يعمل على خط سرفيس الجوفة بعمّان، وسافر إلى اليونان للعمل هناك، وقد التقى بـ «فارس» صدفة في أثينا، حيث أن فارساً قد اشترى ذلك (الميني باص) من أحد السواح بمبلغ ثلاثمائة دولار، ويرغب في العودة به إلى عمّان، ولا يستطيع القيادة، فاتفق مع «علي» مرافقته وقيادته مقابل أجر.

علمت أثناء سهرنا في تلك الليلة أن أوراق ثبوت ملكية (الباص) ناقصة، ولا بدّ من العودة إلى أثينا للحصول عليها، وسوف يغادران صباحاً عائدين من تلك الرحلة الطويلة، وعرض عليّ «فارس» مرافقتهم، خاصة أن الإجازة الصيفية قد بدأت، ولن نمضي أكثر

من أسبوع ذهاباً وإياباً، ولا يترتب عليّ أية مصاريف، ووافقت سريعاً، فهذه فرصة ذهبية لن تتكرر، وهي إحدى هدايا ربي التي لم تنقطع صلتني به أبداً.

لم يكن هناك حاجة لاستعدادات السفر سوى جواز سفري وبنطال وشورت وقميص، كل ما أملكه من المال عشرين دولاراً فقط، اصطحبت العود التركي (الساز)، وكان فارس يملك الفلوت الفضي الجميل خلال رحلته.

بعد جولة في اسطنبول نهراً غادرنا في اليوم الثاني إلى اليونان، مروراً بالأراضي التركية الأوروبية الخضراء ومبانيها القرميدية، وقد غربت الشمس في تلك المناطق، وأمسّ المسير ليلاً، فأضعنا الطريق، وفقدنا الاتجاه، مما اضطرنا للعودة مسافة ثلاثين كيلومتراً كي نسلّك الطريق الصحيح، وما أن وصلنا الطريق الرئيسي حتى نفذ بنزين الباص، وقفنا على جانب الطريق نتربص من يُنقذنا، أوقفنا إحدى السيارات وحصلنا على القليل من البنزين، حتى وصلنا أقرب محطة وقود، وتابعنا السير إلى أن وصلنا الحدود، نمنا داخل (الباص)، وفي الصباح دخلنا الحدود اليونانية، بعد تحقيق واستفسارات من رجال الأمن الذين سمحوا لنا في الدخول، وبدأت رحلتنا داخل اليونان.

كنا نسير بسيارتنا القديمة، يقودها علي، ويجلس بجانبه فارس، وأنا أجلس في المقعد الخلفي، أشاهد جمال الطبيعة، مروج خضراء، وجبال تكسوها الغابات، وإذ مررنا بإحدى المزارع

نستحم بماء خرطوم سقاية المزروعات، ونشرب ونأكل ما تيسر من السندويشات، ونستريح بجانب الطريق قليلاً، ثم نواصل سيرنا. شدّتنا رائحة شواء اللحم من ذاك البائع على قارعة الطريق، فاشترينا ما طاب منها، وهي رخيصة الثمن، ولذيذة جداً، وسألنا البائع عن اللحم اللذيذ، فأخبرنا أنه لحم خنزير البري، باعتهنا المفاجئة بعد فوات الآوان.

سرنا بتمهل على الطريق السريع، ومررنا بسيارة حمراء ظهرها مكشوف، تقودها فتاة جميلة، لوّحت لها بيدي أن تبقى خلفنا، تباعدت بيننا المسافات، وإذ بها تتجاوزنا بسرعة جنونية، وبإشارة من إصبعها الأوسط، وتغيب في البعيد، قلت ضاحكاً: هذه الإشارة لعليّ، ضحك فارس وقال: بل هذه لمحمد الذي أثار فضولها.

أوقفنا إحدى الفتيات السائحات وطلبت مرافقتنا، اصطحبناها معنا، ولم تكثر لمصاحبة ثلاثة شباب أغراب، فتاة متوسطة القامة، حُمرّة البشرة، مسترسلة الشعر، ترتدي ثوباً طويلاً يشبه الدشدشه بلونه الداكن، ليس له شبيه في الألوان، تحمل حقيبة صغيرة. جلست في المقعد الخلفي ووضعت نظارات طبية على عينيها، وأخذت تقرأ في كتاب تناولته من حقيبتها، وهي دليلنا على مفارق الطرق.

مررنا بشاطئ رملي جميل، يخلو من المصطافين، وكان البحر هادئاً، والجو دافئاً، نزلنا من السيارة وجلسنا على الشاطئ، نحمل كسرات خبز وبندورة وخيار، سبحنا في المياه الدافئة، وجلست

الفتاة في مياه البحر الضحلة دون أن تخلع ثوبها، وجلست بجانبها.
كان طعامنا الخبز والبندورة والخيار، تقبلته بامتنان، سألتها:

- أرغب في التعرّف عليكِ.

- أنا ممرضة إنجليزية.

- هل هذه أول زيارة لكِ؟

- لا أبداً، فقد زرت اليونان مرات عديدة.

- لماذا لوحدك.

- لم أكن وحدي، بل ترافقت مع مجموعة، ولم ارتح معهم،
فانفصلت عنهم.

لم أسألها عن اسمها، وهي لم تسأل عن اسم أي منّا، وعملنا، كل
ما تعلمه أننا في الطريق إلى أثينا، حاولت التقرب منها وملاطفتها،
ووضعت يدي على ركبتيها المبللة، فلم يكن لديها ردة فعل أو
اكتراث، حاولت التغزل بجمالها، فلم تُبدِ أي اهتمام، تركتها ولم
أعد وأصدقائي التقرب منها، وحسبنا أن همّها السياحة والقراءة
فقط، ولعل لها مآرب أخرى لا نعلمها. تابعنا طريقنا إلى أثينا ليلاً،
أخذ منّا التعب كل مأخذ، فاسترحنا بجانب الطريق، وباغتتنا النوم
داخل الباص، وأخرجت الفتاة كيس نوم من حقيبتها ونامت على
الأرض بجانب الباص، كان نقيق الضفادع قريباً منا، وفي الصباح
تفاجأنا بإقامتنا على حافة بركة مياه عميقة، وحمدنا الله أن الفتاة لم
تسقط فيها، وهي تبتعد لقضاء حاجتها.

أمضت الفتاة الوقت وهي تقرأ وتتأمل الطريق بين فينة وأخرى، وعلى مفترق أشارت إلى المكان الذي تقصده، ودّعتنا شاكرة.

عقدت مقارنة بين فتيات الشرق والغرب، وتذكرت الفتيات العوانس في بلدي وهنّ يعملن في مشاغل الخياطة، وأحاديث بعض الناس تلوك أجسادهنّ، وأذكر تلك الفتاة التي واجهت اتهامات مسيئة لها ولزميلاتها، ومحاولتها الدفاع عن نفسها بأسلوب مُخزٍ، وبلاهة مشينة. أين تلك الفتاة الأجنبية من ابنة بلدي؟!

أخيراً وصلنا أثينا المدينة التاريخية السياحية العظيمة، يتوسطها جبل الاكروبول، وتعلوه المعابد الشامخة، ويحتضنها البحر الأبيض المتوسط، تجولنا في المدينة القديمة، وفي بعض أحيائها الشعبية، ومما شدّ انتباهي تلك المقاهي، وأصوات الموسيقى والأغاني العربية الشعبية المصرية، صوت محمد عدوية وأم كلثوم وغيرهما، دخلناها المقهى، فوجدنا معظم رواده من الشباب والرجال والنساء المصريين، وهي الجالية العربية الأكبر في المدينة، وفي وسط المدينة التجاري تنتشر مقاهي الأرصفة على أطراف الحدائق التي تتوسط الشوارع، جلسنا إلى طاولة مع فتيات جميلات بالملابس القصيرة جداً، لم نشرب سوى ما هو رخيص كالشاي والقهوة، فلا نملك من المال ما يكفينا، لم تعرنا الفتيات أدنى اهتمام، فقط حُظينا بصور معهنّ، وكان هذا فوزنا الكبير.

وقفت سيارتنا بجانب حديقة قريبة من جبل الاكروبول، حيث تنتشر مواقف السيارات التي يتجول فيها أمثالنا، الذين ينامون في

الحدائق، ومن ثم قمنا بالتسكع في المكان، ووصلنا إلى حارات
قديمة ضيقة نسيباً، تحيط بها بيوت غارقة في القدم، وتبدو مهجورة
إلا من شباب وفتيات الهيبين، الذين لعبت برؤوسهم المشروبات
الروحية والمخدرات وعقاقير الهلوسة، يرقصون على أنغام
موسيقى البوب الصاخبة، ويخرجون من بيت ويدخلون بيت
آخر، وهناك أضواء عند المنعطفات، يجلسون تحتها، ويعزفون
الموسيقى، ويمرحون بصورة لم أعدها من ذي قبل. تجولنا في
حواري متعددة، مستوية ومائلة، وأدراج تصعد وتنزل في مستويات
متفاوتة، وشاهدنا في جنباتها من ينامون بالقرب من الجدران
والأرصفة، وعلى بسطات الأدراج كالمشردين، إن لم يكونوا
كذلك.

صعدنا درجاً عريضاً نسيباً، لم أر له نهاية، لعله يصل إلى قمة
الجبيل حيث المعابد، جلسنا في منتصفه للراحة والفرجة، نراقب
الناس ليلاً، وأخذنا بأطراف الحديث في صوت مرتفع، وبلغتنا
العربية، كان على البسطة التي تحتنا ينام شخص في زاوية، ولم
نعره انتباهاً، ولما ارتفع صوتنا وقهقهاتنا رفع رأسه، وقال:

- هيه، من أين أنتم؟!

- نحن عرب.

- واضح من ضحكتكم وإزعاجكم.

- أنت من أين؟!

- أنا طبيب سويدي.

- طبيب وتنام في الشارع!

- نعم، أنا جراح في أفخم مستشفيات ستوكهولم.

كدنا لا نصدقه لولا أن كلامه كان ينم عن ثقافة عالية وثقة بالنفس، ولم تكن ملابسه رثة ومتسخة كغيره، ولم يكن شاباً صغيراً، وعلى ما يبدو في الأربعين من عمره، وبفضول المستغرب سأله:

- طبيب وجراح وتنام كالمشردين؟!

- في إجازة الصيف أذهب خارج السويد إلى السواحل الدافئة، وأعطي نفسي إجازة من كل شيء، سواء التفكير أو المهنة أو الالتزامات أو الروتين، وأحياناً أنام في أرقى الفنادق، وأتناول الطعام في أفخم المطاعم، وأحياناً أنام وتناول طعامي مع المشردين والهيبيين، وعندما تقترب إجازتي على الانتهاء، والتي غالباً ما تكون شهراً كاملاً، أعود إلى بلدي ومرضاي والمستشفى، كإنسان ولد من جديد، وبنشاط عالٍ أمارس مهنتي وواجبي.

بذل «علي»، الذي يتقن اللغة اليونانية جيداً جهداً كبيراً في اقناع المسؤول للحصول على أوراق ملكية (باص) فارس، بحث في الملفات والأوراق، وقدم ما نحتاجه، وأظنّ ليتخلص منا بأسرع وقت ممكن، أخذنا الأوراق وعدنا إلى تركيا.

وفي طريق عودتنا مررنا ظهراً بأحد شواطئ مدينة سالونيك
وسط اليونان الشرقي، وهو شاطئ رملي عريض ومكتظ
بالمصطافين، واستهوتنا الجموع على رمال البحر، كانوا كالزهور
البرية الملونة في الربيع، أوقفنا السيارة بجانب الطريق، ومشينا بين
الأجساد البرونزية المصقولة بالزيت والكريمات، تراقصها أشعة
الشمس، فالبعض على ظهره والبعض على بطنه، أسرنا إلى مياه
البحر نطفئ حرّ الشمس، السباحة ممتعة بين البجع الأبيض، وبعد
السباحة استلقينا على الرمال الدافئة لتجف ملابسنا، لبستُ بنطالي
الجينز الأسود الذي أملكه، وربط فارس على خصره بقطعة قماش،
وسار «علي» بينطال فقط، ولم يرتدِ أيّ منّا قميصاً، لم نستطيع أن
نترك المكان ونغادره، عزف فارس على (فلوته) الفضية، وعزفتُ
على العود التركي، وغنينا لفيروز، فتحلّقت جموع المصطافين
حولنا في تصفيق حار، ورقص «علي» بحرفية عالية وسط الجموع،
رقصٌ أشبه ما يكون بالرقص الأفريقي، وتفاعل الناس ورقصوا
معنا في غاية المتعة والفرح.

كان من بين الجموع فتاة شقراء، بقميص أصفر وسروال أزرق
سماوي، صبغتها الشمس بلونٍ برونزيٍّ فاتح، تبرز من بين الجموع
كأنها نجمة في كبد السماء، أو كزنبقة وردية، لفتت نظري، فكلما
رفعت رأسي أبحثُ عن بسمتها المشرقة، وأبادلها بسمه خجولة،
ولم يكن لدي أدنى طموح بالفوز بها، وبعد أن تفرقت الجموع
اقتربت مني، كأنها شعرت بهيامي بها، فاحتضنتني كصديق، كدتُ

أطير من الفرح، تفوح برائحة عطرها الجذاب، وتُبدى نعمة ذراعيها، ولون شعرها الكستنائي، وعينين كزرقة البحر، جلسنا على الرمل، وعرفتُ اسمها (ليتسيا)، وهي من سالونيك. كانت بصحبة عائلتها، ومن المستغرب أن كلّ منهم يدفعني للتقرب منها أكثر، وعندما شعروا بانسجامنا الشديد، قال أحدهم: لماذا لا تقبلها؟! خجلتُ وأمسكت بيدها فقط، تلك اليد التي أدخلت السرور إلى قلبي والالتصاق بها، كان ملمس يديها ناعماً طرياً لا مثيل له، ولم أنسه في حياتي، أمضيا النهار على الشاطئ، وجاء الليل، ولم يكن لدينا رغبة بمغادرة المكان، ولصديقيّ صديقتين من العائلة نفسها.

ركبنا (الباص)، وركب معنا مَنْ استطعنا حمله من الرجال والنساء، وجلستُ (ليتسيا) بجانبني، لا تفارقني أبداً، وأخذنا نتجول في المدينة، والدها مهندس معماري معروف. قال أحدهم: لماذا لا تتزوجها وتأخذها معك؟! احمرّ وجهي خجلاً، ولم أعلّق على كلامه، لكن ردة فعلها كانت أنثوية ساحرة، أَلقت رأسها على كتفي، وقالت: أنا لا مانع لدي، لكن هناك شيئاً لا يعجبني فيك، قلت مفزوعاً: ما هو؟ قالت: اسمك محمد، وأحبّ أن أدعوك بـ (دمتري). تبسمت ولم أغضب، إذ كنت مفتوناً بجمالها، ولم أتوقع أنني أستحق كل هذا الجمال، قررنا دعوتهم جميعاً إلى أحد المقاهي، وقالت إحدى الفتيات: المقاهي مُكلفة، واقترح أن نشترى بيبسي كولا، ونجلس على رصيف الشارع، لعلهم قدّروا

أننا غير ميسوري الحال، وغادرنا المكان على وعد أن نلتقي بعد إنهاء دراستنا الجامعية، تخلصنا مما وقعنا به، وودعناهم على أمل اللقاء، وتابعنا سيرنا إلى تركيا.

وصلنا البيت في اسطنبول، بعد رحلة ممتعة، ومغامرات تراقص شغاف قلبي، وفي الصباح ودّعتهم، واتّجها إلى الأردن عن طريق سورية، كانت تكاليف رحلتي ما يقارب خمسة عشر دولاراً.

علمتُ فيما بعد أن صديقيّ بعد أن تجاوزا جبال طورس وفي حدود منطقة انطاكية وقبيل الوصول إلى الحدود السورية قد انقلب بهما (الباص) المتهالك، ولم يُصب أي منهما بأذى، وتركوا السيارة في مكانها، ووصلا الحدود حاملين أغراضهم الشخصية فقط، إلا أن الشرطة التركية لاحقتهم وأجبرتهم على دفع مبلغ بدل إزالة السيارة عن جانب الطريق، وألقته في مكب النفايات، وعادا إلى الأردن بخفي حنين.

التدريب العملي خاتمة خير



على طالب العمارة بعد إنهاء متطلبات التخرج العمل التطبيقي، ومدته أربعة أشهر، وذلك قبل منحه وثيقة التخرج، وقد سبق لكل طالب أن تدرب قبل السنة الأخيرة مدة شهرين في مكتب هندسي، وأحضر شهادة تثبت تدريبه، وساعدني صديقي «ظفر» بالحصول على شهادة من مكتب هندسي دون تدريبي، تقوم الجامعة بتوزيع الخريجين على بلديات عديدة في أنحاء تركيا، حسب قرعة تجريها

بين الطلبة، وكلّ طالب مُجبر على المكان الذي تحدده، ولذلك أهداف مقصودة، منها تعريف الخريجين على المدن بطريقة وثيقة، وعليه أن يثبت قدراته الهندسية والإدارية، ويتم توظيفه في تلك المدينة إن رغب في ذلك.

كان لديّ الخيار إما أن أعمل التطبيق العملي في بلدي، ثم أعود إلى تركيا وأسلم وثائق التخرج، وإما في تركيا، وذلك حسب رغبتي، كنت أفضل التطبيق العملي حيث أنا، ولا أعود لبلدي إلا وأنا أحمل وثائق التخرج، وحقيقة كنت غائباً وقت إجراء القرعة، فقام صديقي صالح الشويكي، وهو زميل في الكلية نفسها، وتأخر في تخرجه، رغم أنه دخل الكلية قبلي، بسحب القرعة بالإنازة عني، ومن فضل الله وحسن حظي، أن قرعتي كانت في مدينة بورصة، تلك المدينة التي لو خیرت بينها وبين أي مدينة أخرى لاخترتها، ففيها صحتي وأقربائي.

وصلت عشاءً بيت الخال محمد اكلاّر في «بورصة»، وجلست مع الخال على مائدته المعهودة، إذ كان له طقوس يومية، إذ تُقدّم له مائدة خاصة يجلس إليها هو فقط، وتعدّها زوجته الطيبة أم جميل، ولا تشاركه الطعام والشراب، تجلس بجانبه تحدّثه ويحدّثها، وهو يشرب زجاجة العرق الأبيض أثناء تناوله طعامه، ولم أكن أشرب العرق ولا غيره بشكل معتاد، تناولت الطعام معه، وأخبرته بسبب زيارتي، وإنني سأقيم في «بورصة» شهرين على الأقل، من أجل التطبيق العملي اللازم لإكمال متطلبات جامعتي، سرّ جداً وزوجته بالخبر، رحّب بي مهلاً، وقال: لتعلم أنه يمنع عليك

المبيت في مكان آخر، ولك حرية الحركة نهاراً وليلاً خارج البيت،
وسنخصص لك غرفة لوحدها طيلة مدة إقامتك في هذا البلد.

في صبيحة اليوم الثاني راجعت بلدية بورصة حاملاً كتاب
التكليف من الجامعة، أرسلوني إلى مبنى قريب منفصل عن
البلدية، وهو مديرية مراقبة ومتابعة الأبنية الجديدة، حيث يديرها
شاب يُدعى مراد بيك.

استقبلني الرجل باحترام بالغ، إذ لم يكن في ذلك القسم
أي مهندس، فيه عدد من السكرتاريات والإداريين المرتبطين
مباشرة مع الشرطة المختصة في المدينة، وتحت تصرفهم سيارة
دفع رباعي مع ضابط شرطة، وأثناء شرب القهوة مع مراد بيك
تم إنجاز الاجراءات اللازمة، وإن مباشرة عملي ستكون صباح
الاثنين القادم.

كان يوم الاثنين هو بداية عمل الأسبوع، والإجازة يوم الأحد،
وصلت مكتب المدير مبكراً، فوجدت المدير كعادته قبل وصول
الموظفين، ولا يتساهل بتأخير أي موظف، شرح المدير مهماتي
الوظيفية، حيث سأكون مرافقاً للسيارة التي تقوم بجولات يومية
في أنحاء المدينة، لتفقد المشاريع والمباني الجديدة، والتأكد من
وجود رخصة البناء، والتزام المالك بالمخططات المرخصة دون
مخالفات.

ركبت السيارة سوداء رباعية الدفع، وبجانب السائق ضابط
شرطة كبير السن، متجههم لا يعرف التيسم، جلست في المقعد

الخلفي مع وأوراقي، وفي القسم الخلفي من السيارة أربعة عمال يجلسون متقابلين، وأمامهم معدات البناء ولهدم.

نتحرك كلّ صباح إلى حيّ أو أكثر من أحياء المدينة، وإذا مررنا ببناء جديد نتوقف، ونطلب رخصة البناء، وأقوم بتدقيقها ومقارنتها مع ما يجري من تنفيذه على الواقع، فإذا كان مخالفاً نسلمه ما يسمى ضبط (إخطار مخالفة)، وعليه الالتزام بما ورد في المخططات، وهو تحت طائلة العقوبات المنصوص عليها حسب أنظمة البلديات، وإن كان مشروعاً يُقام على أرض ملك صاحبها، ولم يكن معه رخصة، نكتب إنذاراً، وبضرورة إحضار الرخصة في الموقع، وإن كان البناء لبيت أو محل تجاري على أرض الدولة بغير موافقة أو ترخيص حسب الأصول، يقوم العمال المرافقون معنا بهدم البناء أو هدم جزء منه، ومن ثم تسليمه مخالفة، وضبط إحضار إلى مركز الشرطة، موقع مني ومن الضابط، ويتعهد بعدم البناء دون ترخيص، وهذه أقصى عقوبة تقع عليه.

علمت أن هناك بعض المهاجرين الأتراك من دول أوروبا الشرقية، ومن داخل الريف التركي، قدّموا إلى المدينة، ويقومون ببناء بيوت متواضعة على أراضي الدولة، بيوت بأساسات متواضعة، وجدران من الطوب الأحمر، وسقوف خشبية وقرميد، وتصبح تلك البيوت جاهزة للسكن خلال أسبوع، يطلقون عليها (كيجه كوندو Gece KONDO) أي وُضِعَ بالليل، فإذا تم إنجازه دون علم الدولة، فإنه يصبح حقاً مكتسباً لمن يسكنه،

ولا يسمح القانون التركي بإخلائه أو هدمه، وهناك أحياء أنشئت على أطراف المدينة بهذه الطريقة. كانت مهمتي تدقيق الرخص إن وجدت، وكذلك المخططات المعمارية، ومدى التقيد بها، وكتابة الضبط الذي له صيغة معينة يملئها عليّ ضابط الشرطة، وتعبئة الإنذارات بإفادة المخالف، وتستمر جولتنا أوقات الدوام الرسمي، حيث نقوم خلالها بتناول الغداء في أي مكان، ونشرب الشاي في المقاهي، وأحياناً في المواقع التي نزورها، فيقدمون لنا الشاي ضيافة.

تعرضت للرشوة من بسطاء الناس، محاولين دس نقود في جيبني أثناء كتابة محضر الضبط، دائماً ضميري بالمرصاد، ورفضني لأي رشوة يحتكم لمبدأي في الحياة هو أن أعيش حراً كريماً. كنت والضابط نغض الطرف عن هؤلاء المساكين، ونعطيهم فرصة لإنهاء أعمالهم.

أعود ليلاً إلى بيت الخال محمد آكلار (أبو جميل)، أسهر مع جميل وأخواته وأبناء وبنات أعمامه وبنات الجيران، ويمتد بنا السهر بأحاديث ونكات ولعب، وتمدنا أم جميل بضيافة المكسرات وما طاب من شراب، وتخصّني بعطف وحنان، وتغسل ثيابي وتكويها، وتحرص على هندامي، وبأطيب الطعام، لا زالت ذكرها حيّة في حياتي، لها الرحمة والمغفرة، كانت بمثابة أمي.

اصطحبني جميل وأخواته وخطيبته إلى حفل عرس في منتزه عام، أمضى جميل وخطيبته أغلب وقتهما بين أشجار المنتزة،

وحين ابتدأ الرقص رقص الجميع بسعادة وفرح، وإحدى الصبايا تراقصني بإعجاب، خرج جميل وخطيبته إلى الحديقة وتركني مع أخواته، وكانت تلك الصبية تجلس إلى جانبي، وأحياناً تتلامس أيدينا وأرجلنا وأجسادنا بقصد أم بغير قصد، وأبدت الصبية استحساناً، وتورد وجهها، وزدادت مرحاً وسروراً لافتاً، عاد جميل وخطيبته من خلوتهم وتراقص السعادة في عيونهما، دعنتي الفتاة وابنة عمها للتنزه في الحديقة، كنتُ ذاك القروي الشرقي الذي يحسب ألف حساب لتصرفاته، ويهاجمه الخجل بلا هوادة، كان جميل يبتسم ساخراً، وقال لي: أنت (حيوان) بالتركي نفسها (hayvan)، حينها أدركت مغزى قول «جميل»، رغم أن الحيوانات لا يعلوها الخجل والتردد في اتخاذ القرار فرافقتهما في التنزه.

عدنا في وقت متأخر إلى البيت، وبعد انتهاء حفل العرس، كان الأهل نائمين، جلس جميل وخطيبته في قاعة الضيوف، وذهبتُ إلى غرفتي فوجدت الفتاة قد سبقتني إلى غرفة النوم، وقامت بترتيب فراشي، ووضعت وعاء ماء جانب سريري، قلت لها على استحياء: لا أعرف كيف أعبر عن سعادتي الغامرة وأنت تهتمين بشؤوني أيما اهتمام، كنت أودّ تقيلك تعبيراً عن شكري وامتناني، ابتسمت بحياء دون أن تنظر في وجهي، واستمرت بترتيب سريري، وقال بصوت مهموس: أنت لم تفعل، وأنا لم أرفض، وخرجت مسرعة.

كانت غرفتي في الطابق الأرضي، تنام العائلة في الطابق العلوي،

تمددت في فراشي وعيوني شاخصة في سقف الغرفة، حتى إذا انقطعت الحركة والأصوات، وسكن الليل، وأنا ما بين اليقظة والسبات، شعرت أن باب غرفتي يفتح بهدوء، فتحتُ عيني، وهالني ما رأيته، رأيْتُ شبحاً أبيض يقف بالباب، وخلفه عتمة كالحة، ارتعدت فرائضي للوهلة الأولى، ثم رأيْتُ فتاة بثوب أبيض يكاد يشف عن جسدها الممشوق، وشعرها الأسود يتماهى مع العتمة، تمسك بيدها حلق الباب، جلست على طرف سريري، احتضنتني بثوبها الحريري، وبشذى عطرها المُسكر، قبّلت كل جزء في جسدها، كانت المداعبات بيننا في سكون الليل ونيام الأهل، لم أتجاوز حدود القبل والمداعبات، فالخوف يسكنني.

اقترحْتُ ذات يوم أن نذهب سوياً لزيارة قرية لها تسكن في أطراف المدينة، على سفح جبل قرب الغابات، ترافقنا، ثلاث فتيات وأنا، بعد تناول الغداء في بيت قريبتها، سرنا في رحلة طويلة في الغابة، وجمعنا حبات السفرجل البري الناضجة، ذات اللون الأصفر اللامع، وجلسنا بالقرب من ماء نبع صافٍ، وأخذنا الحديث بين الجدِّ والهزل، في إشارات لا تخلو من الحب والجنس المتقد في أعماقنا، وفي المساء عدنا سالكين طريقاً ضيقاً بين الأشجار، صاعداً إلى الأعلى، تفاجأنا بمجموعة شباب سكارى، حاول أحدهم التحرش بالفتيات، كدت أشتبك معه في عراك، وما بين الإقدام والخوف على الفتيات إذ بفتاة تصرخ عليهم من بعيد، وظهرت من بين الأشجار، ويدها عصا غليظة، وهي تكرر الشتائم: (يا اولاد الكلب)، وسمعت صوت إطلاق رصاص من

بعيد، هرب الشباب في الغابة، وعرفت الفتيات الفتاة التي تصرخ، وهي فلاحه تلبس السروال التركي الواسع، صاحبة وجه لوحته الشمس، وشفتان متشققتان من برد الريف، ينفرجان عن ابتسامة عريضة، وهي تحتضن كل منهن، وتتأبط عصا غليظة.

فتاة شجاعة، خبرت الغابة بتفاصيلها، تعرف هؤلاء الشباب السكارى الجبناء، وبإصرار دعتنا إلى بيتها، ذاك البيت الذي يتوسط حقلاً من الخضراوات، في فسحة من الأرض، وسط الغابة، يتألف من طابقين، في كل طابق غرفة واحدة، يصلهما درج خارجي، وللغرفة العلوية شرفة محمولة على أعمدة من خشب، ولم يكن في البيت سوى الفتاة وأُمّها، كانت أُمّها تطلق الرصاص في الهواء، من بندقية صيد (خرطوش) بماسورتين، لإبعاد المتطفلين عن المكان، تناولنا بتلذذ البطيخ والشمام.

نمنا تلك الليلة في بيت قريبتهم، التي تقيم مع طفليتها الصغيرتين، وفي الصباح بعد تناول فطورنا وشرب الشاي، خرجت الفتيات، وجلست مع المرأة الكبيرة، كانت سيدة مبتسمة، جميلة الوجه، تشبه نساء بلادنا، وخلال حديثنا دعنتني للزواج من فتاتي المُعجبة، وهي صاحبة مهنة تدرّ علينا المال، تُحيك ملابس العرائس، فاخترتُ كذبة تخلصني من المأزق الذي وقعت فيه، لقد وعدتُ أُمّي وخالتي الزواج من ابنة خالتي، ولا أستطيع التخلص من وعدي، لم يعجبها ما زعمت، رجعت الفتيات وغادرنا مودعين السيدة الجميلة.

تمضي الأيام، أبكر في عملي، أجلس مع المدير ونحتسي القهوة التركية بانتظار وصول الموظفين، توطيد علاقتي بالمدير مراد بيك وصديقه رئيس قسم المحاسبة، وأصبحنا نذهب سوياً بعد انتهاء العمل إلى المطاعم، وهم يشربون العرق (الراكي)، وأجاملهم بزجاجات البيرة، وتكرار جولاتنا المشتركة، وهم يدفعون ثمن كل شيء، وفي يوم دعوت مراد بيك وزميله للغداء على حسابي، فاختاروا مطعمًا مناسبًا، كان المطعم راقياً جداً، يقع على سفح جبل مطلّ على المدينة، مطعم ليس كالمطاعم التي نرتادها، شربوا وأكلوا، وطالت الجلسة حتى ما بعد غروب الشمس، كانت جلسة جميلة ممتعة، دفعتُ الحساب كله، كان المبلغ كبيراً، نظر المدير إليّ وقال: هي مرّة واحدة يا محمد، وعليك أن تتعلّم المحافظة على قرشك مستقبلاً.

في طريق عودتنا إلى قاع المدينة كان الوقت قد قارب على العشاء، وفي سياق تبادل الحديث سألت مراد بيك:

- هل سمعت بالانفجارات التي حدثت على الشمس هذه الأيام؟!

- يا رجل أنا عندي انفجارات بالبيت، فمنذ ولادتها لم أسمع ولم أر شيئاً.

- الحمد لله على سلامتها، وسلامة المولود.

- الله يسلمك، ما رأيك أن ترافقني في جولة هذه الليلة، بعيداً عن زوجتي وحماتي؟

- لا مانع لديّ، لكن عليّ أن أخبر خالي، واستأذنه بالتأخر خارج البيت.

عدتُ إلى البيت، واستأذنت خالي محمد آكلار، فقال: اذهب حيث تشاء، لكن احذر من أن يخدعك أحد أو يضحك عليك، وعليك العودة لتنام في البيت.

ذهبت إلى لقائي مع مراد بيك، لم أكن أعلم أين سيصحبني، تجولنا في أسواق المدينة، وإذا صادفنا أحداً يعرف مراد نسلم عليه باحترام وتقدير، امتدّت جولتنا حتى العاشرة ليلاً، ووصلنا إلى مطعم يقدم شوربة الكرشات والرؤوس المحمرة، وهو طعام يعشقه الأتراك، دخلنا وتناولنا عشاءً طيباً، ثم غادرنا المطعم، فأخذني إلى مكان لم يخطر على ذهني، إلى حيّ عامر ببائعات الهوى، رغم أنني أعرف المكان جيداً إلا أن المفاجأة أذهلتني، ورغم سعادتي بالمكان، لم أفكر في يوم أن أرتاده، رغم معرفتي به جيداً، خشية أن يلمحني أحد معارفي، وها هو مديري بجلال قدره يدخل بلا أدنى حرج، لم أكن أصدّق أن ارتياد الأتراك لهذا المكان شيء عادي، وإذا سألت أمّ أحدهم عن ولدها تقول: ذهب للنسوان. لكن مدير الدائرة كان أكبر من توقعاتي.

تجولنا بين البيوت الزجاجية، ووجد ضالته، والتقيتُ بواحدة، ولم أكن مستعداً نفسياً للمغامرة، لشدة الإرهاق والتعب، بعد تناول البيرة وشوربة الكرشات والروس بالثوم، اعتذرت منها، بعد أن دفعت الأجرة، لم تتركني إلا بعد وعد مني العودة في يومٍ ثانٍ،

ورجوتها ألا تفضح سرِّي لصاحبي، عدت لبيت خالي وأنا استعيد تلك المغامرة، لكنها مغامرة مفرحة ومبهجة للنفس.

جلستُ في إحدى الأمسيات بجانب خالي محمد، وهو يمارس طقوس الطعام والشرب ببطء شديد، ونحن نتجاذب أطراف الحديث، أخبرني أنه فخور بي، وأن بعض الناس أثنوا عليَّ أمامه بحديث طيب، وقال: لماذا لا تبقى معنا، وتعمل في بلدية بورصة مهندساً، وأنا على استعداد أن أزوجك البنت التي تريدها في بيت مستقل؟! ولا أقصد أن أزوجك من بناقي أو من بنات أقاربي، إذا وافقتني على الزواج سأزوجك حتى لو كانت ابنة رئيس البلدية، وإذا رفض أبوها أخطفها لك. كانت هذه عادة شائعة في بعض القرى التركية، إذا لم يوافق أهلها على زواجها ممن تحب، فتهرب معه، حيث يأخذها إلى بيت أحد الشيوخ، ويعقد عليها حسب شرع الدين، وهو زواج غير معترف به مدنياً، مما يدفع بأهلها إلى الرضوخ للأمر الواقع، ويطعمون حفلاً بزواج مدني، ولو بعد حين، ثم يُسجل العقد في الدوائر الرسمية، ليستطيع أطفالهما فيما بعد دخول المدارس، والحصول على الرقم الوطني، وشهادة الميلاد.

قلت: يا خال حديثك فوق رأسي، وأحب شيء علي نفسي البقاء معكم، لكن ورائي مسؤوليات أخواتي الثلاث وأمي، ولا تنسَ حاجة بلدي لي. ففرح لردِّي، وقال: الآن كبرت في عيني أكثر، أنت تشبه الأتراك في انتمائهم الوطني المقدس، ودعا لي بالتوفيق وتحقيق الآمال.

عندما أخذت مستحقاتي المالية الأخيرة من البلدية ذهبت واشترت بكامل المبلغ هدايا للأم والبنات والأولاد كل حسب ما يناسبه، واشترت لخالي زجاجة مما يحبّه قلبه.

انتهى تدريبي، وجاء اليوم الذي أفارقهم، كان وداعاً حاراً ممزوجاً بالدموع، حملتُ حقيبتني وسرتُ إلى موقف الحافلات وحيداً، واشترت تذكرة، وقبل صعود الحافلة إذ بأّم جميل تلحق بي ودموعها تغسل وجهها، فلا تريد أن أغادر قبل وداعها، فأسرعت خلفي هي وابنها وابنتها، ركبت الحافلة، وهم يلوحون بأيديهم، وقلوبهم تخفق بالحبّ والحنان.

نهاية عهدي بالجامعة



سلمتُ كتاب التدريب للجامعة، وعدت بعد يومين لاستلام وثيقة تخرجي مع كشف علاماتي، دخلت مكتب مسؤول شؤون الطلبة كمال بيك، وهو رجل وسيم بأناقته، وجدته قد أحضر الوثيقة التي تنص على أن محمد بن علي الدغليس قد التحق بكلية العمارة في جامعة اسطنبول الفنية بتاريخ كذا، وهو الآن في الفصل الأخير منقول بمواد دراسية. أخذتني المفاجأة، وقلت:

- مراد بيك، أنا خريج، ولم يبقَ أي من المواد الدراسية.
 - لم أطلع على كشف الجامعة، لكن كعادة جميع الطلبة الأجانب لا يnehون دراستهم في الوقت المحدد.
 - لا يا كمال بيك، أرجوك انظر في كشف المواد.
 - ما شاء الله، فعلاً أنت أتممت متطلبات التخرج كلها، هذه المرة الأولى التي أرى فيها طالباً أجنبياً أتم مواد دراسته في الوقت المحدد منذ جلوسي على هذا الكرسي.
 - أشكرك يا سيدي، والآن أرجو طباعة الوثائق التي تثبت ذلك.
 - ألف مبارك، وعليك أن تقيم حفلاً في فندق الانتركونتينتال بهذه ال نتيجة المشرفة.
- تبسّمتُ، وحمدتُ الله، لم يكن يعلم أني حضرت إلى مكتبه مشياً على الأقدام كي أوفر أجرة السيارة، أخذت وثيقة التخرج وكشف العلامات مطبوعاً، وأبلغني كمال بيك أن الشهادة الأصلية ستكون بانتظارك، فما عليك إلا تصوير هذه الوثائق عدة نسخ وتصديقها بعد ترجمتها للعربية من الخارجية التركية والسفارة الأردنية قبل مغادرتك تركيا.
- كدتُ أطيّر من الفرح، حاملاً ورقة من أربعة سطور، تشهد بأنني أتممت المواد التعليمية في كلية الهندسة المعمارية في جامعة اسطنبول الفنية (I.T.U) بنجاح، وبناء عليه استحققت هذه الشهادة.

أودُّ أن يشارك سعادتي أحد من أصدقائي، فأول ما خطر في ذهني
الحشاش شرف بيك زوج السيدة وحما الشقراء اليوغسلافية وأبو
تولين، دخلت عليه وكان قد دخن الحشيش، وهو في حالة تجلّي،
قلت بفرح وبصوت عالٍ:

- شرف أبي، لقد تخرجت من الجامعة، وصرت مهندساً.

بعين نصف مفتوحة أجابني:

- مبسوط على حالك، غداً يكون رأسك من الإسمنت المسلّح.
وقهقه طويلاً.

كانت ردود الأفعال محبطة جداً، عدا الخالة عائشة الأضنية،
تلك العجوز التي امتزج فرحها بمسحة من الحزن والدموع،
سألتها عن دموعها، قالت: هذا إنذار بأنك ستسافر إلى بلدك، ولن
أراك ثانية. حزنت جداً، وقدمت صورتي في برواز هدية لها لتضعها
بجانب صورة ابنتها المغتربة.

أثناء مراجعتي لمكتب شؤون الطلبة في آخر أيامي هناك قرأت
إعلاناً معلقاً على اللوحة عن بعثة سويدية لمن يرغب من خريجي
كلية العمارة، للعمل في السويد رسامين أو مساعدي مهندسين
معماريين في بلدية ستوكهولم، قابلت اللجنة، فأنا أتحدث
الإنجليزية أحسن بكثير من الأتراك الذين لا يعرفون منها إلا ما
ندر، وتم اختياري بناء على ذلك، وقبول طلبتي، فغمرتني السعادة،
وعزّ على نفسي أن أبقى مغترباً بعيداً عن أمي وأهل قريتي، خاصة
أنني أول مهندس معماري في سلفيت.

أبرقت رسالة لصديقي وقريبي صالح غنيم، أبشره بتخرجي وقبولي للعمل في السويد، كان ردّ فعله عنيفاً، وأجابني برسالة مقتضبه بعد مباركته، وقال: لا بارك الله فيك أيها الولد العاق، تذهب للدراسة وتتخرج ثم تترفع على أهلكم ووطنكم، وتنسى مسؤولياتك، فإن كنت تتوق للمال فإنك لن تجده مع حفظ كرامتك في الغربة، وإن كنت تلهث وراء حواء، ففي النهاية ترفسك في وجهك لأنك غريب، عُد إلى بلدك وتحمل مسؤولية أخواتك وأُمّك، وتعوّضها عن معانتها في تربيتك. كانت رسالته مؤثرة، مما دفعتني للتردد في سفري إلى السويد، وعزمت العودة إلى وطني في أقرب وقت.

طريق العودة وإغلاق صفحة



في مطلع الشهر الأخير من عام ألف وتسعمائة واثنين وسبعين
بعث ما أملكه من متاع بمبلغ زهيد، سرير وفراش ومدفأة الكاز،
لطالب جديد يقيم مكاني، وحزمت ما تبقي من متعلقات متواضعة
لها ذكرى خاصة، وبعض مشاريع فصول دراستي، عدا مشروع
التخرج إذ هو مُلك للجامعة، وحملت معي بعض الكتب والدفاتر
والصور والملابس، جمعته في حقيبة متوسطة الحجم، وتوجهت

إلى محطة القطار المركزية في القسم الآسيوي من اسطنبول (محطة حيدر باشا)، بصحبة صديقي علي رضا توران وظفر اونال والخالة العجوز عائشة الاضنية، حضروا لوداعي الأخير، وقبل صعودي عربة القطار دسّ أحدهم شيئاً في جيبي، فإذا هي ليرات تركية ورقية، حاولت ارجاعها، قالوا: هذه عاداتنا، ولا يمكن إعادتها، نحن نعطي (نقوطة) للمسافر، سواء أكان طالباً أم من يذهب للعسكرية الإجبارية، ودّعتهم والدموع تغالبني، قد لا ألتقيهم بعد اليوم، خاصة الخالة عائشة، التي حرق قلبى بدموعها، وهي تتكئ على عصاها، ركبتُ العربة، ووقفتُ ملوحاً بيدي حتى غابوا في البعيد، غرقتُ في دموع غزيرة كأني أودع خمس سنوات من عمري، تلك السنوات مضت بحلوها ومرّها.

يسير القطار اكسبرس الشرق بجنون، وصوت صفيره يزيدني وجلاً وكآبة، بدا الأفق يلوح من بعيد، ومحطات يتجاوزها القطار، أحلم بوطني الذي هو تحت الاحتلال الصهيوني، دخوله بتصرّيح، إذا لم أتعرض للسجن قبل دخوله، تتجاذبني أفكار الماضي والمستقبل، أعيش حلم تلك السنوات التي قضيتها في تركيا، اسطنبول خاصة، ذكريات تعشعش في أعماقي، أصدقاء وأقارب، حارات وشواطئ، أناس عرفتهم وألفتهم، وكلّما ابتعد القطار عن اسطنبول أشعر بالقطيعة المؤلمة، يتتابني شعور بالخواء الداخلي والفراغ الفكري والوجداني، كلّ هذا وذاك يجتاحني، فيؤلمني، وإذا فكرتُ فيما ينتظرنني أجده ضبابياً، لا بدّ أن تكون البداية صعبة ومقلقة، وها هو القطار يتوقف في محطته الأخيرة بحلب،

أفقت من حلمي، نزلت المحطة وتوجهت إلى بيت أقاربي في مخيم النيرب، لم يكونوا على موعد بلقائي، وجدتهم كما تركتهم في الماضي، لا شيء تغير، العمه الحاجة جميلة والعم أبو ذياب وزوجته وأولادهما، وتلك الفتاة التي ما زالت عزباء، وتدّعي أنها ما زالت بانتظار عودتي.

أصبحتُ ناضجاً فكرياً، ولديّ القدرة على التفكير بواقعية أكثر، واتخاذ القرار الجريء، فلا أجامل أحداً، ومع ذلك كدتُ أن أتخلى عن قناعتي في سبيل أن لا يتألم أحد بسببي أو يقع عليه ظلمي، اصطحبتُ تلك الفتاة التي كانت تكبرني بخمسة سنوات إلى حلب المدينة، وطلبت منها أن نجلس في مكان هادئ للتحدث، ذهبنا إلى مقهى كالمغارة، يقع في سرداب أحد المباني التجارية، وبرغم أنه كان رومانسياً هادئاً، وكانت أضواؤه خافتة، بدا كأنه سجن انفرادي، يكاد يطبق على أنفاسي، ومع أول رشفة فنجان قلتُ:

- آه يا ابنة العم، ماذا بعد؟

- ماذا تقصد؟!

- أنتِ تعرفين قصدي جيداً.

- نعم، لكنك أنتِ الرجل وتعرف ماذا تريد.

- أريد أن أعرف الإجراءات المتبعة لإكمال مسيرة حياتنا المشتركة.

- هل أنتِ على قناعة تامة قلباً وعقلاً؟

- هذا السؤال فات أوانه، كان قبل خمس سنوات، وأجبتُ عليه، أما الآن فلا معنى للسؤال.

- هل أنتَ متردد في قرارة نفسك؟

- صراحة أخشى من عواقب قراري.

نهضتُ مسرعة، وغادرتُ المقهى.

ألمني ما اتخذته من قرار، فالفتاة ذكية ومخلصة وخلوقة ونزقة، سريعة الغضب، تفعل لأنفه الأسباب، ومن الصعب إرضائها. سرْتُ وحيداً بموازاة سكة حديد القطار المحاذية للمخيم، عدتُ وقت الغروب إلى بيت أختها العمّة أم ذياب، سهرتُ وتناولتُ العشاء ونمتُ ولم أكلّم أحداً.

وفي اليوم الثاني ذهبتُ إلى بيت الحاجة جميلة، فلم أجد الفتاة، وحمدتُ الله على ذلك، وعلمتُ أن الفتاة قد سافرتُ إلى بيروت، حيث يقيم ابن عمها، مضتُ الساعات ببطئ، وشعرتُ أن الجميع لم يعد راغباً في بقائي، حتى العمّة الحنونة الحاجة جميلة.

تناولت حقيتي، فوجدتها مفتوحة، وتم العبث بها، وتفتيشها بدقة، ومُزقتُ مذكراتي وصورتي، وشوّهت أجمل رسوماتي وأشعاري ورسائلي، تألمتُ كثيراً، لكن ذلك لم يقعدني، ذهبتُ إلى بيت العم أبو ذياب، وبِتُ تلك الليلة عندهم، وعقدتُ العزم على السفر إلى دمشق.

تناولتُ الفطور مع العمّة أم ذياب وأبنائها، وسمعت عتاباً شديداً، وسألتني ابنة أم ذياب، بماذا أنصحها أن تتخصص في الجامعة؟ قلت: الهندسة المدنية، فهي فتاة حادة الذكاء، وقلت في نفسي: لعلّها قد تكون شريكة حياتي مستقبلاً.

وقبل أن أغادر إلى دمشق زرتُ بيت عمتي، وبُتْ عندهم ليلة واحدة، ومن دمشق سافرتُ إلى عمّان، وحذّرنا أحد ركاب السيارة من حمل شيء يتعلق بالمنظمات الفلسطينية، فأيلول الأسود ترك بصمات سوداء في حياة الناس.

عمان حاضنتي وإن قست عليّ



تجاوزنا الحدود السورية الأردنية بسلام، ووصلنا مدينة الرمثا، ونسائم الوطن تأتي من بعيد، وخيالات ترسم صوراً تغمرها دموع اللقاء. أخيراً وصلتُ عمان، هذا البلد الذي احتضنتني وأمّي مُكرمين، منذ أن كنتُ طفلاً صغيراً، مدينة تحتضن من يلوذ بها، من كافة الأصول والأعراق، تحنُّ على الفقير، وتجوّد على الميسور، وتتيح الحياة لمن يرغب في العيش بسلام.

عدتُ إليها أحمل شهادتي الكبرى، عدتُ أتسكعُ في شوارعها، جلستُ أمام الجامع الحسيني، أشربُ القهوة في مقهى الجامعة العربية، وأستعيدُ ذكريات الماضي، لم يتغير شيء في وسط البلد، كل شيء كما تركته، مما زادني راحة وسكينة، اشتقتُ إلى صحن حمص وفول وفلافل وكأس من الشاي بالنعناع وخبز بلدي ساخن، خطر في ذهني صديقي علي الأسمر، السائق الذي رافقته في رحلة اليونان، الذي يعمل سائق تكسي على خط الجوفة، وكان هذا أقرب الأماكن للوصول إليه.

سألتُ أصحاب سيارات الأجرة عنه، قالوا: انتظر قليلاً فابن عمّه إبراهيم يعمل سائقاً وسيحضر بعد قليل، وصل إبراهيم ذو القامة القصيرة، تعارفنا سريعاً، ورحّب بي بابتسامة وردية، وعرفني من الصور التي رآها مع صديقي «علي» في رحلة اليونان، أدرك أنني وصلت من السفر للتو، وضع حقيبتي في السيارة ودعاني للمبيت في بيته، أوصلني للبيت طلباً للراحة، وعاد لعمله.

كان إبراهيم وزملاؤه يقيمون في جبل الجوفة، في دكان أُغلقَ بابه بالطوب، ولم يكن سوى ما يشبه الشباك في أعلى الجدار، وله باب جانبي، نمْتُ من شدة التعب على فراش غارقاً بالعمّة.

أيقظني إبراهيم وصحبه ليلاً وهم يحملون طعاماً، تجاذبنا أطراف الحديث، كان ضوء أحد أعمدة الكهرباء يتسلل إلى الغرفة، لم أكن قادراً على رؤية وجوههم بوضوح، يتبادلون النكات، ويتذكرون نهفات ركاب السيارات، في الصباح غسلت

وجهي بماء إبريق بلاستيك أزرق، حيث يتسرب الماء في قناة ضيقة إلى الشارع، حملتُ حقيتي، وسرتُ معهم إلى وسط البلد. بحثتُ عن محل تجاري لصالح غنيم وأبو رياض قدري، واهتديتُ إليه بعد جهد مضني في منطقة العبدلي، استقبلني صالح غنيم ببدلته وربطة عنقه، يجلسُ خلف طاولته في محل تجاري واسع، يبيع بلاط بورسلان وسراميك وأطقم الحمامات، تفاجأ بحضوري، واحتضنني مرحباً مهلاً، طال بنا الحديث عن الماضي والحاضر والمستقبل.

جلسنا حتى جاء وقت الغداء، فاصطحبني إلى مطعم ملاصق لمحله، وتناولنا شوربة العظام وصحن من الفاصولياء الخضراء، ودعاني لبيته في جبل اللويبة، وفي اليوم الثاني التقيتُ موسى قدري ابن خالة أبي، الرجل الطيب، الذي لم يغيّر حياة المدينة، كان مشغولاً بالتعهدات الإنشائية، ودعاني إلى بيته في الأشرفية، وتناولنا العشاء، وسهرتُ وإياه وأولاده.

اشتقتُ لرؤيته صديقي عبد الرزاق الصلاحات، كان وقتئذ قد التحق بالسلك العسكري، وأصبح ضابطاً في الجيش الأردني، وعلمتُ أنه قد أجرى عملية في ساقه، في المستشفى العسكري بـ «ماركا»، ذهبتُ إليه أحتُ الخُطى، يدفعني الشوق لاحتضانه، وصلتُ المستشفى، وسجلتُ اسمي عند الدخول، دمعت عيناى عند رؤيته، فتبسّم وهو يطمئنني، فقد أصابه عيار ناري في أحداث أيلول، تألمت كثيراً، جلستُ أعبر عن مشاعري

وعواطفني الجياشة، لطالما حلمتُ بهذا اللقاء بعد فراق طويل،
وودّعته على أمل اللقاء، فخلع خاتم ذهب يتوسطه حجر أسود من
إصبعه ووضعته في إصبعي، وودّعني بحرارة، انتظرت إلى أن جاء
تصريح دخول الضفة الغربية مدة شهر واحد أقمت خلاله في بيت
صالح غنيم الأعزب حينها.

العودة إلى عَشِّ الطفولة رجلاً



يشدّني الشوق إلى مرابي الأهل والأصدقاء، صحوْتُ مبكراً
يجتاحني خفقان قلب على إيقاع ما أتوقعه في ذاك اليوم، مضت
سنوات انتظرت خلالها هذا اللقاء، كان الخوف يتسلل إلى
أعمالي.

انطلقت الحافلة متوجهة إلى الجسر للعبور إلى الضفة الغربية،
تسير على طريق السلط الجميلة، حيث عيون المياه الصافية،

انفرجت أساري من أعالي وادي شعيب، وتصاعدت نبضات قلبي وأنا أرى جبال فلسطين شامخة في الأفق الغربي، صعوداً من الأغوار حافظة الذكريات، وصلنا إلى الجسر الواصل بين الضفتين الشقيقتين، بدت قلنسوات الجنود البغيضة في الجهة المقابلة للجسر، استلم الجميع تصاريح دخولهم، وتم تفتيش الحافلة بدقة، وانتقل الركاب إلى مباني للتدقيق والتفتيش غرب نهر الأردن.

خضعتُ كغيري من الرجال والنساء والأطفال للتفتيش الدقيق، خلعتُ كافة ملابسني في غرفة التفتيش، وتم التدقيق في أوراقني، وتحولتُ لغرفة ١٣ للتحقيق، وسؤالي من أين وإلى أين، وما الغرض من الزيارة، وتم تفتيش حقيبتي قطعة قطعة، ومن ثم سُمح لي بمغادرة المكان إلى حيث تقف السيارات التي ستنقلنا حيث نشاء، وما أن خرجت من عقدة التفتيش المهينة التي تسمى نقطة العبور حتى تنفستُ الصعداء، وركبت السيارة متجهاً إلى نابلس، ونسيت معاناتي وأنا أسير على تراب وطني وأتنسم هواءه.

مررنا من الباذان وينابيعه التي ما زالت مياهها تقطع الشارع باتجاه الوادي، وتحفها أشجار وارفة ظلالها، وعلى رأسها نبع ماء، ودكاكين تبسط خيرات الوطن، وتابعت السيارة سيرها حتى توقفت قرب صبانة الشكعه في وسط مدينة نابلس، تلك المدينة ذات الطابع المميز عن غيرها من المدن الفلسطينية، أسواقها المسقوفة، رائحة الشواء، رائحة البهارات، الزعتر، الميرامية، عبق

الدخان العجمي المنبعث من أراجيل المقاهي، عربات الخضار والفواكه، بائع الكعك والبيض المسلوق، أصوات الباعة كأنها موسيقى توارثته الأجيال أباً عن جدّ.

لم أذهب مباشرة إلى حافلات قريتي سلفيت، علي أن أتجوّل في أسواق نابلس، وأتذوق كنافتها التي افتقدتها منذ زمن طويل، في الحافلة إلى سلفيت سألني أحد الركاب وهو أستاذي للغة الإنجليزية جابر محبوبة، والذي أكنّ له في نفسي كل الاحترام والتبجيل، فهو لم يأل جهداً في تعليمنا فأطلعته على وثائقي وتفوقي مزهواً.

وصلت قريتي، كان لقاء تاريخي، لا تصفه القصائد وكتب التاريخ، تعلّقت برقبة أمي، وغمرتني بقبالات لا تنتهي، وهي تبكي وتضحك في آن واحد، وتحمد الله على سلامتي، أمي التي ضحت من أجلنا كثيراً، كانت تردد هل سأعيش يمّا حتى أراك أستاذاً تعلّم الأولاد مثل فلان، فقد تعبت يمّا من شغل الفلاحين، متى يمتلئ البير العميق من قطرات الندى يمّا؟!!

هاهي ترى أمامها الولد الذي ودّعته طالباً مهزوماً مكسور الجناح، يعود إليها شاباً شامخاً متسلحاً بشهادة مرموقة، وفور وصولي إلى بيت العائلة توافدت الخالات والعمات والجندات والأقارب والجيران للسلام عليّ، الكل يبارك ويهنئ أمي التي توزع حبات الملابس (حامض حلو) على الصغار، والشوكولاتة (السلفانا) على الكبار، وتنطلق الزغاريد من حناجر النسوة.

احتضنت أخي نايف وشقيقاتي هند وختام وفاطمة، اللواتي أصبحن صبايا بعمر الورود، في كل ليلة نستقبل المهنتين، وعلى رأس المستقبلين إخوتي من أمي، أحمد وعبد الله وزوجاتهم.

حضر رئيس البلدية السيد حسن الزير مهنتاً، رجل وقور ذكي صاحب منزلة كبيرة بين الناس، وهو أستاذي في الصفوف الابتدائية، وأصبح عمدة القرية، ليرى تلميذه الذي يحمل مؤهلاً علمياً كبيراً، المهندس المعماري، فرحت أمي لحضوره.

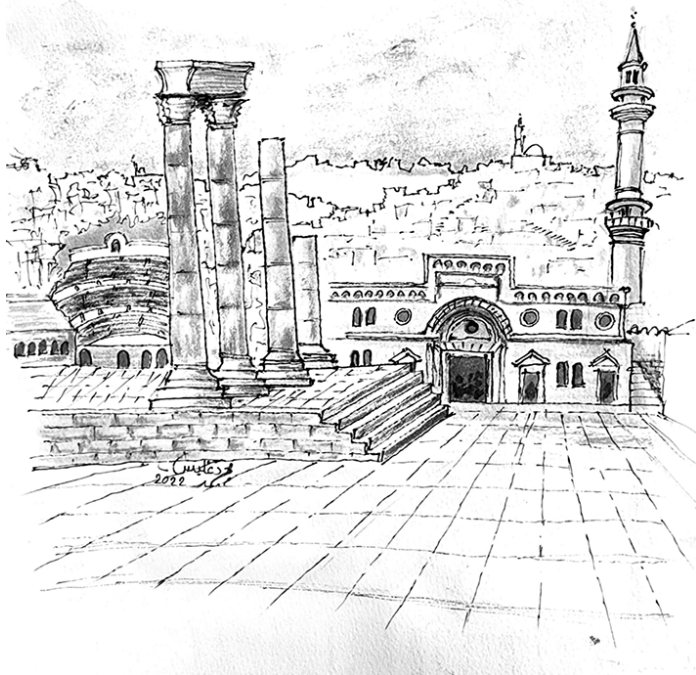
أراد أن يسمع رأيي في الأمور التنظيمية والتطورات المعمارية بما يخدم وطننا، حدثته بإسهاب عما اكتنزه من أفكار، وما تعلمته من أصول التصميم المعماري والأنظمة والقوانين السائدة في العالم، وكيف يكون النمو المثالي لأي بلد، بعيداً عن العشوائية التي تدمر إمكانية تقديم الخدمة المثالية للبلدة وساكنيها، كان يُصغي باهتمام بالغ، ولم يقاطعني حديثي، ولم يعلق بكلمة، فقط أخبرني أن أبي قد أرسل له رسالة من البرازيل يوصيه أن يبذل جهده في أن يكون لي دور إلى جانبه في خدمة قريتنا، ثم ربت على كتفي بجديته المعهودة وابتسامة، تنم عن إعجاب حاول إخفاءه.

فرحت بأخواتي الصبايا في مراحل الدراسة الثانوية، وأخي نايف، الذي لم يكمل تعليمه، وأصبح يعمل مثل غيره من شباب القرية في مصانع داخل الخط الأخضر للاحتلال، وأثلج صدري عندما أسر لي أنه على استعداد أن يساعدني مالياً حتى أجد عملاً.

مضت الأيام سريعاً، تلك الأيام التي محت ما بداخلي من

وساوس وخوف من القادم، وعمّقت الأمل بمستقبل أفضل،
كان عليّ أن أغادر الوطن، فتصريح دخولي للبلاد قد اقترب على
الإنهاء، ولم يكن أمامي فرصة للبقاء، أغادر قريتي بحثاً عن
مستقبلي في عمّان.

الملاذ الأمن والمستقر الحاني



عدت إلى عمان وأقيمت ثانية عند صديقي صالح غنيم هذا الرجل المثقف الشعبي، عاشق السياسة صاحب الميول اليسارية والأفكار الاشتراكية، عاد مطروداً من الكويت، بعد تناوب بين النجاح والفشل ليقيم في عمان، ويتحول إلى تاجر أدوات صحية، وشركة تعهدات بالشراكة مع (أبو رياض قدرى)، ابن بلده ورفيق في حزبه.

أكرمني صالح أيما كرم، وهو بمقام الأخ الكبير، بدافع المحبة والصدقة والقربى، ولم يتخلّ عني في ظروف صعبة، وفي حاجة تعوزني وتأخذ بتلابيب نفسي، لم يعد أبي يساعدني مالياً بعد الجامعة، ولم أمتلك الجرأة كي أطلب منه المزيد، ولا أستطيع أن أثقل كاهل أمي بطلب، يكفيها الوفاء باحتياجات أخواتي والبيت، أخذت من أخي الأصغر بعض النقود لتعينني على الوصول إلى عمان، لهذا أقمت مع صالح غنيم، ورتاد المطاعم الشعبية المتواضعة وقت حاجتنا للطعام، وأحياناً أقصد زيارة دار (أبو رياض) مساء كي أحظى بالعشاء.

حملت وثائقي وشهاداتي وتوجهت إلى نقابة المهندسين لتقديم طلب انتساب للنقابة، فعضوية النقابة هي الشرط الأساسي للتقدم لأي عمل، لم أجد في النقابة سوى موظفين، أحدهما مدير متجهم، والثاني محاسب طيّب النفس، استلم المدير أبو محمد طلب العضوية، وأخبرني دون أن ينظر في وجهي.. الطلب سيكون قيد الدراسة من لجنة العضوية، وأن اللجنة سافرت إلى تركيا لتقييم الدراسة في جامعاتها، وبعد عودتها ستعقد اجتماعاً وتنظر في الطلبات المقدّمة، قالها وكأنه يلقي عليّ قرار اتهام وجاهي.

عدت إلى محل صالح، وكي لا يملّ رؤيتي أتسكع في قاع المدينة حتى المساء، وأعود للنوم في بيته، حاولت البحث عن عمل، أيّ عمل، فعملت مدة قصيرة في إحدى ورشات البناء، دون أن أخبرهم أنني مهندس، فقد يرفضون العمل معهم.

في تلك الفترة ساءت أوضاع صالح غنيم، قد تعرض وشريكه (أبو رياض) لخسارة فادحة في التعهدات، وفي أكثر من مشروع تعهد به، فقد الرجل نشاطه وآماله، وأصيب بالإحباط الشديد، ويجد في النوم ملاذاً له، وأبو رياض لا يفتأ أن يلوم نفسه ويندب حظّه، ويعترف بفشله، فأفرط في التدخين.

كل ذلك انعكس على نفسيّتي، وأصابني نوع من الإكتئاب، وأطلق عليّ أبو رياض لقب محمد التعيس، بدل محمد الدغليس، هذا ما أخبرني به أبنائه، حتى ضقت ذرعاً بنفسي، وكلّما راجعت النقابة للسؤال عن طلب العضوية، يقرأ أبو محمد النصّ نفسه: «لم يجتمع مجلس النقابة، ولم يُبت في أمر طلبك، وأحسست أنه سئم من مراجعاتي، أعود إلى حيث كنت، وأزداد أسيّ وحسرة، منكسر الخاطر، حزيناً مسود الوجه.

وفي آذار من عام ألف وتسعمائة وثلاثة وسبعون، وفي ذاك اليوم الربيعي المشمس، مشيت طويلاً من العبدلي حتى مبنى مجمع النقابات، وقد عرض علي صالح أن يحملني بسيارته فرفضت، وخشيت أن يراني منكسراً إذا كان ردّ (أبو محمد) بعدم عقد اجتماع المجلس أو إذا تلقيت رفض قبول عضويتي.

وصلت النقابة، صعدت الطابق الثاني حيث مكتب (أبو محمد)، وأنا أمسح عرقِي من الاجهاد الذي عانيته ذاك اليوم، وقبل أن أسأله، وكأنه يزيح همّاً ثقيلاً عن صدره، ردد قوله:

- اجتمع مجلس النقابة وبحضور النقيب يوم كذا بتاريخ كذا، وبناءً على تسبيب لجنة العضوية فقد تقرر قبولك مهندساً معمارياً متدرباً، حسب أنظمة نقابة المهندسين الأردنيين.

- شكرته بسرور، وغادرت مكتبه سريعاً.

سمعتة يناديني: هذا كتاب قبولك رسمي، ابتعدت كي لا يرى دموعي، نزلت إلى الشارع العام، ومشيت حيث كانت توجد بناية اسمها الفيلا روزا، ذات قبة كبيرة تغطي قاعة تجري فيها نشاطات حفلات معارض فنية، ولها سور واطىء، يفصل حديقته عن الشارع الرئيسي، جلستُ على السور، وأطرقت رأسي بين يدي مستعرضاً شريط أحداث ربع قرن من الماضي، لم يخطر ببالي لحظتها سوى المآسي والمعاناة الشاقة التي حُظيت بها، بكيت بكاءً مرّاً، يخالطه الفرح والحزن، لحاضر أجهله أم لماضٍ رغبت في دفنه، لأبدأ من جديد بعد أن تحقق هدفاً كنت أنشده.

قمتُ مترنحاً، وعدتُ مشياً كما جئتُ، وهذه عادتي كلما أردتُ تهنئة نفسي أو أعاقبها، وصلتُ محل صالح غنيم، وجدته بانتظاري، تبسّمتُ بفرح ممزوج بالحزن، وأخبرته أنني أصبحتُ عضواً في نقابة المهندسين الأردنيين، فرح كثيراً، وهنأني باجتياز هذه المرحلة، قائلاً: الآن تستحق غداءً دسماً، فأصطحبني إلى مطعم القدس وسط البلد، وطلب وجبتي منسف.

غرائب المهنة وعقبات البداية



لم يمض يومان على تسجيلي في نقابة المهندسين، زار محل صالح غنيم شاب طويل القامة، محمّر الوجه، أنيق الهندام، سأله صالح عن مجال عمله، فأجابه أنه مهندس مدني، ويعمل في التعهدات، ولديه مكتب يمارس من خلاله مهنة الهندسة والتصميم أيضاً، سأله صالح:

- ألا تريد مهندساً جديداً يعمل معك.

- بلى، أريد مهندساً معمارياً.

تبسم صالح قائلاً:

- ها هو يقف بجانبنا.

تقدّمت منه وسلمت عليه قائلاً:

- أنا محمد دغليس، معماري خريج جديد.

- وأنا عبد المجيد درويش مهندس مدني.

لم يسألني سوى إن كنت مسجلاً في نقابة المهندسين، وطلب أن أرافقه إلى مكتبه، الذي لا يبعد عن محل صالح أكثر من مائتي متر، ويقع إلى جانب مديرية شرطة العبدلي، مكتب من غرفتين لشريكين اثنين، ومكتب ثالث داخلي يعمل فيه رسامٌ معماريٌّ نهاراً، وساعة المساء يقوم بصنع الشاي والقهوة للمعلّم وضيوفه، كان المهندس عبد المجيد قد عمل في وزارة البلديات، وله علاقات مع مهندسين ورسامين في أمانة عمان، وله زملاء من المهندسين جلّهم من خريجي مصر في تلك الحقبة.

جلسنا في مكتب عبد المجيد مع زميله، وقد سعدت بمعرفتهما، وما أن حلّ الغروب في المكان، وتسلسل عبر نافذة مكتب عبد المجيد حتى جاء ضيوفه وعرفت أحدهم موظف في أمانة عمّان، يحمل تحت إبطه لفّة من الأوراق، وضعها على الطاولة، قام المهندس بفتحها والاطلاع عليها، ومن ثم ختمها ووقعها بصفته مهندساً مدنياً، وطلب أن أوقعها بصفتي مهندساً

معماريًا، لم أتردد في توقيعها، ولم أقرأ مضمونها، وقبل أن يغادر المكتب دسّ عبد المجيد خمسة دنائير بيدي قائلًا: هذه حصتك من عمل اليوم، أخذتها وأكاد لا أصدق، وطرتُ إلى صالح غنيم أبشّره بأول الثمار.

مضى أسبوعان وأنا أجلس نهاراً في المكتب بصحبة الرسام المعماري، نرسم ما يطلبه منا المعلّم من تفاصيل إنشائية، وليلاً نصنع الشاي والقهوة للمعلم وضيوفه، ويأتينا في بعض الليالي من يُريد أن نوقع مخططاته لمشاريع صغيرة، مرسومة بقلم الرصاص على ورق الزبدة الشفاف، ومطبوعة على ورق الأمونيا الأزرق، وعلى الفور يناولني عبد المجيد حصتي ما بين ٣-٧ دنائير على كلّ مشروع، وذلك حسب مساحته، وبعد انتهاء العمل أغادر المكتب منتشيحاً سعيداً، على الأخص إذا فزت بالعشاء مع المعلّم وضيوفه، فهو يكرمهم باللحم المشوي على صحنون الحمص.

وكما يقولون يا فرحة ما تمت، فاجأني عبد المجيد بأن المعاملات التي وقعتها مؤخراً قد تم إيقافها في أمانة عمان بتعليمات من نقابة المهندسين الأردنيين؛ وذلك لأنني متدرب، ولا يحق لي التوقيع على المخططات الهندسية حسب النظام، حزنّت كثيراً، وقال المعلّم: روح دبرّ حالك معهم.

راجعت نقابة المهندسين للاستفسار عن موضوع التدريب هذا، فأخبروني أن الذي يبتّ في الأمر هو النقيب م. جعفر الشامي، وهو الآن في شركته الخاصة مبنى الكاتربلر على طريق الجامعة

الأردنية، ذهبت إليه في عجلة من أمري، قابلته وأطلعته على أوضاعي، ومدى حاجتي للعمل، وظروفي الصعبة التي أمرّ بها، فأجابني: إن هذا نظام قد وضعه مجلس النقابة، وهو واحد من سبعة أعضاء في المجلس، قلت: سيادتكم عرفت حالي وحاجتي، والأمر متروك بين يديك، ثم غادرت مكتبه؛ ومما أثار استغرابي أنه لم يدعني للجلوس، وبررت ذلك بوجود شخص آخر يجلس بحضرته.

كما بدا لي أن النقيب قد رُقّ لحالي وصعب عليه أمري، وبناء على تعليماته سُمح بمرور المعاملات التي وقعتها سابقاً، وسمح بتوقيعي على المعاملات اللاحقة، مما أتاح استمراري في العمل مع عبد المجيد درويش، الذي لم يكن بيني وبينه عقد عمل أو تحديد راتب شهري، لكنه يدفع أجره عملي عن كل مشروع نقوم به بخته أو تصميمه أو تخطيطه، دون أي اتفاق بين الطرفين، كنت راضياً بذلك؛ إذ لم يكن أمامي أي فرصة أخرى.

بعد شهرين من بداية عملي، صدر تعميم من النقابة بأن معاملات ترخيص الأبنية يجب أن توقع من ثلاثة مهندسين، المعماري والإنشائي والكهربائي، وبناءً عليه انضم إلينا المهندس الكهربائي سيف الدين الظاهر، وهو خريج جديد من الجامعة الأمريكية بمدينة كابل في أفغانستان، وهكذا أصبحنا مكتب هندسي يتألف من ثلاثة تخصصات، وصاحبه مقاول بناء، وكنا متعهدين بختم مخططات يُنجزها رسامو أمانة عمان، وأشهر هؤلاء (حنا اجحا)، ومهندسين من وزارة البلديات، وأذكر منهم: أحمد فارس

وأحمد درويش وغيرهما، وكان أبرز زوارنا الليليين المهندس وضاح العابدي والمهندس خليل بليسي والمهندس باهر بعيش، كنّا نتقاضى ثمانية عشر قرشاً مقابل كل متر مربع نختمه ونوقعه، يأخذ المعلم عشرة قروش منها، فهو صاحب المكتب، وحصتي خمسة قروش، وحصّة سيف الدين ثلاثة قروش عن كل متر مربع.

لاحظ المعلم أن لدي قدرات تصميم جيدة أتقنها خلال عملنا، وأصبحنا نأخذ بعض معاملات الترخيص للمكتب مباشرة، حيث يأتي بها المعلم، فأقوم بزيارة الموقع، وأخذ ما يلزم من قياسات وتصاميم ورسومات معمارية، ويتمّها الرسام أبو كايد بالإنشائية والكهربائية، ثم أحملها إلى مكتب في قاع المدينة لتصويرها ومتابعتها في أمانة عمان، وغالباً ما كنت أتنقل بين العبدلي والأمانة، حيث تقع بالقرب من المدرج الروماني ومكتبة العاصمة، أصلها سيراً على الأقدام، وفي حرّ قائنص. كنت أحرص أن لا يبلل عرق يدي الرسومات المطوية بشكل دفتر ويتغير لونها، هناك أسلّمها للقسم الفني، ويقوم عليه مهندسان اثنان فقط، وهما يدققان المخططات، وإن طلبا بعض التعديلات، أقوم بذلك، فهي أنا أحمل شفرة ومحاية حبر وقلم أزرق (بيج)، وأقوم بالتعديلات المطلوبة تحت أعين المهندسين، وكثيراً ما سمعتُ تهكمهما وكلماتهما النابية، وينعتاني بشيخ الختيمة، ونعتا المعلم بمختار الشلة. كان عبد المجيد قوي الشخصية، لا يهتمّ لأمر، كنت أتحمّل تعليقاتهما بألم شديد وصمت، فالمهم إنجاز معاملة الترخيص.

سكن منفرد وتشبث بالفرص



بعد أن توفّر لديّ مبالغ مالية متواضعة، صار لزاماً أن أستأجر سكناً أقيم فيه، فقد أثقلت على صديقي صالح، وقد طال بي المقام عنده، وبعد زيارة أقاربي في مخيم الوحدات، تشجّعت الأم واستأجرت لي غرفة مع حوش وسور عالٍ في حارة ضيقة من حواري المخيم بمبلغ خمسة دنانير شهرياً، ووضعت لي فراشاً بأرض الغرفة، لم أنم تلك الليلة، كانت غرفة موحشة جداً، شعرت

أنني في أعماق بئر مهجور، إذ لم يكن للغرفة نوافذ، لها باب على يطل على الحوش، وتنبعث من داخل الغرفة وخارجها رائحة كريهة جداً، ويخيّم عليها صمت رهيب، حقيقة شعرت بالخوف والقلق، فما إن بزغ الفجر بنوره حتى حملت الفرشة والوسادة والمفتاح إلى تلك المرأة الطيبة، وسامحتها بالأجرة التي دفعتها عن شهر كامل، وقررت المبيت في فندق الرياض وسط البلد.

لجأت إلى بيت أبي رياض قدري في حي الأشرية، فوجدوا لي غرفة على سطح أحد البنايات وأمامها فسحة مكشوفة، وفي أحد زواياها مرحاض وجزء من مطبخ، وأهمّ شيء أن للغرفة ثلاثة شبايك على ثلاث جهات، وسقف الغرفة مرتفع، وسطح يتسوّره جدار يتّصل بالحارة، وبياب حديدي، فيه عدد من الثقوب، وأظنّها ثقب رصاصات تركتها أحداث أيلول الأسود.

أحببت المكان جداً، فهو قريب من ثلاث عائلات من بلدي، وأبناءؤهم شباب أعمارهم تقارب عمري، وجيران في منتهى الطيبة، شعرت أنني أحد أفراد تلك العائلات الثلاث. ها هو الأب نايف البجالي من خيرة الرجال الذين عرفتهم، رجل شهيم مثقف، صريح القول والفعل، له زوجة من أنبل السيدات الفاضلات، بأناعتها وبهاء طلعتها وطيبة قلبها، ولهم أبناء وبنات يتصفون بطيبة وأخلاق أبيهما.

كانت هذه بداية استقرار حياتي في عمان، أمضي النهار في مكتب المعلم، الذي يحضر ساعة المغرب، فأمضي شطراً من الليل في

الرسم، وشطراً آخر للسهر مع الجيران والأقارب والنوم. انتسبت لمعهد اللغات الحديث في اللويبة لتقوية لغتي الإنجليزية، وبحكم لقائي اليومي بالمهندس الكهربائي سيف الدين الظاهر أصبحنا صديقين حميمين، فبعد انتهاء عملنا في المساء نطلق إلى وسط البلد مشياً على الأقدام، مروراً بجبل اللويبة، كان ولا زال من شوارع عمان الأكثر جمالاً وحيوية، نتسكع قليلاً، ونشتري سندويشة فلافل من (أبو محجوب)، ونسير إلى دوار (الحاووز) نزولاً إلى مستشفى لوزميلا، ونمرّ بسكن المرضات، حيث نسترق السمع إلى ضحكاتهن، كأنها تغريد العصافير، ومن خلال الأدراج المؤدية إلى شارع السلط وسط البلد نتابع سيرنا إلى سقف السيل، ونشتري من عربات الباعة على جسر الحمّام سندويشات الطحل أو الكبدة لعشائنا، ثم نفرق، يعود لبيت أهله في جبل المريخ، وأعود لغرفتي في الأشرفية.

كان سيف الدين الظاهر شاباً وحيداً لأهله، أنيقاً في ملبسه، وأكثر مني جرأة في التعامل مع الآخرين خاصة النساء، كان طلق اللسان، واثقاً من نفسه، يتحدث الإنجليزية بإتقان، وهو خريج الجامعة الأمريكية في كابل، وكان أبوه يلبي كل احتياجاته، واشترى له سيارة فيات حمراء اللون من الوكالة مباشرة، بعد عمله في المكتب بشهور قليلة، وأصبح بإمكاننا القيام بجولات واسعة في أحياء العاصمة عمّان، وفي جبل الحسين تقف السيارة ونتجول حول (دوار فراس)، وتتناول البوظة، وتتوفر سيارة سيف الدين تغادر يومياً ساعة الظهر، وهي فترة الغداء، إلى مجمع النقابات

المهنية، نجلس حول بركة السباحة المختلطة في أجواء مريحة، ثم تطورت ساندويشاتنا إلى الهمبرجر ومشروبنا إلى بيرة مثلجة، ولم تخلُ تلك الأيام من بعض المعاكسات الشبابة للصبايا في المسبح المختلط، فوصلت شكواهن لمدير المجمع، وتعهدنا بالالتزام واحترام المكان، وتعرّف صديقي سيف الدين على فتاة من عائلة مرموقة، ثم تزوجها.

لم نعد نمارس عادة المشي ليلاً من العبدلي إلى سقف السيل، بل نركب السيارة إلى جبل عمان، من الدوّار السادس نزولاً إلى الدوار الأول، نتسكع ما بين شارع الرينبو والمركز الثقافي البريطاني، جولّاتنا في السيارة تمنحنا السعادة والراحة التي لم نحلم بها في يوم من الأيام.

ذاعت شهرتنا من وراء تختيم معاملات الترخيص، وأصبح لنا زبائن دائمين، وتوسعت دائرة معارفي، فعرفت رجل لبناني في الخمسين من عمره، يُدعى سمعان تاورس (أبو سليم)، يتمتع بذكاء ودهاء، وله قدرة هائلة على سحر من يتعامل معه بحلاوة لسانه، وقدرته على الإقناع، بل أكثر من ذلك توريط الشخص المقابل في أحلام وردية، وبمستقبل مشرق، وحياة رغيدة، كأنه على مرمى حجر منها، يكاد يمسك بها بين عشية وضحاها.

جاءني به إبراهيم (سائق تكسي الجوفة) برفقة سكرتيّته، وأصبح إبراهيم سائقه الخاص وسكرتيّره، وقد أوهمه كما أوهم سكرتيّته أنهما سيصبحان من كبار الأغنياء، ويتقاسم مع إبراهيم

والسكرتيرة رغيف الخبز وقرص الجبنة في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود.

دخل أبو سليم المكتب الذي أعمل فيه أول مرة بصحبه إبراهيم الأسمر، ومعه مخطط أولي لإحدى الفلل الجميلة؛ ليقوم مكتبنا بإتمام مخططات المشروع وتصديقه وترخيصه، أعجبت جداً بالتصميم المميز، وبأسلوبه الساحر، من إطرء ووعود مغرية، وافقت دون تردد للتعاون معه، وكل هدفي أن أتعلّم من قدرات الرجل الإبداعية، حيث أخبرني أنه مهندس معماري، وصاحب مكتب معماري مرموق في بيروت، ولم يكن لديّ أدنى شك فيما يقوله، كان مصمماً معمارياً مبدعاً لم أرَ له مثيل من قبل ومن بعد، سألته عن سبب مغادرته بيروت والقدوم إلى عمان، وبلا حرج في سرد ما جرى معه بأسلوب لبق، وحياسة أدبية تجبر سامعه على الإصغاء باهتمام.

قال: مكتبه يقع في وسط بيروت، يستقبل شاب مراجعيه، ويفتح له باب السيارة، ويحمل حقيبته إلى غرفته، أحبّ الرجل سيدة مسلمة، وأحبته، وأعلن إسلامه ليتزوجها، لكن المارونيين أهدروا دمه، ولم يرَضْ أهلها بالزواج من ابنتهم، وثار غضبهم، مما أدى للقطيعة مع ابنتهم، فاضطر للخروج من بيروت بصحبة زوجته، والمجيء إلى عمان، واشترى قطعة أرض صغيرة في سفح جبل الجوفة، وبنى بيتاً، زرتة وتعرّفت على أم سليم، ولم ينجبا، وادّعى أبو سليم أن له ولداً يعيش في أمريكا، وهو مهندس معماري، ولم

يستطع أبو سليم فتح مكتب، فمارس مهنته، وقام بتصاميم معمارية لبعض معارفه، ويتولّى اتمام المخططات والترخيص، ويشرف على البناء، ويمضي أوقاته في المشروع أو في مقاهي وسط عمان، وأحياناً في مكاتب معارفه من المقاولين، وتعرّف على أصحاب الأراضي، فأصبح تاجراً، وسمساراً.

كان أبو سليم بعيد النظر، ذا ثقافة عالية، ومعارفه من الناس البسطاء قليلي التعليم، ويدرك أن عمان سيكون لها مستقبلاً رائعاً في بيع الأراضي والاتجار بها، وذات يوم نصحني قائلاً: لك يا بني جاكيتك الذي تلبسه بيعه واشتري متر أرض في عمان.

التقي بأبي سليم كثيراً في مقاهي وسط البلد، وفي مكاتب المتعهدين، حيث يقابل أصحاب الأراضي من الشيوخ، هناك يسهل اصطيادهم، وأخذ أبو سليم وسائقه وسكرتيه إبراهيم يترددان إلى مكتبنا في العبدلي.

طرحنا آنذاك - بلدية السلط مسابقة معمارية لتصاميم مركز المدينة الجديدة مع مبنى البلدية وأسواقاً تجارية تابعة لها، كنت في غاية الحماس للمشاركة في أي مسابقة معمارية، وأخبرت (أبو سليم) برغبتي، وشجّعني على المشاركة، وطلب مني الحصول على جميع وثائق ومتطلبات المسابقة، وباشرنا العمل سوياً في المكتب ليلاً، حيث نمضي ساعات طويلة في العمل المشترك، وكان أبو سليم بارعاً جداً في ابتداع الأفكار، وأترجم أفكاره برسومات هندسية ذات مستوى عالٍ، مما عمّق محبتي لذلك

الرجل، إذ لمست عنده قدرات تصورية معمارية لم أجدها عند غيره، ولا أيام دراستي في الجامعة، وهو مُعجب بقدرتي على الرسم والصبر والجلد بلا كلل أو ملل، نعمل في المكتب حتى منتصف الليل، وأحياناً ننام على المقاعد حتى الصباح، وبعلم المعلم، ولم يبدِ أي اعتراض، وفي الليل يذهب إبراهيم ويحضر لنا الطعام من مطعم هاشم، وأحياناً يغادر المكتب لننام في غرفتي في الأشرفية، رغم ضيق المكان، ولا يعترض أبو سليم على شيء.

أنجزنا خلال وقت قياسي المشروع بمنتهى الروعة، وفي قمة الحداثة، ويصلح مشروعنا لمركز مدينة في دولة متقدمة، وأخرجه إخراجاً فنياً جميلاً ومتقناً، حتى بدت لوحاته كأنها سجادة عجيبة، ولقلة خبراتي لم أدرك أن هذا المشروع بحداثته لا يتناسب مع مدينة السلط التاريخية، ولا مع الامكانيات المادية لبلديتها، وهو مكلف مادياً، وأكبر من طموحات البلدية، فهذا المشروع الذي يشبه مشاريع (زها حديد) حالياً، فهو يناسب لوس أنجلوس أو باريس، لهذا لم نفز بالمسابقة، رغم إعجاب لجنة التحكيم وانبهارهم الشديد، وظنّت اللجنة أننا مجانين أصحاب ترف فكري.

تعمقت صلتي بـ (أبو سليم)، وعلمت أنه مطلوب للشرطة، لذا لا يذهب إلى بيته ولا ينام فيه، ويقيم في مكتب العمل وبيتي، ولا أعرف سبباً لذلك، فقد غافل الناس وضحك عليهم، كما عرفت لاحقاً، ومن فرط ذكائه وحسن حديثه وحلاوة لسانه سحر كل من

جالسه، وأقنعه بأنه سيصبح مليونيراً، فتعلق به الطامعون، وضاعت أموالهم، ولم يف أبو سليم بوعوده، وتبخرت أحلامهم، وسيارة إبراهيم والسكرتيرة كانوا طعماً يصطاد بواسطتهم الطامعين من كبار السن أصحاب الأراضي، برغم ما عرفته كانت صحبته ممتعة مسلية، وسقطت كما سقط الآخرون، فأخذ مني ما أملك، أخذ مئتي دينار ليشتري بها أرضاً، ضاعت الأحلام الوردية.

أذكر أنه جاءني ورجل كبير السن قليل الخبرة طيب المظهر، يدعى حنا أبو جابر، وطلب أن أوقع معه عقداً لتصميم سوق تجاري ودار سينما على أرض أبو جابر التي تقع جنوب عمان، وصاغ العقد أبو سليم، ووقعت وأبو جابر بشهادة (أبو سليم)، وباشرت العمل بعد معاينة موقع الأرض، لكن فوجئت أن حنا أبو جابر يملك الأرض ولا يملك عشرة قروش، ويتنظر إرثاً كبيراً ليمول مشروعه، طالبت (أبو جابر) بمبلغ أربعمئة دينار لقاء عملي، فاقترح أبو سليم أن أرفع قضية بتوكيل محام من أصحابه، وبعد إنذار المحامي لـ (أبو جابر)، عرض عليّ دونم أرض بالقرب من محطة الشاطر حسن على طريق عمان العقبة بدل أتعابي، لكنني رفضت عرضه لأسباب إنسانية، وهكذا فقدت حقي بالقضية، وكان المستفيد الوحيد (أبو سليم).

في ذاك الوقت أقنعني المهندس سيف الدين الظاهر أن نعرض مطلبنا على المعلم عبد المجيد بزيادة ما نتقاضاه مقابل عملنا، وأن يتم بعقد عمل رسمي، وأن أتحدث بلسان الجميع، جمعت ما

أملك من شجاعة، فاتحت المعلم بما اتفقنا عليه، فتغيّر لون وجه المعلم، وبرز أمامي وجه آخر لم أره من قبل، قال بقسوة: أعاملك كشريك في مكثبي، وتتقاضى مبلغاً كبيراً، احمد الله أنني حميتك من الضياع في الشوارع، ومن ذاك اليوم تغيّرت علاقتي بالمعلم، وأصبح العمل لا يُطاق، ورغم ذلك فقد كان انساناً صادقاً.

زيارة غالية وتسارع الأحداث



وصلني خبر أن شقيقتي فاطمة وختام ستزوران عمان، قبل نهاية الصيف، استأجرت شقة أرضية، مؤلفة من غرفتي نوم وتوابعهما في حي الأرمن بالمصدر، وهو أحد أحياء الأشرفية، قريب من الصديق الفنان الموسيقار عازف الكمان والعود خضر الترتير، رغم عدم ألفتي للمكان، فقد دفعت أجرة البيت عشرين ديناراً شهرياً، وجهزت غرفة وحاجيات المطبخ في انتظار شقيقتي.

غمرتني الفرحة بلقائهما، اصطحبتهما إلى مطاعم ومنتزهات في مدينة الرصيفة، هذه أول رحلة لهن خارج سلفيت، ودعانا صديقي سيف الدين إلى بيته، وقمنا برحلات سياحية قصيرة بسيارته الخاصة، واستضافنا المعلم عبد المجيد في بيته على غداء مميز، وبعد الغداء اصطحبنا في جولة حول عمان، حيث تنتشر القصور والفلل الفارهة في ذلك الزمان، غمرتنا السعادة في ذاك اللقاء التاريخي.

جاءت الشهور الاخيرة من ذاك العام حافلة بالأحداث والمتغيرات المتلاحقة، وكأنها إيداناً بحقبة جديدة من حياتي، ارهاصات لما هو قادم بحلوه ومرّه، وضعتني على عتبة اختيار إجبارية، ضباية وغير مضمونة العواقب.

قبل نهاية الصيف أصدرت نقابة المهندسين نظام المكاتب الهندسية بشكل رسمي، وعممته على كافة الأعضاء، ومن الشروط الهامة أنه لا يجوز لأي عضو ممارسة المهنة إلا من خلال مكتب هندسي مسجّل في النقابة، وله رقم هندسي خاص به، كلّ حسب اختصاصه، ولا يجوز بشكل قطعي أن يجمع بين العمل في قطاعين مختلفين في الوقت نفسه، أي أنه من غير المسموح العمل في حقول المقاولات أو الوظائف الرسمية والحكومية والجامعات، والعمل في حقل الاستشارات الهندسية، حيث أن معلّمنا صاحب المكتب كان مقاولاً، فانفرط عقدنا، ولم نستطع العمل في مكتبه، وفي الأصل كان متعهداً ناجحاً، ولم يكن معنيّاً بأي حال من الأحوال

أن يتحوّل إلى مكتب هندسي استشاري؛ لأن مداخل المقاولات أضعاف ما يمكن أن تدرّه الدراسات الهندسية.

أخذت في البحث عن مصدر رزق جديد، ولم أكن أرغب بالوظيفة حينها، هذا إن توفرت الوظيفة، وهي نادرة ولها أصحابها، لم يكن أمامي سوى تأسيس مكتب هندسي خاص، لكنني بحاجة لمن يعينني على ذلك، فلم أكن معروفًا، ولا يوجد لي زبائن من الممكن أن أعتمد عليهم، وأيضًا بحاجة لتخصص إنشائي مع المعماري، ومن باب المصادفة أنني راجعت طبيب أسنان يدعى خالد حمشاوي؛ لمعالجة آلام داهمتني في أكثر من ضرس، وأثناء حديثنا علم أن قريتي سلفيت، فأخذ يحدثني عن زملائه الشيوعيين من أهل قريتي، وعن سجنهم في الجفر الصحراوي، وعلم أني معماريٍّ أبحث عن وظيفة، اقترح أن أفتح مكتبًا هندسيًا بمشاركة شقيقه عادل حمشاوي، وهو مهندس مدني خريج روسيا، راقى لي الفكرة؛ لأن هذا ما أبحث عنه، التقيت المهندس عادل، وقررنا فتح مكتب هندسي مشترك، وتسجيله في النقابة حسب الأصول، وفعلاً حصلنا على ترخيص مكتب اسميناه (الرائد الهندسي)، ورقمه ٢ في سجل المكاتب الهندسية.

بحثت عن مقر للمكتب في شارع الشابسوغ أو في شارع بسمان وسط البلد، وقبل أن نعر على مكان مناسب جاءنا كتاب من نقابة المهندسين برفض طلبنا، وإلغاء تسجيل المكتب؛ بسبب أن أحد مؤسسيه، وهو المهندس المدني عادل حمشاوي، يعمل مدرّسًا

بدوام كامل في معهد وادي السير التابع لوكالة غوث للاجئين، ولم يكن أمامي إلا الاحتفاظ بالمكتب، وباسمي فقط، أو البحث عن شريك جديد، كان قرار النقابة مزعجاً، لكنه لم يؤلمني كثيراً، فلم أكن أعرف شريكي جيداً، ولم يخبرني أنه موظف، ومن خلال اجتماعاتنا القليلة خرجت بانطباع أنني لن أتوفق بشراكته.

بحثتُ عن وظيفة لأول مرة في حياتي العملية، أي وظيفة أعتاش منها، لعلَّ الله يجد لي مخرجاً، وقدمت طلباً عن طريق المهندس عادل حمشاوي لمعهد وادي السير، للعمل مدرساً لطلبة الدبلوم الهندسي، وفعلاً تم قبول طلبي، وأخبروني أن البت في الوظيفة بشكل نهائي يحتاج إلى ثلاثة أشهر على الأقل، في الوقت نفسه أعلنت وزارة الصحة عن حاجتها لمهندسين، لمتابعة صيانة المباني العائدة للوزارة، وتقدمت بطلب، فوجدوا أن الطلب ينقصه شهادة ميلاد حديثة الصدور، رغم وجود شهادة قديمة، ومن أين لي بشهادة حديثة، وأنا مواليد سلفيت في الضفة الغربية المحتلة؟! فلم يكتمل الطلب، وفي الأصل ليس لديَّ رغبة في الوظيفة، وإن كانت فرصة للعمل والعيش.

فوجئت في نهاية عام ١٩٧٣ بكتاب من نقابة المهندسين يطالبني بدفع ثلاثة آلاف دينار، وذلك رسوم النقابة عن مجموع المعاملات الصادرة من مكتب عبد المجيد درويش، بصفتي المهندس المعماري صاحب المكتب، وإلا يتم توقيفي عن العمل نهائياً، اطلعتُ عبد المجيد على القرار، فلم يولِ الموضوع

اهتماماً، علماً أن ما تقاضيته عن عملي في المكتب عامّاً كاملاً لا يعادل هذا المبلغ، قال عبد المجيد: أنا مقاول وفي غنى عن نقابة المهندسين، ولا أريد أن أعمل في القطاع الاستشاري، وعليهم منعي من ممارسة المهنة الاستشارية، وقال بتهكم يشاركه ابن عمه أحمد درويش: ولا يهّمك سنزورك إن شاء الله في سجن المحطة، ونحمل معنا عيش وحلاوة.

راجعت النقابة مصطحباً معي شهادة صادرة من مكتب عبد المجيد أنني أعمل متدرباً في مكتب عبد المجيد درويش، لكن بلا جدوى، أيقنت أنهم لا يستطيعون تحصيل المبلغ من عبد المجيد، ولا يريدون غضبه، وفقد صداقته في مجلس النقابة، وأنا الحلقة الأضعف، ومضطر لممارسة المهنة، سواء في مكتب هندسي أو العمل موظفاً، وبعد مراجعات كثيرة، قرروا تقسيط المبلغ بقيمة خمسين ديناراً شهرياً، سددت القسط الأول مضطراً للحصول على عمل.

العودة الميمونة



في مطلع عام ١٩٧٤ وصلني خبر أن أمِّي جاءت إلى عمان زائرة، وإنها تقيم عند صالح غنيم في العبدلي، بعد تناول العشاء في بيت صالح عدت وإياها إلى شقتي في حي الأرمن بالأشرفية، وقبل أن تستريح أخرجت من بطانة ثوبها (عبّها) كيس بلاستيك فيه أوراق، ناولتني إياه، فتحت الأوراق وقرأتها، تصريح دخول إلى

الضفة الغربية، ومعه أوراق (لَمْ شِمل) العائلة في قريتي سلفيت، والعمل مهندساً في بلديتها.

لاحظت أمي شروء ذهني، ولم أكن فرحاً بهذه المفاجئة، مما أحدث انقلاباً دراماتيكياً في كل خططي وتقديراتي، فقد اعتدتُ الحياة في عمان، وإدارة شؤوني بنفسي، ولديّ آمال كبيرة في المستقبل، لم يطل الصبر بأمي، فقالت بحزم:

- اسمع يَمّا، الله يرضى عليك، حصلت على التصريح بعد أن ترجّيت رئيس بلديتنا حسن الزير، جزاه الله خيراً، وعمل قصارى جهده ليعيدك إلينا، إحنا بأمس الحاجة إلّك، والرجل لم يقصر، بارك الله فيه، وتحمل مسؤوليتنا على اكمل وجه، وأنا يا يَمّا كبرت وتعبت، وأخواتك كبروا واصبحوا في سن الزواج، ولا أستطيع الاستمرار في تحمل المسؤولية، ولازم تيجي معي، وليكن في معلومك مش رايح أرجع بدونك، مهما كلفني الأمر، حتى لو عدت لتحرق الأرض وتلقط الزيتونات، وتنسى الهندسة، فوجودك معنا أصبح أهم عندي من كل شي.

لم يكن باستطاعتي الرضا أو التردد، شعرت بما تحمله من همّ كبير، وعدم قدرتها على تحمل المسؤولية، وأثقلنا كاهلها، ولم نعد نقوى على غضبها أو عنادها، فهي تستحق الطاعة والاحترام لطيب قلبها ولطف تعاملها وحرصها علينا، عدتُ مع أمي الكريمة في اليوم التالي مباشرة إلى موطني، وبعد تجاوز المعاملة المهينة على نقطة العبور من الصهاينة وصلنا سلفيت مساء، كان وجه أمي يطفح بالفرح، فقد تحقّق ما تتمناه.

ما أن وطئت قدماي تراب بلدي، حتى اعتدل مزاجي، وتنفست بعمق هواء وطني، احتضنت الإخوة والأخوات والعمات والخالات، أحسست حرارة اللقاء، عدتُ أحياءاً يوماً مع أصدقاء الطفولة، اختلس النظر إلى وجه أمي الذي ازداد نضارة، وبسمتها تقطر عسلاً و عذوبة، وهو ما عمق إحساسي بالفرح والسرور، ونما في داخلي إيمان بأن الله تعالى يريد أن يحقق لي أمنية طالما حلمت بها، ألا وهي أن أعمل في خدمة أسرتي وقريتي، بين الأهل والأصحاب.

كنت اتوقع صعوبة العمل في بلدي، في مهنتي التي تلامس احتياجات أهل بلدي جميعاً، الغريب والقريب، المحب منهم والغيور المبغض، لكن لم يخطر ببالي أن أواجه حركة مشكوك فيها في اليوم الثاني من وصولي، إذ جاءني رجلان بحجة السلام علي، أحد أعمامي والثاني مختار حارتنا، وتحدثا عن تصرفات رئيس البلدية السيئة، وحذراني منه في حال عملت مهندساً في البلدية، وأوحيا أن أقدم له هدية كبيرة لقاء عمله لي، لم أقنع بكلامهما، وأحسب أن وراءها أمراً مريباً، فالرجل في موقع المسؤولية وفي دائرة الضوء، ولعل الغيرة والحسد أخذاً منهما كل مأخذ، ويعرف أهل القرية أن رئيسها قد حافظ على البلدة وتأمين احتياجاتها في أصعب ظروف الاحتلال، منذ بداية عمله حاز على سمعة طيبة، ويكُن له الاحترام العدو قبل الصديق.

جاء بعد يومين رئيس البلدية حسن الزير بهيئته المعهودة وأناقته الدائمة وحديثه الممتزن، وهنأني بالسلامة، وقال:

- نهني أنفسنا بعودتك الميمونة، ومن أهم أهدافي أن أعيد أبناء بلدي المتميزين إليها، وها قد وفقنا الله وأعدناك إلى بيتك، ولم يكن أمامي سبيل إلا أن أطلبك عن طريق الحكم العسكري مهندساً للبلدية، وعدت إلينا، ولك الحرية الكاملة إذا رغبت في العمل معنا، فأرحب بك مشكوراً ضمن كادرنا المتواضع، أو أن تعود حيث أتيت، وعليك أن تتسلم هويتك الشخصية، حيث تستطيع السفر والعودة في أي وقت تشاء.

- يشرفني ويسعدني أن أكون إلى جانبك في خدمة هذا البلد الفتي الجميل.

لم تمض عشرة أيام بعد لقائنا حتى وقعت عقد العمل، واستلمت كتاب تعييني في اليوم نفسه، كأول مهندس في سلفيت، ويعمل بدوام كامل، وراتب مقداره خمسون ديناراً أردنياً شهرياً، تعرّفت على محاسب البلدية وسكرتيرها السيد عبدالله القزق، ومررت بمكتب الرئيس وشكرته على جهوده، وطلبت منه طلباً وحيداً أن يسمح المجلس البلدي بأن أفتح مكتباً هندسياً خاصاً، أعمل فيه خارج أوقات عملي في البلدية، لأعمل مخططات أبنية لأهل سلفيت ومحيطها، كي أعيش حياة كريمة، وأسدد مصارفي واحتياجات أهلي، فالراتب لا يكفي، في حين يتقاضى العمال الفنيون الذين يعملون داخل الخط الأخضر يومياً ما يعادل راتبي الشهري من البلدية، وافق الرئيس شفهيّاً وشكرني وتمنّى التوفيق في عملي وخدمة أهل بلدي، وأوصاني بالمحافظة على سرّية ما

يدور في جلسات المجلس البلدي وقراراتها، وسأصبح سكرتير المجلس للشؤون الفنية، وطلب مني أن يبقى باب غرفتي، التي تقع في الجهة المقابلة لمكتب الرئيس مباشرة مغلقاً، إلا إذا جاءني أحد المراجعين ضمن اختصاصي، وهذا ما كنت أريده أيضاً، والتزمت به تماماً.

أصبح لي مكتب متواضع، وفيه آلة تصوير مخططات، وهو عبارة عن صندوق خشبي مؤلف من طبقتين، في العلوية منه لمبات فلورسنت، وفوقها لوح زجاجي لوضع المخطط المراد تصويره، وفي القسم الأسفل من الصندوق أضع زجاجة من الأمونيا لتحميض المخططات المصورة ببخار الأمونيا، الذي يحولها إلى اللون الأزرق.

يحضر فنجان القهوة حال وصولي صباحاً، أو إذا زارني ضيف، نتحلّق مائدة الفطور المشترك، وغالباً ما يكون من الحمص والفول والفلافل، وعددنا ثمانية موظفين بما فيهم المراسل والسائق.

خدمات جليلة وخطوات جريئة



ما بين بيتي ومكتبي كيلو متراً واحداً، ألبس أحسن الثياب وحذاء
لامعاً، أتأبط حقيبة أنيقة تحتوي على أوراق و مخططات، أمشي
متهادياً من أقصى شرق البلدة إلى غربها ذهاباً وإياباً، أستعرض
مجرد وصولي ما هو مطلوب من الكشوفات والمتابعات،
وأحضر ما يلزم من كتب وتوصيات، وتدقيق ما سيتم عرضه على
أعضاء المجلس، من مهمات تتعلق بالتراخيص، والتنسيب لهم

بملاحظاتى على التقيد بأنظمة البلدية وقوانين التنظيم المعمول بها، وبعد تناولي الفطور المشترك مع الزملاء الموظفين أقوم بجولة على الأبنية الجديدة، والكشف على مواقع التنفيذ، والتأكد من الالتزام بشروط الترخيص وتطبيق المخططات المصادق عليها، كل ذلك مشياً على الأقدام، إذ لم يكن في البلدية سوى شاحنة واحدة وسيارة للرئيس، مع ذلك كنت أشعر بالتميز والاعتزاز بالنفس والسعادة؛ لأنني أصبحت في دائرة اهتمام الناس، وموضع تساؤل ممن لا يعرفني، من هذا الشخص الجديد الأنيق، لمست هذا من كبار السن ومن الأجيال الشابة الجديدة، مما عمق ثقتي بنفسي وحضورى، وتلك الفتيات اللواتي كنّ لا يعرّني انتباهاً أيام مدرستي يزررنا في البيت، ويتصنّعن صداقة أخواتي وأقاربي، وقد نضجن وأصبحن أجمل من ذي قبل، فهنّ في سن الزواج، لعل الدافع طموحات مخفية، تنمّ عن تصرفاتهن واهتمامهن، وبعض السيدات المتزوجات أصبحن أكثر لطفاً وترحاباً وإطراءً، يثرن في قلبي سعادة وفرحاً يزيدني نشاطاً وتألّقاً.

المشروع الأهم الذي له الأثر الأكبر لمستقبل البلدة تنظيمياً والضابط لإيقاع تطورها وتسهيل خدماتها هو المخطط الهيكلي للقاعدة الأساسية التي تُبنى عليها كل المشاريع التنموية الحضارية لأي تجمع مدني، من القرية إلى المدينة إلى الإقليم، هذا ما وجدت بلدية سلفيت قد ابتدأت بإعداده، وبمبادرة من الرئيس حسن الزير.

تمّ إعداد المشروع بشكل أولي من قبل مكتب هندسي استشاري مركزه تل أبيب، وقت تسلمي مهام الوظيفة، والمكتب

الهندسي من المكاتب العالمية المتخصصة في تنظيم المدن لصاحبه المعماري (موشي رفيد)، وكان الرئيس من الذكاء بحيث اشترط عليه في العقد مع البلدية أن تدفع الأتعاب المتفق عليها بعد الموافقة النهائية على المشروع من قبل مجلس التنظيم الأعلى للدولة المحتلة، فهي الجهة المسؤولة عن الشؤون العامة للضفة الغربية، حيث سيتم توسيع حدود البلدية لأقصى ما يمكن، تلافياً للاستيطان الذي يهاجم الأراضي خارج حدود البلديات ومسارات الشوارع العابرة للأقاليم، مثل عابر السامرة، كان توسع حدود البلدية من أهم أهداف التنظيم، لهذا كانت موافقة مجلس التنظيم الأعلى في الدولة صاحبة القرار ضرورية من أجل ترخيص المشروع والسير في خطوات تنفيذية دون اعتراض السلطات، ومن الممكن عمل مشاريع تنمية كهربائية وصحية بعد الموافقة عليه واعتماده والطلب من السلطات المسؤولة التمويل الضروري لمثل هذه المشاريع، وفتح الشوارع والطرق الداخلية حسب المخطط النهائي المعتمد.

سألت رئيس البلدية لماذا لم يتم إحالته على أحد مكاتب التنظيم العربية؟! فقال: إن مثل هذا التخصص الهندسي لم يكن متوفراً في الضفة الغربية، وتم دعوة المهندسين العرب لتقديم عروضهم والقيام بالمهمة، فلم يتقدم سوى عرض واحد، ولم يكن مقنعاً للبلدية، إضافة أن اعتماد من سيقوم بتقديمه والموافقة عليه وإجازته سيكون صعباً جداً من قبل دولة الاحتلال.

مرّ المخطط في مراحلہ الأولى، التصوير الجوي والمخطط الطبوغرافي، وتثبيت المباني القائمة والشوارع القديمة، ومن ثم المخطط الأولي لتوزيع المناطق السكنية، واعترض سكان قريتي على المخططات قبل بدء عملي شهرين.

ونظراً لأنه مشروع غير مسبوق، وتحت دولة محتلة كان التنظيم يحتوي شوارع عريضة يصل عرضها ثلاثين متراً في وسط المنطقة التجارية، وأصغرها اثني عشر متراً، وتم إغلاق البلدة القديمة، ومنع البناء الجديد فيها، حفاظاً على طابعها التاريخي، ولاقى المخطط الهيكلي معارضة شديدة من قبل من أهل البلدة، وشكّلت حملة رافضة له مبدئياً، وبلغ عدد الاعتراضات الخطية أكثر من مئتي اعتراض مكتوباً، وخاصة من ملاكي الأراضي التي تتأثر بالتنظيم الجديد، ولم تتأثر البيوت القائمة عدا بيت واحد فقط، وقع في منتصف الشارع الرئيسي، فكان مشار إليه بالإزالة، وحسب القوانين الدولية بالتعويض الكامل لكل متضرر.

وفي الجلسة الأولى التي حضرتها مع المجلس البلدي خصصت لمناقشة الاعتراضات على المخطط الهيكلي، وتقدّم الرئيس باقتراح أن يقوم المهندس بدراسة كافة الاعتراضات المقدمة، وكتابة الردّ عليها، والتعليق على ما هو مقبول منها، وتقديم الحلول الهندسية البديلة للمقترح الجديد، وقد استحسن أعضاء المجلس الاقتراح، ووافقوا عليه بلا تردد، ولعلّ الرئيس أراد توزيع المسؤولية، وتخفيف الضغط عليه من قبل أعضاء

المجلس ونقاشاتهم الطويلة، ومن تعليقات الناس أيضاً، لهذا أشركني بالدور الرئيسي للمشروع التطويري المستقبلي للبلدة، هذا لم يزعجني، بل أسعدني؛ لأنه في صلب تخصصي، ويستجيب لأمنيتي أن أخدم أهل بلدي في حاضرهم ومستقبلهم.

درست جميع الاعتراضات بتجرد وبجهد كبير، وقمت بتدقيق فني هندسي موضوعي، واستدعيت بعض المعارضين لسماع رأيهم، ولم يكن في ذهني سوى المصلحة العامة للبلدة وأهلها، وكتبت تعليقاً على كل اعتراض، ونسبت للمجلس برد الاعتراض أو الموافقة عليه، وبالتعديلات المقترحة لتنفيذ ما جاء بالاعتراض الموافق عليه، بما لا يتعارض مع المصلحة العامة، والتطور النموذجي المرجو مستقبلاً، وليس فيه ضرر بالمصلحة الخاصة للناس، ولم يكن حاضراً في تصوري إلا الالتزام المهني الحقيقي، دون أي محاباة لأحد حتى لو كان أخي.

وبعد أسبوع من عقد الجلسة الأولى اجتمع المجلس في جلسته، وتم اطلاع الأعضاء على الاعتراضات كافة، وما عليها من توصيات وتعليقات، والرأي في كل منها، مما أثلج صدري أن المجلس البلدي بالإجماع، وقد أيد كل ما ورد من تنسيباتي على الاعتراضات دون تعديل يُذكر، وتم توجيه كُتُباً رداً على المعارضين، والإجراءات التي تم اتخاذها حول اعتراضاتهم، وأثبت أهل سلفيت أنهم حضاريين، وغير موتورين، ومتسامحين عند الضرورة، فلم يحدث أي رد فعل سلبي مزعج من أي منهم.

وبناءً على ذلك قمت بمرافقة الرئيس في زيارة إلى مكتب المهندس المصمم في تل أبيب، وتسلم كافة الملاحظات والتعديلات المطلوبة، بناء على اعتراضات المواطنين الموافق عليها، ليقوم هو بما يلزم حسب الأصول، وأثنى المصمم الخبير على الأسلوب الحضاري الفني الذي قام به مهندس البلدية، وإجراءاته و تنسيباته، وقال معلقاً: يا ليت كل البلديات تحذو حذوكم، ولديها مهندس معماري يعرف مهنته جيداً، وبعد يومين زار البلدية وفد من التلفزيون، وكان عليّ أن أظهر على الشاشة لأول مرة في حياتي، وأشرح المخطط الهيكلي، وأتحدث عن حاجة البلدة لهذه الخطوة التقدمية.

منذ تسلمي للوظيفة قمت بترتيب كافة الوثائق، وأرشفة جميع معاملات الترخيص والمخططات التابعة للقسم الهندسي الذي أنشأته، وثبتت أرقام متسلسلة حسب تواريخ إصدارها منذ خمسينيات القرن العشرين، وفتح ملف لكل معاملة، ليصبح أساساً ومرجعاً لمن سيأتي بعدي.

وبناءً على موافقة البلدية قمت بفتح مكتب هندسي خاص في أحد المحلات التجارية، وعملت له ديكوراً بسيطاً، حيث لم يكن في سلفيت والقرى المجاورة والبلدات المحيطة أي مهندس معماري، وظفت شخصاً يفتح المكتب أثناء دوامي الرسمي، وفي المساء أقوم بعمل التصميم والمخططات التي يكلفني بها أهالي القرية، وكانت جلّها بيوتاً صغيرة، لا يتجاوز مساحتها

المثني متر، كنت مضطراً لعمل الدراسات المساحية والمعمارية والإنشائية والكهربائية والصحية ومخططاتها؛ فلم يكن هناك مهندسون مختصون بتلك الأعمال، مما استدعاني لدراسة ما أعرفه من أنظمة وقوانين التصميم الإنشائي، وحساب الحديد اللازم للمباني بشكل علمي، كي لا أقع في مشكلة تنفيذية، قد تدمر سمعتي، استطعت بفضل الله أن أطور أسلوب البناء في البلدة، بما يتناسب مع روح العصر وجماليات العمارة الحديثة واحتياجات الناس، مما حاز على إعجاب الأهالي، وقوى ثقتهم بي، لم تتوقف نشاطاتي الخدمية التصميمية في حدود سلفت، بل أصبحت أقوم بعمل مخططات وتصاميم لجميع القرى المجاورة، أذهب إلى المواقع خارج البلدة مستعيناً بأحد موظفي البلدية الذي يملك سيارة خاصة، أدفع له نصف دينار لقاء عمله، ينتظرنى حتى أقوم بالقياسات اللازمة، وتثبت حدود الأرض لإنشاء البيت عليه، وعمل دراسة أولية لمتطلبات الشخص الراغب في البناء، بعد اتمام مخططات الترخيص، وعند تسليمها للمالك، أتقاضى كامل أتعابي وهي بحدود عشرين ديناراً عن كل مشروع أقوم به.

أصبحت فعلاً المهندس والمساح، وأحياناً الإداري، ورجل إصلاح لكل الأعمال الهندسية والفنية والمساحية في البلدة ومحيطها، وإذا أراد شخص شراء أرض للبناء أو بيعها يتم تكليفي بمسح الأرض وبيان مساحتها بالمتر المربع، وواجهتني مشكلة أن الأراضي غير مفروزة، وليست منتظمة الشكل، وحدودها غير واضحة، وعادةً ما تكون حدودها إما سلسال حجري وإما حدّ

حراثتها، وقد كانت تلك مهمة صعبة، إذ كنت مضطراً لقياس أضلاعها الخارجية، والأوتار بين الزوايا، لتحويلها إلى مثلثات يمكن حساب مساحة كل مثلث عن طريق أبعاد أضلاعه حسب القانون المعروف.

تكون مساحة الأرض هي مجموع مساحة المثلثات، أي أنها عملية حسابية طويلة، وأكثر ما أتعني إخراج الجذر، وسمعت آنذاك بوجود آلة حاسبة في إحدى المكتبات، اشتريتها بمبلغ عشرين ديناراً، ولم أصدق أن كل تلك العملية الحسابية في كبسة زر، فرحت بها كثيراً كطفل وجد لعبة جميلة، وبعد أن استعملتها لأول مرة خبئتها تحت وسادة نومي.

كل ذلك لم يمنعني من ممارسة مهنة الآباء والأجداد في مواسم قطاف الزيتون أو حراثة الأرض، كنت أقوم بأعمال الفلاح بالتعاون مع أخي نايف، نحراث الأرض، ونقطف الزيتون، غادرنا أبي إلى البرازيل، ورغب في سفر العائلة هناك، وبعد أن أجرى ما يلزم من استعدادات سفرهم، وحجز تذاكر الطيران، تعرضنا لخدعة من أحد نصابي مكاتب السياحة والسفر في نابلس، وتم إعادة العائلة من مطار اللد في فلسطين، وألغيت فكرة سفرهم، مما اضطر أخي نايف بمتابعة الموضوع وسفره منفرداً إلى البرازيل، عن طريق الأرجنتين، ومن هناك دخل بيلوتس في جنوب البرازيل، وبقيت وحيداً لتدبر شؤوني وشؤون أمي وأخوتي، وتأمين حياة كريمة لهم.

قام المصمم بعمل التعديلات المطلوبة وإعداد مخططات هيكلية للشبكة الكهربائية وشبكة المياه والمجاري على ضوء الشوارع الهيكلية والمناطق التنظيمية المعتمدة في المخطط، الذي يعتبر الدستور التنظيمي لتطور البلدة في المستقبل القريب والبعيد، وبعد موافقة المجلس عليها قام المصمم بما يلزم من طلبات التصديق من قبل السلطات المسؤولة والاجراءات النظامية والقانونية المتبعة في مثل هذه المشاريع الهامة، وبعد إنتهاء هذه المراحل يتمّ تحديد يوم مناقشة المشروع من أعضاء مجلس التنظيم الأعلى في مركز قيادة الإدارة المدنية للضفة الغربية، المسمّى (بيت إيل) قرب رام الله.

في قاعة واسعة تشبه المسرح جلس في الصف الأول مجموعة من الوزراء والفنيين، الذين لهم علاقة بالمشروع، وعرفت منهم المهندس (شلومو خياط) الضابط المسؤول عن الشؤون التنظيمية في الإدارة المدنية للضفة الغربية، وهو من اليهود المصريين، ودرس في الجامعة المصرية قبل هجرته إلى الدولة المحتلة، وكان يتقن العربية، ويتمتع بمرح المصريين ولطف تعاملهم، وفي الصف الثاني جلستُ ورئيس بلديتنا إلى جانبه، وحضر رئيس بلدية حلحول محمد ملحم وأحد مساعديه، وعلى المنصة جلس المهندس المصمم وأمامه شاشة عرض كبيرة موجهة للمجتمعين. كان على رئيس البلدية وأنا تقديم نبذة عن تاريخية عن سلفيت، وعن سكانها، وطوبوغرافيتها، والتجمعات السكانية التابعة لها،

والتطور المستقبلي المتوقع للبلدة، التي تمثل مركز المحافظة التابعة لها، وعدد سكانها الحاليين، ومن هم خارج سلفيت، والاحتياجات والخدمات اللازمة لها حالياً ومستقبلاً، كان علينا التحدث بالإنجليزية؛ لأننا لا نعرف العبرية، ولا يقبلون التحدث بالعربية، رغم أن بعضهم يعرفها جيداً.

جاء دور المهندس المصمم الذي أخذ بدوره يعرض على الشاشة الدراسات والمخططات الأولية والأرقام الإحصائية، التي اعتمد عليها، والتصوير الجوي الطوبوغرافي للبلدة ومحيطها، ومن ثم المخططات الملونة، التي توضح الفكرة المعمارية للتنظيم المقترح، وأخيراً قدّم عرضاً لكافة المخططات التنظيمية والشوارع المقترحة ومخططات الشبكة الكهربائية وشبكة المياه والمجاري الرئيسية، ثم دار نقاش طويل بين رجال الصف الأول والمهندس المصمم، الذي دافع دفاعاً مستميتاً عن وجهة نظره ومخططاته، وقدّم شرحاً وافياً لكل ما قام به وباللغة العبرية، ونحن لا نفهم إلا اليسير مما قدمه بالعبرية، مما دفع أحد الجالسين أمامي، وكان رجلاً أصلع أسمر البشرة، وقال بالعربية: هل تفهم ما يقولون؟! قلت: لا أفهم تماماً، فأجابني: أحسن خليك مثل الأطرش في الزفة، ولماذا لا تتعلمون لغة أعدائكم. وعندما سألت عنه شلومو خياط تفاجأت بأنه يُدعى السيد بصراوي وزير المواصلات، وهو من اليهود العراقيين.

وأخيراً تمت الموافقة على المخطط كما هو وبدون تعديلات، رغم أن توسعة حدود البلدية لذلك الحدّ خاصة من الجهة الشمالية

المحاذية لمستوطنة اريئيل أكبر مستوطنات الضفة الغربية، كان سبباً في الغاء مرور الشارع الرئيسي (عابر السامرة) المرفوض، والذي يربط بين تل اييب بالأغوار، وكان من المفترض أن يمر من أراضي سلفيت الواقعة بين البلدة والمستوطنة في الجهة الشمالية، وهذا المقترح أشد ما كنا نخشاه.

تعتمد سلفيت على المنبع المائي حتى عام ١٩٧٤، وهو نبع عين السكة أو العين الشمالية، وبعد توسعة البلدة وازدياد عدد سكانها أصبحت تلك النبعة لا تكفي البلدة، ففي الصيف تواجه البلدة نقصاً حاداً في مياه الشرب، مما أصاب الناس الهلع، وكانت المياه لا تصل البيوت إلا ساعات قليلة كل يومين مرة، وأحياناً لا تصل أبداً، فيستعين الناس بسيارات المياه المحمولة من الينابيع الأخرى، وأهم تلك الينابيع نبع المطوي، الذي يبعد عن البلدة حوالي سبعة كيلو مترات، كان لا بد أن يتم البحث عن حلول ناجحة لتوفير مياه الشرب للقرية، مما حدا بالمجلس البلدي اتخاذ قرار بسحب مياه المطوي إلى خزان مياه البلدة، ولتحقيق ذلك لا بد من تقديم مشروع للإدارة المدنية للموافقة عليه ودعمه مالياً.

جاءني رجل في الستين من عمره يتكلم العربية ولكنه أجنبية، وتبين أنه مسؤول المياه في الضفة الغربية من قبل الإدارة المدنية، جاء بناء على طلب البلدية وقرار مجلسها حول مشكلة المياه، رافقته إلى موقع ينابيع المطوي، وأثناء الطريق الترابي المؤدي للموقع مروراً بموازة وادي سلامة لفت نظري أن الرجل ينظر

بخرائط بين الفينة والأخرى، وسألته عنها، فأخذ يشرح لي بإسهاب عن هذا الوادي الذي نسير بجواره قائلاً:

- أترى هذا الوادي المليء بالنباتات البرية والعرق، وتلك الجبال الشاهقة المحيطة به، كان الناس في العصور الغابرة يسكنون في قمم تلك الجبال، وكما ترى لا زال هناك آثار قراهم الدارسة؛ لأن هذا الوادي كان غزيراً بالمياه على مدار العام، تُغذيه عين سكة والينابيع المنتشرة في جنباته، رغم ضعف مياهها حالياً، وكان كثيف الأشجار البرية كغابات متشابكة، ولهذا فقد كان مأوئاً لأنواع من الحيوانات البرية والمفترسة كالضباع والنمور، فلذلك سكن الناس رؤوس الجبال ولم يسكنوا بطن الوادي.

وأطلعني على الخارطة التي في جعبته، ذهلت عندما دقت النظر فيها، فهي تحتوي على كل ما في المنطقة من مواقع وتفاصيل دقيقة للينابيع جميعها، وحتى رجوم الحجارة، والممرات الزراعية، وبالأسماء التي نعرفها، وأسماء القرى المهذمة في قمم الجبال، فطلبت منه نسخة منها، رفض قائلاً: مثل هذه الخرائط تستطيع الحصول عليها فقط من حكومة بريطانيا التي كانت منتدبه على فلسطين.

بعد استطلاع موقع مياه المطوي وينايبها المتفرقة، والتي لا تبعد عن بعضها كثيراً، والاطلاع على طوبوغرافية المكان ومحيطه، أخبرني (مستر جولاني) أن هذه الينابيع عبارة عن نزازات تتجمع فيها المياه من الجبال المحيطة، وإذا وصلت إلى طبقة

صخرية قريبة من سطح الأرض قرب الوادي تظهر على السطح، وللاستفادة منها يجب تجميعها في خندق واحد، مع توخي الحذر بعدم كسر الطبقة الصخرية الحاملة لها، كي لا تضيع المياه، ومن ثم إقامة خزان في نهاية الخندق، ومنه يتم ضخ المياه الى البلدة، ووعد بأنه سيتم عمل مخطط، وتزويدنا به لتنفيذ المشروع.

جاءنا المخطط، وتوليت مهام تنفيذه، فأنا المؤهل للقيام به، كنت أذهب لنبع المطوي يوميًا بشاحنة البلدية، وبصحبة سائقها الحج فوزي، نسلّك طريقًا ترابيًا رغم قصر المسافة، إلا أن الطريق مزعجًا لكثرة مطباته وتهالك الشاحنة، ومضت أيام وأنا أحمل المخطط وجهاز المساحة الطوبوغرافية (الليفل)، وأقوم بتحديد مسار الخندق حسب المخطط وتنزيله على الواقع، وبدأ العمال بحفر الدرينج، حتى إذا وصلوا عمق متر أو متر وربع بدأت المياه تدفق، فيفرح العمال ويبتهجون، وهم لا يعلمون أن المياه انقطعت عن الينابيع السفلى، وفي الوقت نفسه يتم حفر خزان مياه كبير في نهاية الخندق، وجئنا بمواسير اسمنتية، وقمنا بعمل فتحات في نصفها العلوي، وبوضع سليم وميول مناسبة ١ سم لكل متر طولي، وأضطر لوضع جهاز الليفل على سفح الجبل المقابل، وسلّمت مسطرة الميرا للحاج فوزي في الجهة المقابلة لضبط الأعماق المناسبة لكل ماسورة أو مجموعة مواسير، وتحديد ميولها حسب المخطط، كان حامل المسطرة يغضب من إشاراتي، ويصبيه الضجر، وهو رجل كبير السن، مما يصعب مهمتي، وتحليت بالصبر حتى إنهاء ما هو مطلوب، وانتهى وضع المواسير

في الخندق حتى الخزان، وتم تثبيتها جيداً، ومن ثم وضع طبقات من الحصو فوقها، متدرجة من الأكبر إلى الأصغر، وتم طمر آخر نصف متر بالتراب الزراعي الأحمر، لكي يصبح صالحاً لزراعة الخضراوات.

وهكذا تمّ تجميع المياه في خزان رئيسي بشكل هندسي مجدي، وتركيب المضخات اللازمة، ومواسير مياه حتى الخزان وسط البلدة، وتوزع الماء بانسياب على أحياء البلدة، مما أدى إلى حلّ مشكلة مياه الشرب نهائياً لتلك المرحلة على الأقل.

من أطايب هداياه تعالى أن يرسل لك صديقاً ذكياً صادقاً، ينصحك إذا استشرته، ولا يجاملك إذا أخطأت، ويدود عنك في غيابك، ويعينك إذا احتجته، تلك صداقة بنيت من العقل والفكر، واستقرت في القلب والوجدان، في زمن تصبح فيه أحوج ما تكون إلى مَنْ يصدقك الرأي، ويساعدك على اتخاذ القرار، لا غاية دنيوية جامعة، سوى أرواح تألفت وامتزجت، فأثمرت علاقة لا يشوبها شائبة.

هذا هو صديقي الشاب واصف نزال، من عائلات مدينة قلقيلية العريقة، رجل دمث مرح، قوي الشخصية، نافذ البصيرة، له حضور مميز، لا يهتمه رأي الآخرين إن كان متجنياً عليه، ولا تهزه الخطوب، واثق بنفسه، صاحب همّة عالية، لا تكبر ولا ترفع، إرادته نافذة بلا إجمار.

عرفته في بدايات عملي في البلدية بحكم قرب العمل وتقارب العقول والأفكار، غير أنه أكثر مني نضجاً ودراية وتجربة ومعرفة

بالناس، هو كاتب محكمة صلح سلفيت، وأنا مهندس بلديتها، هو مهندس علاقات، وأنا منظم احتياجات، تنطلق نشاطاتنا معاً، مكنتي في الطابق الأول من البناية، وهو في الطابق الثاني، نلتقي صباحاً، ونعود من عملنا مساءً، توثقت علاقتنا حتى أصبح الداعم الذي أسند ظهري إليه براحة بال، وهو المرجع الذي ألوذ به إذا احتجت، ولم يضرني علي برأي، أو يخذلني في طلب، يصطحبني إلى بيته المستأجر، يعيش مع زوجة طيبة الخلق، نابلسية المنشأ، ولديه ولد وبنت في السنوات الأولى من عمرهما، نصلي سوياً، ونتناول ما حضرته أم لؤي من غداء، ندخن الأرجيلة العجمية، ثم نستلقي قليلاً في مجلس غرفة الضيوف، ثم ينطلق كل منا حيث يشاء، وغالباً ما نلتقي ليلاً للسهر، سواء في بيته أو في بيتي، أو عند أحد معارفنا، وفي يوم الإجازة الأسبوعية، أي يوم الجمعة، نزور أهله في قلقيلية، ودكان أبيه اللحام، المعروف بـ (أبو الزغاليل)، ونحظى ببعض اللحم الذي تصنع منه أمه أشهى الأطعمة، أو نزور بيت حماته في حارة القريون بمدينة نابلس، فتقدم لنا أطيب ما عندها، ونختم زيارتنا بأرجيلة عجمية من يد أم مسعود، كانت هذه بداية تعلقي بالأرجيلة، ومن بعدها الغليون.

أثناء عملي في موقع مياه المطوي حيث تكثر أشجار الفاكهة، وجدت تحت شجرة تفاح ثمرة ناضجة شهية تناولتها وغسلتها وأكلتها، ولم أعرف أن التربة قد أصابها مبيد حشري، شعرت بإعياء شديد، وألم حاد في البطن، فأعادني سائق الشاحنة إلى البلدة، ولأن الألم قد أصبح لا يطاق، ولم أستطع الوصول

للبيت عرّجت على بيت صديقي واصف نزال، وما أن طرقت الباب حتى سقطت أرضاً، وأسرع واصف بمساعدتي، ووصلت الصيدلية الوحيدة في البلدة، صيدلية وليد الصانوري، وعرف ما حدث معي، وقال مماًزحاً: بسيطة، أخيراً قطع الرش في الخنازير، وهذه من مقولات المداعبة بين الناس في سلفيت، ومعروف عن أهلها المزاح والتعليقات المضحكة، أحضر الصانوري كأساً من الملح المذاب في الماء، وشربتها، فاستفرغت ما في معدتي، فارتحت قليلاً، ثم ناولني دواء، وأعادني (واصف) إلى بيته، نمت على الأريكة في غرفة الضيوف، ولم أصح إلا على صوت من جاء ليطمئن عليّ، العم أبو فؤاد الهندي وزوجته، وكانت تلك المناسبة هي بداية معرفتي ببيت (أبو فؤاد الهندي)، وبصحبة واصف زرتهم كثيراً.

بعد انتهاء عامي الأول في البلدية أخذت إجازة قصيرة، زرت عمان، ثم دمشق، حيث بيت عمتي أم مصطفى، وفي اليوم التالي توجهت إلى حلب، وزرت بيت العم (أبو ذياب)، وطلب يد ابنتهم، الطالبة في كلية الهندسة المدنية، كما أوصيتها ذات يوم، مع أنني كنت أشكّ في موافقتهم بناء على موقعي من خالتها غير المتزوجة آنذاك.

وفي صبيحة اليوم التالي استأذنت العم (أبو ذياب) السماح لي بمرافقة كريمته إلى الجامعة، وافق وقد أوصلنا إلى جامعة حلب بسيارته العمومي، التي يعمل عليها سائقاً، وهناك تجولنا في أقسام كليات الجامعة، وعرفتني على أصدقائها وصديقاتها، ودخلنا

مطعم كلية الهندسة، وكانت فرصتي بما أنا عازم عليه، قلت لها مباشرة:

- بنت العم، أنت الآن فتاة ناضجة، وأنا أكبر منك سنًا بخمس سنوات، أظنها كافية لاتخاذ قرار طالما حلمت به منذ زمن بعيد، كنت أكن لك مشاعر دافئة منذ انهيت المرحلة الابتدائية، يوم أمسكت يدك الصغيرة ونحن نسير إلى مدرستك للحصول على نتائج امتحانك، يومها عرق يدك بلل حُضن كفي، وقد لازمتني تلك المشاعر وأنت في الإعدادية والثانوية، كنت أنظر إليك كماء صاف هادئ نقي، ولا يجوز أن ألقى فيه ما يعكر صفوه وسكونه، أما الآن قد أصبحت طالبة جامعية، واشتدَّ عودك واينع، أجد الوقت المناسب كي أصارحك بمشاعري وهدفي من زيارتكم، راجياً أن لا تحرميني من سماع رأيك.

أنت تعرفين تفكيرى وعقلي، وهواياتي، والكثير من تصرفاتي، وشخصيتي وهياتي، ولو كانت عيوني على طبيعتها لما وضعت نظارات طبية غامقة اللون، وأنت تعلمين سوء الفهم الذي حدث بيني وبين خالتك، والتي احترمها جداً، وهذا ما كتبه الله لنا من قدر، وكل شيء في الحياة قسمة ونصيب، كما يقولون، وعلى كل حال سأطلب يدك من والديك، الذين أحبهم جداً، على أمل أن أحظى بموافقتك، التي هي الأساس، وصدّقيني إذا كان ردّك بالإيجاب فسوف أكون أسعد الناس، وإذا كان بالرفض سأتألم، وأسلم أمري لله، وأرضى بما قسمه الله لي، وانا أثق بذكائك وفطنتك، وموقن

بقدرتك على اتخاذ القرار الذي يناسبك، ولا أريد منك جواباً مباشراً الآن، أمهلك إلى الغد، فلا أستطيع المكوث طويلاً، ولن أضغط عليك، فما تقريرينه لن أناقشه.

كانت ردة فعل الفتاة مريحة جداً، انفردت أساريرها، بما ينم عن سعادة ورضى، وتابعنا جولتنا في الجامعة، وتبدو كعصفور جميل أطلق من قفصه، وأصبح حديثها تغريداً شجياً يطرب قلبي، وزرع في داخلي آمالاً عريضة، قضينا يوماً من أسعد أيام حياتي، وأظنها هي كذلك.

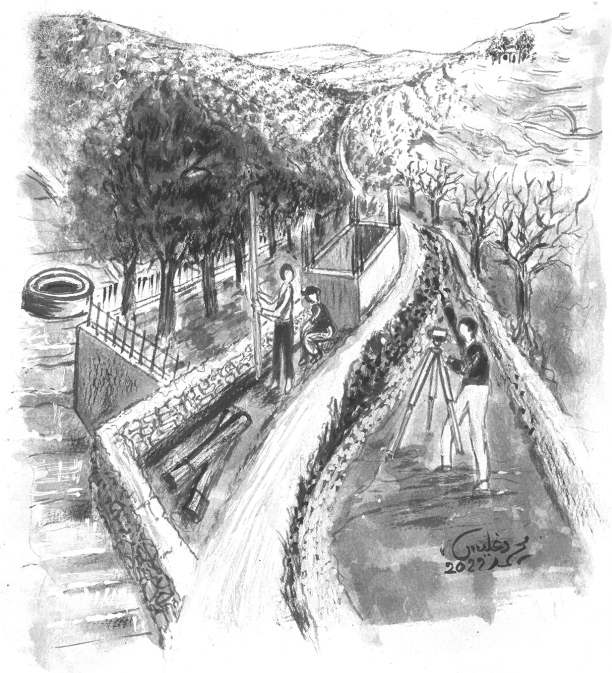
في اليوم التالي ركبت مع العم في سيارته إلى حلب، وفاتحته بطلبي، وحدثته بما جرى بيني وبين كريمته في الجامعة، كان رده بارداً نسبياً، لا أذكر تماماً ما جرى تلك الليلة، فقد قال لي: ليس لدي مانع، لكن لم ننسَ الزلزال الذي وقع في البيت في الصيف الماضي، والذي كاد أن يوقع الطلاق بيني وبين عمّتك، فقد كان صيفاً حاراً حارقاً، إذ جاء أبناء أختي من الأردن، وطلبوا البنت، واختلف الأخوان حتى وصل الخلاف بينهما حد العراك، مما أربك البيت كله، وكادت تشتعل فيه نيران الخلاف، مما أزعجني وأهل بيتي، والحمد لله تجاوزنا تلك المأساة.

بعد ان سمعت منه ما سمعت، قلت: يا عم لن أشعل ناراً جديدة في البيت، لكنني أضع الأمر بين يديك، وتسأل البنت وأهل بيتك، وانتظر ما ترونه مناسباً.

انتظرت، وفي صباح اليوم الثالث حملتُ حقيتي وقررت العودة من حيث أتيت، فاستوقفني العم قائلاً: لماذا أنت مستعجل، قلت:

كنت أتمنى أن أحصل على جواب منكم، فلا أريد أن أكون ضعيفاً
ثقيل الظل، وسفري سوف يغنيكم عن الإحراج، وإذا كان لديكم
قبول أرجو أن تخبروني، فأعود إليكم سريعاً.

ودعتهم وغادرت عائداً أحمل خيبة الأمل، وأحياناً أشعر
بالندم، لماذا لم أكن لحوحاً ومقنعاً وصبوراً أكثر، لعلّ ما كنت
أتمناه قد أفوز به، لكن عملت بالمثل القائل: (اجتني عزة النفس
مع قطعان النسيب).



الحاجة والطموح والظروف تحكم



حمل عام ١٩٧٦ أحداثاً وتطورات كثيرة ومتلاحقة، كان علي أن أجلس وأفكر بهدوء وعمق في حاضري ومستقبلي وطموحاتي وأحلامي، وبناء عليه وضعت الاحتمالات المتاحة لتحقيق تلك الغايات، وعلى ضوء ما يستجد من أمور قد تنير طريقي، وترجح أحد الخيارات، واستعداداً لذلك قررت أن أنهي أعمالي

أول بأول، واضع الأساس اللازم لبدء مرحلة جديدة وأنا مرتاح الضمير وراضي النفس.

وعلى صعيد عملي في البلدية قمت بتجميع كافة أحواض البلدة في مخطط واحد، وثبت الشوارع المقترحة، حسب المخطط الهيكلي المعتمد، ذلك تلافياً لأي خطأ ممكن أن تقع فيه البلدية، بإعطاء ترخيص لأي بناء في المناطق المفتوحة الخالية، ويتبين لاحقاً أنه يقع ضمن أحد الشوارع التنظيمية الرئيسية المقترحة وغير المفتوحة، وهي موجودة على الورق فقط، وغير معروف مكانها بالتحديد على الواقع.

كذلك أصبحت شركة الكهرباء في البلدة متهاكة، ولا تناسب مع التمدد الجديد، كما أن مولدات الكهرباء أضحت مستهلكة، وكثيرة العطب، ولا تفي بالغرض، وتنقطع الكهرباء عن البلدة ساعات طويلة أحياناً، ناقشت الموضوع مع الرئيس، وبناء عليه قرر المجلس البلدي التقدم لسلطات الاحتلال بمشروع تجديد مولدات الكهرباء والشبكة المتهاكة، وتم الحصول على موافقة السلطات، ودعم المشروع، وكنت مضطراً لاستقبال مهندسي الاحتلال، ومناقشتهم، وترجمة ما يقولونه بالإنجليزية للمجلس البلدي، ومرافقتهم في جولات داخل حدود البلدية، وأحياناً لا بدّ من تقديم وجبة طعام لهم، فادعوهم إلى أحد المطاعم المتواضعة في ساحة البلدة؛ لأنني أخشى من دعوتهم إلى بيتي أو أي مكان، بعيداً عن أعين الناس، مما يُثير أسئلة لا تحمد عقباه، رغم أنني

لم أكن مرتاحاً للتعامل مع بعضهم، لكن في النتيجة حصلنا على مشروع كهرباء جديدة للبلدة، مؤلف من ثلاثة مولدات جديدة فرنسية الصنع، كما أذكر، ومخطط شامل للشبكة الجديدة، وأسند إلي الإشراف على تنفيذ المشروع، والبلدية هي من يتدبر التمويل.

صممت وأشرفت على تنفيذ مبنى مناسب للمولدات الجديدة مع خزانات التبريد، وكلّ ما يلزم حسب المخطط، في الوقت نفسه تمّ إحالة عطاء تمديدات الشبكة الجديدة وأعمدتها على شركة عاشور من غزة، ذات الخبرة في هذا المجال، وقد جلبت عمّالها ومعداتنا من مدينة غزة، واستأجروا العمال بيتاً في سلفيت، وعملوا ليلاً ونهاراً بلا كلل أو ملل، وأقوم بمتابعة الأعمال والإشراف عليها، وكان اهتمامي الأكبر منصّباً على مواقع الأعمدة، وفي الوقت نفسه المرجع المسؤول أمام مهندسي (ضباط جيش الاحتلال) الذين يزوروننا بشكل دوري، للتأكد من سلامة التنفيذ، مما سبب إزعاجاً ملحوظاً، وقامت صداقة بيني وبين مدير شركة عاشور (سمير عاشور)، واصطحبني في زيارة لبيتهم في غزة، وخلال رحلة ليلية اخترقنا الشوارع والمدن الكبيرة في الأراضي المحتلة، حيث لمست عن قرب شجاعة أبناء غزة وصمودهم، كنت أخشى من عواقب تلك الرحلة، لكن تمّ إنجاز المشروع بنجاح.

يوجد في سلفيت نادٍ رياضي ثقافي، ويقع بجانب مكتبي الخاص، وجاء موعد انتخاب الهيئة الإدارية الجديدة للنادي وِبِإجماع تم ترشحي لرئاسة الهيئة الإدارية، ترشحت مع مجموعة

أصدقاء، ولا أملك أدنى خبرة في ملابسات الانتخابات، وشعرت أنني وقعت في لعبة انتخابية، حاولت الانسحاب، لكن هناك من وقف إلى جانبي، وفزت برئاسة النادي، رغم أني لم أكن حريصاً على الفوز.

حققت إلى جانب زملائي الهيئة الإدارية الجديدة نجاحات وتميز على مستوى الضفة الغربية، وحققنا الفوز في معظم المباريات الرياضية (كرة القدم)، بحكمة وإدارية أحد أعضاء الهيئة الإدارية الحاج عبد الهادي معالي، وأقمنا أمسيات ثقافية وترفيهية، وشاركت بالعزف على الساز (العود التركي)، كما أقمنا مسابقات فنية وثقافية، مما شجع الشباب لتشكيل فرقة مسرح، وقدموا عروضاً مسرحية أسعدت الناس، وأقمنا نشاطات خطابية في عدد من المناسبات الوطنية والأعياد القومية.

هذه النشاطات فتحت عين مخابرات الاحتلال الصهيوني، وأصبحت مطلوباً للتحقيق في مراكزهم الأمنية، في قلقيلية وطولكرم، وعرفني كابتن يدعى (شايكي)، كان يرافق شمعون بيرس أثناء زيارة لبلدية سلفيت، وعرف أنني مهندس البلدية، شعرت بالقلق الشديد، مما انعكس على مزاجي وعملي، رغم أن التحقيقات تنحصر في أسئلة عامة، ولا تتم عن توجيه اتهام ما، وأسئلة تتعلق براتبتي البسيط، وكيف أتدبر أمور حياتي، كان ردّي إن أبي وجدي لم يكونا مهندسين، وكانا يعتاشان من الأرض والزيتونات، وورثت عنهما حبّ الأرض، وأسير على خطاهم، أما شهادة الهندسة هذه ترف وخدمة جليلة لوطني الذي أعشقه،

وتبيّن لي أنهم لا يعرفون الكثير عني سوى ما تناهى إلى سمعهم
ممن تحقق معهم سابقاً.

بينما كنت جالساً في مكتبي الخاص حضر أحد رجال قرיתי،
وهو أكبر مني بعشر سنوات، هو لا يعرفني وقد تفاجأ بأني
مهندس البلدية، كان عائداً من أمريكا بعد حصوله على شهادة
الهندسة المدنية وأخرى في الاقتصاد، كما علمت منه، وقضى
جزءاً من حياته في الكويت، ثم ذهب لأمريكا وأكمل دراسته
الجامعية، استقبلته مرحباً ومهلاً بقدومه، وهو من اليساريين
الشيوعيين الذين يلقون الكلام على عواهنه، ولا يتخرجون من
قول ما يخطر في ذهنهم، وهم في الغالب لا يحبون أمثالي؛ لأنني
لست مع توجهاتهم السياسية، دفعته الغيرة من منصبي في البلدية
للتهكم والاستهزاء، إذ سألني سؤالاً يعرف جوابه:

- كيف تتابع الورشات العمل والمشاريع في أطراف البلدة؟

- مشياً، من باب الرياضة.

- لا تملك سيارة؟

- لا زلت شاباً يا رجل، وسوف اشتري سيارة إن طال بي
المقام هنا.

- من أين يا حسرة، وأنت (ابو خشبة)؟! قالها مازحاً.

- ولا يهملك، أنا أصعد السلم درجة درجة.

- هذا إذا حصلت على رخصة قيادة، أنت يا دوبك شايف
الطريق!

ألمني حديثه، رغم ما يحمل من مزاح، جاملته بابتسامة صفراء،
أعرف أن هذا هو أسلوب أهل قرיתי، وثقتي بنفسي أقوى مما
يعتقد، وأعلم أن الغيرة دفعته للتهكم والسخرية.

جاءني شاب من قليلية لم أكن اعرفه، يحمل معه شروط
ومتطلبات تسعير عطاء تنفيذ عبارات بمنطقة القدس، طلب دراسة
العطاء وتسعيره كي يقدمه إلى جهة ما، مدّعياً أنه لا يعرف الكثير
عن العطاءات، لم أردّه خائباً.

قمت بحساب دقيق لكميات الأعمال المطلوبة من حفريات
وردم وباطون مسلح وحديد وأجور العمال ونقل وإقامة، وما يلزم
لإنجاز العمل، وضربت حاصل إجمالي التكلفة في ٢٥، ١، أي
بنسبة ربح تساوي ٢٥٪ من التكلفة، وهي الحد الأقصى للربح، كما
تعلمنا في الجامعة، وبذلك يكون قيمة العطاء حوالي ستة وعشرين
ألف دولار، كما أذكر.

وقبل تسليم العطاء بيوم واحد اتصل بي ذلك الشاب ليخبرني
أنه مسافر إلى عمان للضرورة، وتمنى عليّ أن أسلم العطاء في
ظرف مغلق للجهة التي طرحته، فوجدت مجموعة من المقاولين
قد سبقوني، وهم ينتظرون فتح المظاريف، بناء على طلب لجنة
العطاءات، انتظرت معهم حتى فُتحت المظاريف، وفاز بالعطاء
بأقل الأسعار، بفارق كبير بين ما قدّمته والعطاء الذي يليه،
والفارق عشرة آلاف دولار، وحسبت أن الشاب سيقع في مأزق،
وبعد عودته من عمان شرحت له مخاوفي، فقال وهو مطمئن

تماماً: ولا يهتمك المهم العطاء رسى علي، فقلت: نعم هذا ما حدث، فشكرني جداً، ولم أعرف بعدها ما الذي حدث معه، إذ أن مدة العطاء شهران، وجاءني بعد شهرين حاملاً حلوى الكنافة وظرفاً مغلقاً فيه ٢٥٠ ديناراً، وقد حقق من المشروع ربحاً كبيراً، لاحظ استغرابي، فقال: أنت حسبت أن العمل سيكون يدوي، وأنا احضرت آليات ونفذت كل شيء بسرعة وبتكلفة أقل، أيقنت أنه شاب ذكي وجريء، فتبادر إلى ذهني العمل في التعهدات مستقبلاً.

توسعت علاقاتي ومعارفي وأصدقائي، وغدت مقرباً من الناس، كنت أسمع بعض الكلمات النابية من بعضهم عندما أصر على تطبيق القانون التنظيمي والالتزام بالارتدادات وبالنسبة المئوية المحددة في النظام، وخصوصاً فيما يتعلق بمواقف السيارات، والارتدادات الأمامية كي لا تتحول إلى محلات تجارية.

عملت مخططات تجارية للعم (أبو فؤاد الهندي)، وأشرفت على البناء، مما زادهم محبة احتراماً لشخصي، فأصبحت لا أستغني عن زيارتهم في معظم الأيام، وأحياناً برفقة صديقي واصف نزال، وترافقنا في رحلة مشتركة إلى نبع المطوي، وقضينا وقتاً ممتعاً، وعلمت أن ابنتهم تعمل في الكويت، وهي تقضي إجازتها الصيفية مع أسرتها، فتعرّفت عليها.

علمت أن أحد أعمامي سيسافر إلى حلب ليخطب إحدى قريباتنا لابنه، طلبت أن يعيد طلبي بخطبة ابنة العم (أبو ذياب)،

وخلال سفر العم إلى حلب جاء لزيارتنا العم أبو فؤاد وعائلته، وإذا بصوت العم الذي كان سافر إلى حلب يناديني من الخارج، فأسرعت للقائه، وأخبرني أنه تقدم لخطبة ابنة عمي بناء على طلبي، ولم يتلقَ ردّاً منهم، فشكرته وباركت له بخطبة ابنه. عدت إلى مجلس ضيوفنا، وساعة الغروب ودعته، وقلت للعم (أبو فؤاد): أنت عمي وبمقام أبي، ولي عندك حاجة، فأنا قد بلغت ثمانية وعشرين عاماً، وأرغب في خطبة ابنتك، قال بلا تردد: موافق على طلبك، ولكن عليّ أن استشير ابنتي وأمّها.

فما هي إلا ربع ساعة حتى جاءني العم الطيب إلى مكّتي، وقال: توكلنا على الله يا عمي البنت وافقت، وفي الليلة نفسها أخبرت أمّي وبعض أقاربي، واستئذان العم (أبو فؤاد) بعقد الزواج على يد شيخ القرية، مما أغضب أمّي وأقاربي الذي لم أشاورهم في الأمر، وصفة استعجالي بعقد الزواج، وبعد أيام أقمت احتفالاً بهذه المناسبة، وبعد عشرة أيام غادرتنا الفتاة إلى الكويت، حيث كان يقيم أهلها سابقاً، ولا زالت تعمل معلمة في الكويت، وتم الاتفاق على الزواج بعد مضي عام من خطبتي.

حمل هذا الصيف في طياته حدثاً هاماً في حياة أهل قريتي، ألا وهو انتخابات رئيساً للبلدية وأعضاء للمجلس، واجتاحت حمى الاستعدادات والتكتلات الانتخابية القرية، وفتحت الدواوين والتجمعات، وحدث انقسام حاد بين أهل سلفيت، ما بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية، وبصفتي مهندساً للبلدية لم أنحز لطرف

من الأطراف المتصارعة على السلطة، ولموقفي هذا شعرت بإهمال وعدم رضى من الطرفين المتصارعين، وفاز حسن الزير برئاسة المجلس الجديدة، وتفاقت الأمور واثارت الحساسيات بين الناس كأنهم أعداء، وفي يوم حدث خلاف بين جارين من أهل القرية، والخلاف على حدود أرض، وتم تشكيل لجنة من رجالات القرية وأنا أحدهم، وبكل بساطة حسبت مساحة المثلث المختلف عليه، وقسمته بينهم بالتساوي، بحيث أصبح الحد الفاصل بينهم خط مستقيم، وانتهى الخلاف برضاء الطرفين، وقلت أمام الحاضرين مفاخرًا: هذا من فضائل أن يكون من أبناء البلد مهندسًا حاضراً إلى جانبهم، فردّ كبيرهم: لو لم تكن أنت وحسن الزير في البلد لكان حالنا أفضل. قلت: سوف أريحكم مني في وقت قريب، أما حسن الزير فهو الأنسب لبلدتنا. وكان جوابي القشة التي قصمت ظهر البعير.

والسبب الآخر لقراري بمغادرة سلفيت استدعائي المتكرر من مخبرات العدو الصهيوني، أسئلة متكررة وانتظار طويل، وفي آخر مقابلة مع أحد الضباط الجدد رفضت الجلوس على الكرسي، وأجبتة على أسئلته واقفًا، وقلت له لن التزم بالحضور ثانية، وما عليكم إلا أن ترسلوا سيارة شرطة (جيش)، وتلقوني في السجن أو خارج البلاد، فقد تعطلت أعمالي، وأواجه ضغوطات مستفزة، وتضييق مستمر.

والسبب الثالث الذي حفزني في البحث عن مستقبلي استعدادي للزواج العام القادم، ولم يكن بمقدوري العيش وتحمل تكاليف

الزواج، وفتح بيت جديد، وزواج أختي، حينها أيقنت أن العيش الكريم والآمن في عمان.

في أول اجتماع للمجلس البلدي الجديد، والذي عقد في نهاية الشهر الحادي عشر من عام ١٩٧٦م، قدمت شرحاً لرئيس وأعضاء المجلس البلدي عن أوضاع سلفيت التنظيمية والهندسية والفنية، وذكرت بعض التوصيات التي أجدها ضرورية لتلبية احتياجات البلدة، وتثري نشاطاتها، وشكرت رئيس البلدية وأعضاء المجلس على جهودهم، وتمنيت لهم التوفيق، وقدمت استقالتني من وظيفتي في البلدية، تردد رئيس البلدية بقبول الاستقالة، ولكنه لم يرفضها. في عام ١٩٧٧ أصبحت حرّاً، وأدبت واجبي اتجاه بلدي، وقدمت لها ما يشبه خدمة العلم في هذا العمر، وتركت بين أهلي ذكريات جميلة، وخدمات جليلة، وأدبت ما عليّ من التزامات أسرية.

الخاتمة وَإِطْلَالَةٌ عَلَى الْجِزْءِ الثَّانِي



عندما أيقنت أنني أدت ما كنت أحلم به اتجاه وطني وأهلي
ولو جزئياً، كان عليّ أن أمضي بمشروعي أيضاً، على الصعيد
المهني والمادي والأسري، وكنت على قناعة تامة بأن عمّان هي

المكان الأمثل لتحقيق حلمي وطموحي، والعيش حياة كريمة بعيداً عن الغربة، وأمتلك حرّية المواطن المعترّ بنفسه ووطنه، وأن أعيش بين أناس تجمعهم ثقافة واحدة، وعادات وأعراف اجتماعية واحدة.

وصلت عمان مطلع عام ١٩٧٧ وفي جيبي ثلاثمائة دينار، وهي كلّ ما ادخرته خلال السنوات الثلاث التي أمضيتها موظفاً في بلدية سلفيت، وأقمت يومين في فندق الرياض وسط عمّان، ومن ثم انتقلت للعيش مع ابن خالتي ناصر عوده وزميل له، وهما طالبان في الجامعة الأردنية، حرصاً مني على النقود التي أمتلكها، كي تكفني وأنا بلا عمل، كنّا نسكن بيتاً من صالة واحدة، ويقع في نهاية درج طويل، صاعداً من رأس العين إلى سفح حي نزال القديم، حيث تنتشر على جانبيه جرازين بحجم القطط، وبفضل الله لم يدم الحال طويلاً، وبعد أن كادت الدنانير تنفذ فتح الله أبواب الرزق من أوسع أبوابه، رحلة مثمرة في حياتي، ولم تغرني العروض لمغادرة عمّان التي أحبّها كما تحبّني.

عملت موظفاً في البدايات، أولها في شركة سيجما للاستشارات الهندسية، مهندساً مشرفاً في العقبة وجامعة مؤتة، وكان أول راتب تقاضيته مقداره ثلاثمائة وأربعون ديناراً شهرياً، وهذا يساوي ثمانية أضعاف راتبي الأخير في بلدية سلفيت، مما ساعدني خلال أربعة أشهر من توفير تكاليف زواجي، وفرش بيت متواضع لاستقبال العروس قرب عملي في الكرك - مؤتة، وشراء سيارة مستعملة.

وبعد توقف المشروع عملت مديراً فنياً براتب أربعمائة وخمسين ديناراً، ومن ثم مهندساً تنفيذياً في فندق عمّره في شركة الأبنية الحديثة، كل هذا خلال ثلاثين شهراً.

لم أكن أرغب في الوظيفة لولا أن الظروف اضطررتني إليها، وقد استفدت منها في وضع الأساس المتين لبداية حياتي العملية، وما أن استقرت أوضاعي حتى فتحت مكنتي الخاص في العبدلي، وخلال سنة واحدة حققت فيها نجاحاً مبهرًا، ودخلاً أفضل من مجموع ما حصلت عليه خلال ثلاث سنوات، وبعد ذلك أسست شركة استشارية (بترا مهندسون مستشارون) مع عمر خير ونزيه كراوشة وخالد الصوص وزهير مغربي، وكانت شركة استشارية مرموقة، فزنا خلالها بالعديد من الجوائز والمشاريع المعمارية من الدرجة الأولى، وحصلت على دبلوم في الفنون التشكيلية.

وأخيراً استقرّ بي الحال في مكنتي الخاص منذ عام ١٩٨٩ حتى الآن، إذ أصبحت صاحب مكتب مرتّب وتحيطه حديقة رائعة في المدينة الرياضية، وأصبح عندي جاليري للثقافة والفنون، أقمت فيه المعارض الفنية التشكيلية والأمسيات الشعرية والأدبية والموسيقية، وكنت رئيس رابطة أبناء سلفيت، ونائب رئيس رابطة الفنانين التشكيليين لدورات متعددة، ورئيس اللجنة الفنية في منتدى الرواد الكبار، وخلال هذه السنوات حصلت على الفوز في العديد من المسابقات المعمارية، وحققت لي الشهرة في حقول العمارة والفن التشكيلي، وشاركت في العديد من المعارض الفنية

الجماعية، وأقيمت عشرة معارض فردية شخصية في الأردن وفي الخارج.

كانت حصيلة خمسين عاماً من عمري في العمل مرضية جداً، أكثر من حلمي وطموحي، وأصبح لدي بيت جميل أمتلكه على أرض في عمان الغربية، ومكتب واسع، وصالة فنون، وشقة جميلة في ثغر الأردن العقبه، وبعض الأملاك التي تغنيني عن حاجة الناس القريب منهم والغريب، ولي من الأولاد مهندسين اثنين مدني ومعماري، وأربع بنات، مهندسة معمارية وطبيبة طب أسنان ودكتورة فنون وطبيبة طب أسرة.

وفوق كلّ هذا وذاك قناعاتي الراسخة تمتلك قلبي وعقلي، وإيمان لا يتزعزع بالله العظيم وقدرته، وقد مَنَّ عليّ بالحج والعمرات، وعبدته دون تزمت أو مكابرة، ولهذا كله وغيره سيتبع سيرتي في كتاب آخر ألا وهو الجزء الثاني.

المحتويات

٥	الإهداء
٧	مقدمة
٩	تمهيد
١٥	سلفيت - سلة العنب -
٣١	بيت روماني في أقدم الحارات
٣٩	الأسرة الحاضنة
٥١	بدايات الادراك ومدارج الطفولة
٥٩	أمسيات الشتاء القارص
٦٥	أولى الرحلات الجماعية
٧٣	أصعب المهمات التي تحملتها قبل دخولي المدرسة
٧٩	نابلس أقرب المدن لقريتنا
٨٥	طفولة لا تخلو من بعض التسلية والمرح
٩٣	أصعب الكوابيس وأكثرها إيلاماً
١٠١	براءة الطفولة وحُسن الصديق (رفقة الطفولة)
١٠٧	أمي في مستشفى الأشرفية للأمراض الصدرية
١١٥	حقبة التظاهرات والحركات الحزبية
١١٩	سفر أبي إلى البرازيل
١٢٧	انقطاع المموّل لخمس سنوات
١٣٩	سنوات المراهقة، هواياتي: الرسم والموسيقى
١٤٧	دراسة الفرع العلمي في نابلس
١٥٥	فاجعة مقتل عزيز
١٦٣	حرب حزيران عام سبعة وستين
١٦٩	رحلة على غير هدى
١٧٥	الرحلة إلى المجهول
١٨١	ضوء في نهاية النفق
١٨٥	محطات على طريق دمشق حلب إسطنبول

١٩١	في مدينة إسطنبول
٢٠١	زيارة أقاربي في حلب
٢٠٧	خيبة الأمل ومعضلة الاختيار
٢١٣	السنة الجامعية الأولى
٢٢١	عندما يصبح الكابوس أكثر إيلاماً
٢٣١	فقدان المرأة (الأم) التي هونت عليّ غربتي
٢٣٩	رفقة طيبة وزيارة دافئة
٢٤٥	البحث عن الجذور المغتربة
٢٥٥	تجارب سكنية غريبة وفرصة ضائعة
٢٦٥	بيت في حي شعبي مفعم بالأصدقاء والجيران
٢٧٥	المرحلة الجامعية هي الأكثر حيوية في حياة الفرد
٢٨٥	رُبّ صدقة خير من ميعاد
٢٩٧	مشروع التخرج والرحلة الجامعية
٣١٣	إلى اليونان مع صديق الطفولة
٣٢٥	التدريب العملي خاتمة خير
٣٣٧	نهاية عهدي بالجامعة
٣٤١	طريق العودة وإغلاق صفحة
٣٤٧	عمان حاضنتي وإن قست عليّ
٣٥١	العودة إلى عش الطفولة رجلاً
٣٥٧	الملاذ الآمن والمستقر الحاني
٣٦١	غرائب المهنة وعقبات البداية
٣٦٧	سكن منفرد وتشبث بالفرص
٣٧٧	زيارة غالية وتسارع الأحداث
٣٨٣	العودة الميمونة
٣٨٩	خدمات جليلة وخطوات جريئة
٤٠٩	الحاجة والطموح والظروف تحكم
٤١٩	الخاتمة وإطلالة على الجزء الثاني



ولدتُ من أبوين ومن سلالة أجداد كانوا يستصلحون الأرض ويفلحونها، ويخدمون أشجارها كأبنائهم، ويعتاشون من خيراتها، تلك مهنتهم الوحيدة التي يتقونها، جئتُ وأنا في بداية مرحلة التنوير، وتبأت لي فرصة ضيقة لتغيير مهنة الأجداد التي أحبها واحترمها، وقد أعانني الله على تحقيقها، لأصبح مهندساً ناجحاً، يدخل مرحلة جديدة من العمل، تؤسس لعائلة علمية، وعمل الأبناء والبنات في مهن إنسانية مرموقة، ووصلوا إلى أعلى المستويات العلمية والثقافية، كل ذلك انعكس على الأحفاد، الذين التحقوا في أرقى المعاهد العلمية، وشملتهم عناية الأبوين ورعايتهما، مما بشر بمستقبل باهر بفضلته تعالى.

كنتُ على رأس هذا المنعطف الذي أفضى إلى أفق فسيح مشرق، تملكنتي الرغبة في أن أروي بدايات سيرتي، والظروف التي أحاطت بها، كي تكون مرجعاً وحافزاً تتجاوز العقبات، وتدفع الأجيال اللاحقة إلى التميز وتحقيق الذات، مؤكداً أن يد الله وإرادته هي التي صنعت عالمي هذا، وحقت طموحاتي وتمنياتي.

Designed By
S. Alyousef



دار الخليج للنشر والتوزيع

الأردن: عمان، العبدلي تلفاكس: 00962 6 464 7559

daralkhalij@gmail.com

daralkhalij1998

daralkhalij

